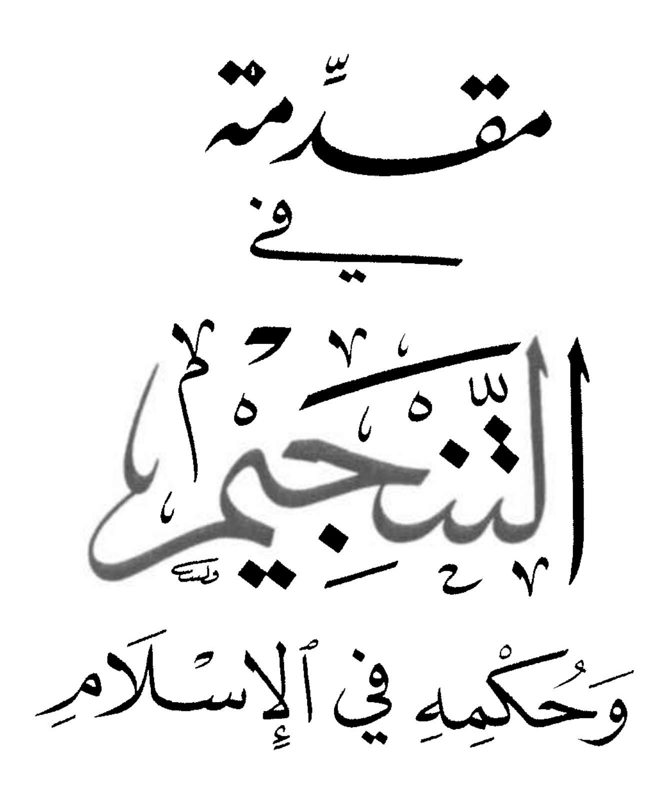


تأليف
الدكتور الياس بلكا

مؤسسة الرسالة
ناشرون

هذا الكتاب وقف لله تعالى. ويمكن لكل من أراد ذلك طبع الكتاب أو نشره أو ترجمته.. كله أو بعضه..

مدونة إلياس بلكا:

Blog : http://ilyassbelga.blogspot.ae/

Twitter + Facebook:

تكتب الاسم باللغة العربية: إلياس بلكا

Email: ilyassbelga@gmail.com

إلياس بلكا: كاتب وأستاذ جامعي من المغرب.

- إجازة (بكالوريوس) في الدراسات الإسلامية، وأخرى في القانون العام (العلاقات الدولية).
- دبلوم الدراسات العليا في الفقه الإسلامي وأصوله.
- دكتوراه الدولة في العقيدة والفكر الإسلامي.

- الكتب المطبوعة، بالعربية:

1- الاحتياط في الشريعة الإسلامية. مؤسسة الرسالة، بيروت، 2003.

2- مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام. مؤسسة الرسالة، 2003.

3- النظرية الإسلامية في الكهانة. مؤسسة الرسالة، 2003.

4- الغيب والمستقبل.

5- الغيب والعقل (دراسة في حدود المعرفة البشرية). الطبعة الأولى: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2008 . الطبعة الثانية: دار التنوير بالقاهرة، 2014.

6- جولات في الدوريات الفكرية الفرنسية الكبرى. مطبعة أنفوبرانت، فاس . 2007 .

7- استشراف المستقبل في الحديث النبوي. سلسلة كتاب الأمة رقم 126، قطر. 2008.

8- الوجود بين مبدئي السببية والنظام. منشورات المعهد العالمي، 2008.

9- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب الكبير: المغرب نموذجا. (بالاشتراك مع الدكتور محمد حراز). مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، 2014.

- كتب بالفرنسية:

- الفكر الجيوبوليتيكي لزبيغنيو بريجينسكي، من خلال كتابه "رقعة الشطرنج الكبرى".

- كتب تحت الطبع:

- مشكلات افتراق الأمة إلى سنّة وشيعة. الأصول والحلول.
- علوم السنة الشريفة: إرث الماضي وتحديات الحاضر.
- دراسات وأبحاث فكرية عامة.
- دراسات وأبحاث في العلوم الشرعية.
- آفاق جديدة في البحوث الإسلامية.
- مشكلة الاستدلال في الفقه المالكي: تطبيقات فقهية من فقه الأسرة.

ومئات المقالات والأبحاث والترجمات المنشورة.. بعضها بمدونة المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة



مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات

مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢٠، ٥٤٦٧٢١

فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)

ص.ب: ١١٧٤٦٠

بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721

Fax: (9611) 546722

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email: resalah@resalah.com

Web site: Http://www.resalah.com

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م

ISBN 9953-32-019-5

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، ورضي عن آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين. أما بعد:

فقبل ما يزيد على عشرين عاماً استحدثت مؤسستنا قسماً جديداً يهدف إلى خدمة التراث العربي الإسلامي من خلال إحياء الكتب الهامة التي أُلفت وصُنفت في عصور الحضارة الإسلامية الذهبية.

وقام على هذا القسم علماء وطلبة علم شهد لهم بالمستوى العلمي المتميز والمنهج العلمي الدقيق، وكان من ثمرة ذلك كتبٌ كانت نجوماً زينت سماء المكتبة العربية، ومدحها القاصي والداني، وما «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«تهذيب الكمال» للمزي، و«صحيح ابن حبان»، و«شرح مشكل الآثار»، و«توضيح المشتبه» إلا أمثلة على ذلك.

ثم كان من توفيق الله أن تتصدى المؤسسة لمشروع «الموسوعة الحديثية الكاملة» بصحيحها وضعيفها، وكان أول الغيث في هذا «مسند الإمام أحمد» الذي صدر في خمسين مجلداً بعد أكثر من عشر سنوات من الجهد البشري والفكري و المادي، ليكون كتاب الكتب وجامع المجاميع.

وتسعى المؤسسة إلى هدف هامٍّ وهو إيصال الكتاب المفيد الهادف إلى القارئ الذي يطلبه ويحتاجه، في دقة وإتقان ومنهجية، إضافة إلى المظهر الحسن، محاولة بلوغ الصورة الفضلى شكلاً ومضموناً، واضعة في سبيل ذلك كل ما تكوّن لديها من خبرات في هذا المجال على مدى سنوات طويلة.

وهي بهذا تحاول المحافظة على التميز في إصداراتها عامة، وفي ما يجب حفظه والاعتناء به وخدمته من تراث هذه الأمة على وجه الخصوص.

وتتطلع مؤسستنا إلى تواصل حقيقي بينها وبين قرائها في كل ما من شأنه الرقيُّ بهذه الاستراتيجية.

واللهَ نسأل أن يمن علينا بالتوفيق والتأييد، ونستعينه أن يأخذ بأيدينا لما فيه خير هذه الأمة.

مؤسسة الرسالة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه وآله، وبعد:

لعل القارئ - الذي اطلع من هذا الكتاب على مجرد العنوان - يتساءل عن أي عصر ينتمي إليه هذا التأليف وصاحبه، فإن التنجيم ظاهرة قديمة جدا، وإذا كان في ماضي البشرية وطفولتها ما يسوغ قيام هذا الفن وما يدفع إلى الاعتقاد به والتصديق بمضامينه... فإن حال الناس اليوم مختلف، فقد ظهر العلم الحديث وحقق إنجازات ضخمة، خصوصا في مجال علم الفلك واستكشاف الفضاء، ووصل الإنسان - بشكل مباشر أو غير مباشر - إلى كثير من الكواكب، كالقمر والمريخ، ودرسها وبين مكوناتها، وبذلك حطم الأوهام القديمة حولها... فمن - بعد هذا كله - يهتم بالتنجيم وآثار النجوم على حياتنا، أو يصدق بشيء من هذه الأساطير والخرافات... بقايا الإنسانية البدائية...؟

إن هذا السؤال وجيه مقبول إذا طرحه المثقف العادي، لكنه ليس كذلك عند أهل الاختصاص، من علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا.. ونحوهم ممن يدرس السلوك النفسي والفكري للإنسان المعاصر، إذ بالنسبة لهؤلاء يعتبر وجود التنجيم وانتشاره مسألة بديهية لا تناقش. وذلك لأن في هذا الموضوع ناحيتين متمايزتين:

الأولى - اهتمام الإنسان المعاصر بالتنجيم، ونحوه من الفنون الخفية كالعرافة والسحر والكيمياء القديمة... فهذا الاهتمام ثابت، تؤكده كثير من الدراسات النظرية والأبحاث الميدانية واستطلاعات الرأي، بل كل المؤشرات تدل على أن للتنجيم مستقبلا «باهرا» في عالمنا هذا. ولذلك يشكل التصديق بالتنجيم واستشارة المنجمين ظاهرة عالمية ثابتة، غزت مختلف المجتمعات، واستشرت في جميع

الطبقات، ولم ينفع في الحد منها لا التقدم العلمي الحاصل ولا العقلانية الحديثة التي بدأت تتراجع، لأسباب ليس هذا موضع بسطها. وفي كتابي هذا تفصيل هذه الناحية من الموضوع، أعني استمرار التنجيم إلى اليوم، خصوصا في الفصل الثالث.

الثانية ـ تفسير هذا الاهتمام المتزايد بالتنجيم. وذلك أن العلماء والمفكرين ـ اليوم ـ وإن اتفقوا على حقيقة انتشار التنجيم والمنجمين في الحضارة الحديثة، إلا أنهم يضطربون في تفسير هذه الظاهرة و يحارون في تعليلها، خصوصا أهل العلم من الغربيين، حتى إنهم يعتبرون أن فهم هذه الظاهرة يشكل أحد أهم التحديات والأسئلة المطروحة على العلوم النفسية والاجتماعية. وقد عالجت هذه المسألة المعقدة في الفصل الثالث خاصة.

وهذا يكشف لك أن الإنسان هو الإنسان، وأن تقدم المعارف، وتطور التقنية، وثورة الإعلام... كل ذلك لم يغير كثيرا من الطبيعة العميقة للإنسان... الإنسان الذي يحتاج إلى عقيدة يؤمن بها وإلى غيب يصدق به وإلى تعبد تسكن به نفسه...

وهنا يأتي دور الإسلام، الدين الخاتم، ليكشف لنا عن الصواب والخطأ في هذا الفن، الذي هو التنجيم، ويقدم لنا العقيدة الصحيحة في الموضوع، وليرشدنا أيضا إلى حقيقة علاقتنا بهذا الكون الفسيح، بما فيه من سماوات وكواكب ونجوم..

وهذا ما فصلت الحديث فيه في الفصلين الرابع والخامس. بينما خصصت الفصل السادس لنقد التنجيم، والسابع لدراسة رأي الفخر الرازي في هذا الفن، وكان هذا فرصة لي لكي أدلي بدلوي في هذا الموضوع. ثم ختمت هذا الكتاب بفصل ثامن عن الأحكام الفقهية للتنجيم والمنجمين.

وقد مهدت لهذا كله بفصلين: الأول، عن تاريخ التنجيم، والثاني عن مبادئه وقواعده، فهذان مدخلان ضروريان لفهم هذه الظاهرة، فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ثم إن لموضوع التنجيم وحكمه في الإسلام أهمية خاصة تتعلق بأحد أهم السلوكات المعرفية للإنسان، وهو: التوقع... توقع المستقبل واستشرافه.

إننا نطرح هذا السؤال: ما هو موقع التوقع ـ باعتباره أسلوبا في الإدراك ـ في

الإسلام، وهل يجيز هذا الدين استشراف المستقبل وتكوين توقعات عنه، أم أن المستقبل غيب، والغيب لا سبيل إلى إدراكه، بل لا يجوز التعرض له؟

وهو سؤال ضخم عالجته في كتابين لي، وهما: «الغيب والمستقبل»، و«الوجود بين مبدأي النظام والسببية...» لكنني وجدت أن كثيرا من عناصر الإجابة على هذا السؤال توجد في النصوص الشرعية والآراء الفقهية التي تخص بعض أساليب التنبؤ قديما، وأهمها: التنجيم والكهانة. فإن القرآن الكريم والسنة النبوية تعرضا لذين الطريقين في «التعرف على المستقبل» بما يكفي ليس فقط لبناء مذهبية إسلامية أصيلة في هذين الموضوعين، بل أيضا بما يعين على استخلاص واستنتاج عناصر ما يمكن تسميته بـ«نظرية المعرفة الإسلامية في التوقع». ولهذا أيضا درست ظاهرة الكهانة والعرافة في كتاب مستقل.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك لي في هذا العمل، وأن يغفر لي ما قد أكون أخطأت فيه، ويهديني إلى الحق والصواب، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾...

تمهيد

التنجيم: حده وأقسامه:

بصفة عامة، نميز - في الدراسات المتعلقة بالنجوم - بين نوعين، وهو تمييز قديم، توارد كثير من علمائنا على ذكره[١]:

النوع الأول: وهو العلم بأسماء الكواكب ومناظرها ومطالعها ومساقطها وسيرها والاهتداء بها[٢]. و يسمى بعلم النجوم التعليمي البرهاني[٣]. قال الفارابي: وهو يفحص عن أشكال الأجسام السماوية وأوضاع بعضها من بعض ومراتبها في العالم ومقادير أجرامها.. ومقادير أبعاد بعضها من بعض.. وكذا حركات هذه الأجسام كم هي، وما أصنافها وجهاتها وبروجها، وهل كل الكواكب تتحرك وكيف.. ثم مسائل كسوف الشمس والقمر[٤].. وغير ذلك مما كان يشكل قديما علم الهيئة، ويطلق عليه اليوم علم الفلك.

النوع الثاني: وهو الذي نعنيه بالتنجيم اليوم، وقد كان يسمى بعلم النجوم أو علم النجوم الطبيعي أو علم النجامة أو أحكام النجوم أو صناعة النجوم، والمشتغل به هو الأحكامي أو المنجم[٥].

---

(١) القول في علم النجوم، للخطيب البغدادي، ص ١٢٦، ١٦٨. معالم السنن، للخطابي، ٤/ ٢١٢ - ٢١٣.. طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي، ص ٨٠. فتاوى ابن تيمية، ٣٥/ ١٨١. (ترجمة عنوان الكتاب: آراء ابن سينا في التنجيم) Mehren :Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p18

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٢٦، والفارابي هو أبو نصر محمد بن طرخان، فيلسوف كبير، نشأ بالعراق، وصنف كثيرا. توفي سنة ٣٣٩هـ. عن الأعلام، للزركلي، ٧/ ٢٤٢.

(٣) طبقات الأمم، ص ٨٠.

(٤) إحصاء العلوم، للفارابي أبو نصر، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٥) طبقات الأمم، ص ٨٠. دائرة المعارف الإسلامية، مقال: تنجيم، ٥/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠. وعلى القارئ في التراث الإسلامي أن يكون حذرا إذا قرأ أن لفلان كتابا في النجوم، أو اشتغل بعلم النجوم... أو نحو =

وقد عرفه الفارابي بأنه «علم دلالات الكواكب على ما سيحدث في المستقبل، وعلى كثير مما هو الآن موجود، وعلى كثير مما تقدم»[١]. أو نقول ـ كما قال ابن تيمية ـ :التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية[٢]. أو كما قال ابن الأكفاني: «علم أحكام النجوم علم يتعرف منه الاستدلال بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية»[٣]. فمن أوضاع الأفلاك والكواكب، من المقابلة والمقارنة والتثليث والتسديس والتربيع، يستدل المنجم على الحوادث الواقعة في عالم الكون والفساد من أحوال الجو والمعادن والنبات والحيوان[٤].

لكن التنجيم ينبني على الفلك، بمعنى أنه يستعمل بعض نتائج هذا العلم، لذا كانت الثقافة الفلكية ضرورية للمنجم، يقول البيروني ـ وهو أحد من درس العلمين جيدا ـ : «إن الإحاطة بهيئة العالم وكيفية السماء والأرض وما بينهما، على وجه الأخبار المأخوذة بالتقليد،نافعة جدا في صناعة التنجيم، لأن بها تقع للمستمع درجة يعتاد بها الألفاظ الجارية فيما بين أهلها ويسهل تصوره لمعانيها، حتى إذا عاد عليها (كان) متعرفا وجوه عللها وبراهينها. . .ولذلك عملت هذه التذكرة. .وابتدأت بالهندسة والحساب والعدد، ثم هيئة العالم، ثم أحكام النجوم، لأن الإنسان لا يستحق سمة التنجيم إلا باستيفاء هذه الفنون الأربعة»[٥].

= ذلك، إذ يمكن المقصود هو علم الهيئة أو يكون هو التنجيم. وفي اللغات اللاتينية تفرقة بينة بين ذين الفنين، ففي الفرنسية مثلا : علم الهيئة أو الفلك هو Astronomie، وعلم التنجيم هو Astrologie. أما اليوم فلا خوف من هذا الخلط.. أما اليوم فلا خوف من هذا الخلط.

(١) إحصاء العلوم، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) الفتاوى، ١٩٢/٣٥. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٣٠٤، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم، الإمام، صاحب التصانيف. توفي بدمشق سنة ٧٢٨هـ انظر : الأعلام، لخير الدين الزركلي، ١/ ١٤٠.

(٣) في كتابه إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، ص ٦٦. وهو محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري، المعروف بابن الأكفاني، أبو عبد الله رضي الدين. طبيب ورياضي، توفي بالقاهرة سنة ٧٤٩هـ ـ من كتبه: نخب الذخائر في أحوال الجواهر. اللباب في الحساب. عن معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ٨/ ٢٠٠.

(٤) مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة، لطاش كبرى زاده، ١/ ٣١٣. وتبعه حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٩٣٠.

(٥) مخطوط: التفهيم لصناعة التنجيم، ص ٧. وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، =

ويتنوع التنجيم إلى نوعين رئيسيين[1]:

١ - تنجيم عام يتعلق بمستقبل جماعة أو مدينة أو شعب أو حتى بمستقبل الإنسانية كلها. وغالبا ما يكون موضوع التنبؤ هنا سياسيا، كخلافة الملك، أو حربيا كتحديد الظافر في المعركة، أو يتعلق بكارثة طبيعية مقبلة كزلزال أو فيضان. .أو نحو ذلك.

٢ - تنجيم خاص، يبحث عن مستقبل فرد معين وأحداث حياته المقبلة. وهذا بدوره قد ينقسم إلى التنجيم الذي يعتمد على الطالع الفلكي، فهو يتعلق بحياة الشخص من مولده إلى وفاته؛ وإلى تنجيم آني، يرشد السائل إلى طريقة اتخاذ قرار أو الاستفادة من وضع طارئ.

= رياضي وفلكي وطبيب ومؤرخ. سافر إلى الهند ومكث فيها سنين. ودرس كثيرا من علوم اليونان والهند. له كشوفات هامة في الفلك والرياضيات. وهو كثير التصنيف. من كتبه: الآثار الباقية عن القرون الخالية. مقاليد علم الهيئة. الصيدلة في الطب... معجم المؤلفين، ٨/ ٢٤١.

(١) (الكتاب معناه في اليونانية: الكتب الأربعة)Ptolémée : Tétrabible, p 69 . وانظر:
Marcel Boll: Quelques sciences captivantes
(Ondes humaines? Délires collectifs. Hypnotisme. Psychanalyse. Suggestion. Métapsychie. Astrologie.
Spiritisme. Radiesthésie), p :190.

الفصل الأول

التاريخ العام للتنجيم

أصل ظهور التنجيم:

في التنجيم مشكلة يجوز أن نطلق عليها: مشكلة الأصول. فلا أحد يعرف متى ظهر هذا الفن وكيف، إلا على وجه التقريب والاحتمال.

والكتاب الذين يؤمنون بالتنجيم وكتبوا فيه ـ مثل توكر ـ[(١)] يحاولون ما أمكن رد بدايات التنجيم إلى أقدم تاريخ ممكن، فهي عند بعضهم تعود إلى سنة ٣٧٦٩ قبل الميلاد، وآخرون يرجعون بالتنجيم إلى أكثر من ستة آلاف سنة. دون أن نتحدث عمن يؤرخ ظهوره بأكثر من خمسين ألف سنة[(٢)]، أو حتى ٤٧٠ ألف سنة.[(٣)]

وإنما يفعل أهل التنجيم ذلك لإضفاء شيء من المصداقية التاريخية على هذه الممارسة التي يدافعون عنها، والشيء كلما كان أوغل في القدم، كان الآن أرسخ وأثبت..

أما المؤرخون «المحايدون» فلهم تأريخ آخر للتنجيم، وهذا تقسيم أحدهم لمراحله وأصنافه[(٤)]:

١ـ التنجيم الديني، وهو أقرب إلى أن يكون ديانة قائمة بذاتها، وهو مرحلتان:

الأولى: وتسمى بالعصر قبيل التنجيم، وكان هذا في الألفية الثالثة قبل الميلاد، في زمن السومريين ببلاد الرافدين.

---

(١) William Tucker ، بريطاني له دكتوراه في العلوم، وهو مدير مجلة « العلم والتنجيم» الإنكليزية.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، لشيشرون، ص ١٨٨.

(٣) انظر: (مبادئ التنجيم العلمي) Tucker : Principes d'astrologie scientifique, p 7 et après,.
(باطنية فلك البروج) Marguerite Mértens: L'occultisme du zodiaque, p 20 et après.

(٤) (الموسوعة الكونية، مقال التنجيم) Encyclopaedia Universalis, 3/279 à 286, article astrologie.

الثانية: وهي مرحلة أكادية بابلية، تغطي الألفية الثانية ق.م، وفيها ظهر التنجيم ببعض خصائصه المميزة.

٢ـ التنجيم الأسطوري الباطني، حيث تختلط قصص الأساطير ببعض المفاهيم الباطنية والغنوصية. وقد ازدهر هذا النوع من التنجيم بمصر خاصة، واختلط فيها بالسحر، واعتبر طريقا للخلاص والتحرر النهائي للذات.

٣ـ التنجيم الكلاسيكي، أو التعليمي، ويمثله بطليموس[١] ومدرسة الإسكندرية. وهذا التنجيم يتنبأ بالمستقبل انطلاقا من حركات الكواكب، ولكنه يقتصر على استعمال الحساب والرموز دون أن يدخل فيه عناصر دينية أو باطنية. وغرض هذا التنجيم توجيه القرارات المتعلقة بالمستقبل[٢]، فهو يزعم أنه يحدد طبيعتها وطبيعة آثارها، من هنا سمي بالتنجيم الأحكامي، أو أحكام النجوم. وإذا أطلق لفظ التنجيم انصرف إلى النوع الثالث، أي الكلاسيكي.

أين ظهر التنجيم؟

هذا عن زمان ظهور التنجيم، أما عن مكانه فهو يدور بين احتمالات ثلاثة[٣]:

الأول: ظهر التنجيم بالهند.

الثاني: نشأ التنجيم بمصر، ومنها انتقل إلى بابل وغيرها. والتنجيم الفرعوني قديم جدا، يقول شيشرون: «المعتقد أن المصريين قد اكتسبوا بدورهم هذا الفن نفسه عن أجدادهم، خلال ماض سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد.»[٤]

---

(١) Claude Ptolémée فلكي ومنجم وجغرافي يوناني. قام بملاحظاته الفلكية بالإسكندرية. ووضع كتابه «المجسطي» الذي عرض فيه نسقا فلكيا ساد إلى حدود النهضة، وفيه تصور الأرض مركزا للعالم. ويعتبر ابن الهيثم أحد الفلكيين القلائل الذين نقدوا فلك بطليموس، في كتابه: الشكوك على بطليموس. توفي سنة ١٦٨م.

(٢) انظر نماذج لتنبوءات تنجيمية وجدت في ألواح قديمة: Paul Couderc: L'astrologie, p 91.

(٣) راجع: Tucker : Principes d'astrologie scientifique, p 10 ـ ١١.
Mme Mértens : Occultisme du zodiaque, p 17 à 20.
T. Subba Rao : Les douzes signes du zodiaque. Un article de l'écrivain indien que Mme Mértens a reproduit dans son livre, p 183.
P. Couderc : L'astrologie, p 59.

(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ٣٦. هذا الكتاب لشيشرون، أكبر الكتاب اللاتين، كان له دور =

الثالث: بل ظهر ببلاد ما بين النهرين، أي العراق وما حواليه. وربما كان هذا رأي الأكثر. يقول شيشرون: «إني لأعلم أن ليس بين الأمم - المهذب والمتعلم منها، أو الهمجي والجاهل فيها - من لا يرى بأن هناك شواهد تنبئ عن حوادث المستقبل، وأن بين الناس من يستطيع معرفة هذه الشواهد والتنبؤ بالحوادث قبل وقوعها. فإذا التمسنا شاهدا - على ما أسلفنا - في الماضي السحيق، وجدناه في الأشوريين، فقد مكنتهم سعة السهول التي أقاموا في رحابها، ومنظر السماوات التي تمتد مكشوفة على مدى البصر في كل صوب، من أن يلاحظوا مسالك الكواكب، وأن يرقبوا حركاتها فسجلوا ما أدته إليهم مشاهداتهم، وورثوا الأجيال التي أعقبتهم ما تحمله حركات الكواكب من دلالات على حظوظ الناس. ومن أبناء هذا الشعب نفسه عرف الكلدانيون... والمظنون أنهم واصلوا ملاحظة المجموعة النجمية زمانا طويلا، واستغلوا هذه المشاهدات في إقامة علم يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس، ومعرفة المصير الذي قدر لهم»[(١)].

وهذا الرأي هو الغالب على علماء المسلمين وكتابهم قديما، يقول القاضي صاعد: «وكان من الكلدانيين علماء من أجل الناس فضلا وحكما، متوسعون في فنون المعارف، من المهن التعليمية، والعلوم الرياضية والإلهية. وكانت لهم عناية بأرصاد الكواكب وتحقق بعلم أسرار الفلك، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها وخواص المولدات وقواها. وهم نهجوا لأهل الشق الآخر من معمور الأرض الطريق إلى تدبير الهياكل، لاستجلاب قوى الكواكب وإظهار طبائعها وطرح شعاعاتها عليها، بأنواع القرابين المؤلفة لها، وضروب التدابير المخصوصة بها، فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة، والنتائج العجيبة، من إنشاء الطلسمات وغيرها من صناعة السحر. وأشهر علمائهم عندنا وأجلهم هو هرمس البابلي.. ومن علمائهم.. برجس صاحب كتاب أسرار النجوم.. ومنهم واليس.. ومنهم اصطفن..»[(٢)]

= سياسي بروما، وقتل سنة ٤٣ قبل الميلاد. له عدة كتب في الخطابة والفلسفة (عن موسوعة petit Robert، وأكثر التراجم الأجنبية أخذتها من هذه الموسوعة).

(١) علم الغيب.. ، ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) طبقات الأمم، ص ٢٤ - ٢٥. وصاحبه قاضي طليطلة، هو أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي التغلبي. ولد بألمرية سنة ٤٢٠هـ، وتوفي سنة ٤٦٢هـ، من كتبه: تاريخ الإسلام. تاريخ الأندلس. =

والقرآن الكريم أشار إلى أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا نجامين، وقد عاش النبي الكريم ببابل حوالي ١٨٠٠ ق.م، وكانت تحت حكم الكلدان. لكن هذا لا يدل على نفي المعرفة بالتنجيم عن غير البابليين، ولا نفي وجوده قبل زمن إبراهيم عليه السلام.

ومن الملاحظ أن الشكل العام لفلك البروج Zodiaque، معروف وموجود عند كثير من الشعوب، ويتشابه هذا الشكل عندها، وهو تقريبا نفسه عند المصريين واليونان والفنيقيين، بل حتى عند سكان البيرو بأمريكا اللاتينية، أي الهنود الحمر، فالحمل - عند غيرهم - استبدلوه بحيوان اللاما عندهم[(١)].

ولذلك فبعض الكتاب يرفض أي تحديد نهائي لظهور التنجيم، فلهذا أصل ضائع في الماضي السحيق الذي لا علم لنا به[(٢)].

كيف ظهر التنجيم؟

ولئن كنا نملك بعض المعلومات عن مكان نشوء التنجيم وزمانه، فمعلوماتنا أقل وأشح بالنسبة إلى موضوع آخر، هو كيف ظهر التنجيم، وبأي منطق نشأ؟

ويبدو أن الإنسان لاحظ في البداية كيف أن مجموعة من الظواهر الأرضية ترتبط بالسماء وأفلاكها: فالشمس مثلا توفر له النور والحرارة والحياة.. وبحسب وضعها في الفلك تكون الفصول.. والقمر يتسبب في حركات المد والجزر، وله دور في كسوف الشمس.. من ذلك يظهر أن الإنسان القديم استنتج أن قوة هذه الكواكب لا بد أن تتحكم أيضا في الشؤون البشرية على وجه الأرض[(٣)].

ويخمن توكر أن أهم ملاحظة أثارت اهتمام هذا الإنسان فاستند إليها واستثمرها هو اكتمال البدر، فهذه ظاهرة دورية تحدث مرة في الشهر، وفي كل مرة

= إصلاح حركات النجوم. مقالات أهل الملل والنحل... عن الأعلام للزركلي، ٣/ ٢٧١. يقصد بهرمس شيئان: هرمس الإله اليوناني. وهرمس الإنسان الحكيم الذي أسس المعرفة، وهو بابلي أو مصري، وتنسب إليه المجموعة الهرمسية. فهذه أسطورة.

(١) L'occultisme du zodiaque, p 21. وانظر مقال سوبا راو بالكتاب نفسه، ص ١٨٣ فما بعدها.

(٢) L'occultisme du zodiaque, p 21.

(٣) L'astrologie, p 20.

يكون وضع القمر بالنسبة إلى مجموعات نجوم المجال الدائري لفلك البروج مختلفا. لكن بعد اثني عشر اكتمالا يعود القمر إلى مكانه الأول، ومن هذا قسم الإنسان السماء إلى اثني عشر مجالا، أطلق عليها فيما بعد اسم: البروج[١].

التنجيم مع اليونان:

ولما كان للإغريق اتصال وثيق بالحضارات الشرقية المجاورة لهم، والتي بها ظهر التنجيم، خصوصا: مصر، وبلاد الرافدين. .فقد أخذوا عنهم مبادئ الفلك والتنجيم مختلطة، كما كانت عند القدماء.

وفي اليونان شغف بالتنبؤ ودرك المستقبل - كما يدل على ذلك ما كانت تحظى به معابد الكهانة من شأن وقيمة بينهم - ، ولذلك اعتنوا بالتنجيم وطوروه[٢].

وقد كان فيثاغورس - في القرن السادس قبل الميلاد - أحد هؤلاء المستفيدين من علوم ومعارف تلك الحضارات، فساهم بشكل غير مباشر، وبفضل اكتشافاته في الفلك، في تطوير التنجيم الكلداني، خصوصا أنه كان يعتقد أن الكون مثل الأرض، كلاهما كروي الشكل[٣]. لكن المساهمة الأهم لفيثاغورس ومدرسته انصبت على التنجيم الباطني الأسطوري[٤].

وعلى العموم فإن اليونان عرف التنجيم البابلي بداية من القرن الرابع قبل الميلاد، في الغالب بسبب غزوات الإسكندر الأكبر وما صاحبها من التعرف عن قرب على الديانات والمعتقدات الكلدانية[٥]. ثم حوالي سنة ٢٨٠ ق.م أصبح للقارئ اليوناني معلومات أوفر عن التنجيم، بفضل كتابات كاهن بابلي عاش باليونان، اسمه بيروز. أما الانتشار الحقيقي للتنجيم في بلاد الإغريق، فقد تأخر إلى القرن الثاني قبل الميلاد، فظهر منجمون اتخذوا من هذا الفن حرفة[٦]. وساعد

---

(١) Principes d'astrologie, p 11 ـ ١٢.
(٢) Ency.Uni. 3/284, art astrologie.
(٣) Principes d'astrologie scientifique, p 15 ـ ١٦.
(٤) Encyclopaedia Universalis, 3/285.. وفيثاغورس رياضي يوناني، له فلسفة في علاقة الأرقام بالوجود.
(٥) (الكهان ومعابد الكهانة عند اليونان) Devins et Oracles grecs, p 29 ـ ٣٠. : Robert Flacelière
(٦) (الإغريق واللاعقل) :. E.R. Dodds Les Grecs et l'irrationnel, p 235. والكاهن البابلي هو Bérose.

على ذلك كتابات هيباركوس[١].

فلما جاء بطليموس قدم أهم عمل لصالح التنجيم، وهو كتابه تيترابيبلوس (أو «الكتب الأربعة»)، الذي يعتبره الغربيون أهم وأقدم مؤلف تنجيمي وصل إلينا. وفيه خلاصة وافية ومركزة لهذا الفن، حتى صار - بتعبير توكر - الإنجيل الحقيقي للمنجمين[٢]. وقد خلط بطليموس في تنجيمه بين كل اللغات: لغة الأسرار الباطنية، ولغة الرياضيات، ولغة علم الفلك الناشيء[٣].

وكان من أهم ما أضافه الإغريق إلى التنجيم: توسيع قاعدته من المعلومات الفلكية. ووضع الطالع الخاص بالفرد، وبذلك ظهر التنجيم الأحكامي. والربط بين العناصر الأربعة والطبائع الأربعة، وبين الكواكب...[٤]

موقف الفلاسفة الإغريق من التنجيم:

رغم المعارضة التامة لبعض علماء الفلك اليونان للتنجيم، أمثال: أودوكسوس، وكارنيادس[٥]..إلا أن أهم الفلاسفة - على العكس من ذلك - ساهموا في تثبيت التنجيم وترسيخ مشروعيته.

لقد ساعدت أكبر المدارس الفلسفية - بصفة غير مباشرة - على انتشار التنجيم: الأفلاطونية، والأرسطية، والرواقية..وذلك بسبب فلسفتها الإلهية في موضوع السماء والنجوم[٦].

---

(١) Principles d'astrologie scientifique, p 18.. و Hipparque فلكي ورياضي يوناني عاش بالقرن الثاني ق.م، وهو أقرب إلى المنهج العلمي من الفلكيين الإغريق الذين سبقوه. وهو الذي اكتشف ظاهرة «مبادرة الاعتدالين»، كما نقل بعض الفلك البابلي إلى اليونان.

(٢) Principes d'astrologie..., p21. ، كان بالهند كتاب «السندهند»، لعله أقدم.

(٣) Encyclopaedia, 3/285.

(٤) L'astrologie, p 94. Principes d'astrologie...p 18 - ١٩.

(٥) L'astrologie, p 92.. أما Eudoxe ففلكي وفيلسوف إغريقي توفي سنة ٣٥٥ ق.م، وضع فلكا على أساس من فلسفة أفلاطون، وعمله هذا اعتبر بداية لعلم الفلك اليوناني. وهو غير أودوكسوس الرحالة الذي عاش بالقرن الثاني ق.م. وكارنيادس Carnéade فيلسوف وخطيب يوناني، كان على رأس الأكاديمية لفترة، وتوفي سنة ١٢٩ ق.م. (عن موسوعة Alpha).

(٦) Les Grecs et l'irrationnel, p 235.

أفلاطون مثلا كان يعتقد بنوع من ألوهية النجوم[١]، والأرض عنده هي أول الآلهة وأقدسها، سوى الإله الصانع[٢]. ولذلك يتساءل بعض الكتاب إن كان لأفلاطون شكل من الديانة التنجيمية[٣].

لكن - كما يقول كوديرك[٤] - لا أحد ساهم مثل أرسطو - وهو صاحب التأثير الكبير في الفكر اليوناني والإنساني - في التمهيد لانتشار التنجيم والمساعدة على الاعتقاد فيه.. وهي المساهمة التي امتد أثرها إلى الأزمنة الحديثة[٥].

ويمكن أن نتلمس في فيزياء أرسطو شيئا من معالم هذه المساهمة. فالعالم - عنده - غير كائن، ولا يفسد، أي أن وجوده أزلي، لا أول له ولا آخر[٦]، وفي وسطه توجد الأرض الساكنة[٧]. والجرم السماوي المتحرك في حركة دورية لا تنتهي، هو موضع الروحانيين الذين لا يلحقهم كون ولا فساد، ولذلك هو لم يتغير أبدا، وهو أزلي رغم تناهيه في المقدار[٨].

ومن أسباب مسؤولية أرسطو عن انتشار التنجيم تقسيمه العالم إلى علوي وسفلي، حيث مدبر كل شيء في الكون هو العالم العلوي، وبالأخص الفلك الأول الذي يعتبر - أكثر من باقي الأفلاك - مبدأ الحياة وعلة الوجود للأشياء الحية وغير الحية، بينما الصانع يحرك هذه الأفلاك في البداية فقط[٩].

ويستأنس أرسطو في بعض آرائه هذه بالكلدانيين «الذين كانت فيهم الحكمة موجودة قديما ثم بادت»[١٠].

---

(١) Marcell Boll: L'occultisme devant la science, p 35.. (ترجمة عنوان الكتاب: الباطنية أو الفنون الخفية وجها لوجه أمام العلم).

(٢) (محاورة طيماوس) Platon : Timée, p 40. والصانع هو Démiurge.

(٣) Rivaud Albert: Introduction à Timée, p 36 - ٣٧. وصاحب التقديم والترجمة ريفو أستاذ بكلية الآداب ببواتييه بفرنسا.

(٤) Paul Couderc فلكي فرنسي كان يعمل بمرصد باريس، في سنوات ١٩٥٠.

(٥) L'astrologie, p 92.

(٦) تلخيص السماء والعالم، لابن رشد الحفيد، ص ١٤٢ فما بعدها. ص ١١٨. والأصل لأرسطو.

(٧) تلخيص السماء والعالم، ص ٢٦٨.

(٨) تلخيص السماء والعالم، صفحات ٧٧ - ٨٧ - ١٧٨.

(٩) تلخيص السماء والعالم، ص ١٨٨، ٢٤٩.

(١٠) تلخيص السماء والعالم، ص ٨٨. وانظر ص ١٨٨ - ١٨٩.

أما في الرواقيين فقد عرف بالدفاع عن التنجيم بوزيدونيوس بالخصوص[١].

ويكاد بانياتيوس يكون الرواقي الوحيد الذي أبى التنجيم[٢].

هذا مقال أكثر الفلاسفة، لكن كان بينهم من هاجم التنجيم، خصوصا من الأبيقوريين[٣]، ومن الاتجاه الشكي، حيث كتب أومبيريكوس كتابا ضد التنجيم[٤]. ومن الرافضين أيضا لنبوءات أهل النجامة يودوكسوس[٥].

الرومان:

اعتقد الروم بدورهم في التنجيم، وكان قد انتقل إليهم من العبيد الذين جلبتهم روما من شرق البحر المتوسط، ثم ما لبث أن تغلغل بين جميع طبقات الشعب.

وقد حاول بعض الحكام الرومان منع هذه الممارسة، فصدرت مراسيم في عهود أغسطس، ودوميتيانوس، وأدريانوس.... ولكن دون جدوى، بل على العكس من ذلك سرعان ما تحول أكثر الأباطرة والحكام الرومان إلى التنجيم، فلجؤوا إلى المنجمين واتخذوا منهم مستشارين. من هؤلاء الحاكمين: كراشوس، وسيلا، وقيصر، وأكريبين التي كان لها تأثيرها في الحكم عن طريق زوجها كلوديوس، ونيرون[٦].

واشتهر بالخصوص تيبيريوس، الإمبراطور الذي عاصر المسيح عليه السلام، بكثرة ممارسة التنجيم وشدة استعماله[٧].

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٠٦. و Posidonius فيلسوف أسس مدرسة برودس. توفي سنة ٥١ ق.م بروما.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٣. و Panetius درس بأثينا، ورحل إلى روما، توفي سنة ١١٠ ق.م.

(٣) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، لجفري بارندر، ص ١٠٦.

(٤) Quelques sciences captivantes ,p206. وهو Sextus Empiricus فيلسوف وفلكي وطبيب يوناني. عاش بالإسكندرية وأثينا. لقب بالإمبريقي، لأنه أدخل المنهج الإمبريقي في الطب. كتبه الفلسفية هي أهم المصادر في موضوع المدرسة الشكية والرواقية القديمة. وبعضها وصل إلينا.

(٥) علم الغيب... لشيشرون، ص ١٨٢.

(٦) L'astrologie, p 94 - 95 وهم بالحرف اللاتيني: Sylla. Gracchus. Adrien . Domitien. Tibère. Néron. Agrippine. César.

(٧) Paul Petit (: Précis d'histoire ancienne, p276. مختصر التاريخ القديم).

ومن هؤلاء أيضا هرقل، الذي كان حاكما على إمبراطورية الشرق في عهد النبي العربي ﷺ، ففي الحديث الطويل الذي رواه البخاري عن بدء الوحي أن هرقل أصبح يوما خبيث النفس، وكان حزاء ينظر في النجوم، فنظر فيها ليلة ورأى ملك الختان قد ظهر. فاغتم لذلك[١].

ومعنى «خبيث النفس» أي مهموما، وقد تستعمل في كسل النفس. أما الحزاء فهو الكاهن أو المنجم. وهذه القصة وقعت في العام الثامن للهجرة. وكان هرقل يشتغل بحساب التنجيم فظهرت له أشياء توجب اقتراب ملك العرب، فاغتم لذلك. وذكروا من هذه الأشياء أن المولد النبوي كان بقران العلويين ببرج العقرب، وأن هذا البرج مائي، وهو دليل ملك القوم الذين يختتنون، فكان ذلك دليلا على انتقال الملك إلى العرب[٢].

قصة القديس أغسطين مع التنجيم:

وهي قصة تلقي بعض الضوء على حال التنجيم في القرون الأولى بعد الميلاد، وكيف تعامل معه مثقفو ذلك العصر. ومن هؤلاء أغسطين الذي نشأ بقرطاجة، ثم تابع دراسته بروما. وقد بدأ باكرا رحلته في البحث عن الحقيقة التي توهمها في البداية في الديانة المانوية، فهذه كانت تقدم حلا جيدا - في الظاهر - للمشكلة التي شغلت أغسطين كثيرا: ما هو أصل الشر؟

وبعد هذه المرحلة، اتصل أغسطين الشاب بالكهنة وسدنة المعابد، لكنه حين عرف طمعهم وتلاعبهم بالقرابين واستعانتهم بالشياطين.. تركهم وتحول إلى المنجمين، فهؤلاء - على الأقل - ليس لهم قرابين ولا شياطين، بل يحملون أخطاءنا وذنوبنا للسماء والكواكب. ووجد في صدق بعض توقعاتهم دليلا على صحة هذا التنجيم الذي يمارسونه[٣].

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، حديث رقم ٧، وفي التفسير، حديث ٤٥٥٣... ومسلم في المغازي، وأبو داود في الأدب، والترمذي في الاستئذان، والنسائي في التفسير، وعبد الرزاق في المصنف عن معمر عن الزهري.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ، ١/ ٦٠. وقارن بـ: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، ١/ ٨٧.

(٣) (الاعترافات، لأغسطين)Saint - . Augustin : Les confessions, Livre IV, p 91 و أغسطين ولد =

وهكذا اعتكف أغسطين زمانا على كتب التنجيم حتى أتقن هذا الفن. وفي هذه الفترة التقى بشيخ ما لبث أن صار صديقا له، ونصحه بترك التنجيم وصرف جهوده إلى ما هو أولى، وحدثه الشيخ أنه في شبابه كان قد قرر أن يكسب عيشه ـ طيلة حياته كلها ـ بالتنجيم وحده، حتى تبين له فساد هذه الممارسة[١].

لكن أغسطين لم يقتنع بهذا الكلام ولا باعتبار الشيخ أن الصدفة وحدها هي التي تفسر ما تحقق من تنبوءات المنجمين، ولا حتى بنصائح صديقه الشاب نبيريديوس. لقد كانت في نظره مكانة الكتاب الذين ألفوا في التنجيم عالية ومرموقة، تضفي المصداقية الكافية على هذا «العلم»[٢].

وبعد هذا بزمان وجد أغسطين الدليل القاطع على فساد صنعة التنجيم، وذلك في القصة التي رواها له صديقه الثقة والمتعلم فيرمينوس. حدثه أن أباه كان جد متحمس للتنجيم، وأنه لفرط كلفه به كان يدرس حتى طالع الحيوانات التي تولد في حظيرته الخاصة. وكان لهذا الأب صديق له الاهتمام والحماس نفسه[٣].

وقد اتفق أن ولد لهذا الأب طفل ـ هو الراوي فرمينوس ـ، في الوقت نفسه الذي ولد لهذا الصديق طفل آخر من أمة كانت عنده. وقد سجل الأبوان بكامل الدقة مطلع ابنيهما وحال السماء عند ولادتهما، فوجدا أن طالعهما واحد لا يختلف، ولذلك عزَّ لهما أن يتابعا حال الصغيرين وما يحدث لهما، فكانا يتبادلان المعلومات باستمرار، واستمر هذا الوضع زمانا.

ورغم ذلك فإن فرمينوس ـ ابن العائلة الغنية ـ أصبح حين شب يحتل مكانة مرموقة وعالية في حياته الخاصة والعامة، بينما ظل ابن صديق الأب عبدا يخدم أسياده.

وجد أغسطين في اختلاف مستقبل الطفلين ـ اللذين ولدا في اللحظة ذاتها ـ بيانا شافيا صرفه نهائيا عن الاعتقاد في التنجيم[٤].

= بتونس، ودرس بقرطاجة وروما. من أهم فلاسفة المسيحية. أهم كتبه: مدينة الله. توفي سنة ٤٣٠م.

(١) Les confessions, p 92 ـ ٩٣.

(٢) Les confessions, p 93.

(٣) Les confessions, Livre VII, p 171.

(٤) Les confessions, p 172 ـ ١٧٣.

وسنرى في مبحث نقد التنجيم كيف تشكل حالة مماثلة - وهي التوائم - تحديا واضحا لمقررات هذا الفن.

لمحة عن تاريخ التنجيم في الإسلام:

اعتبر القاضي صاعد الأندلسي أن أول العلوم التي اعتني بها في ديار المسلمين علما المنطق والنجوم[١]. ويبدو أن المصادر التي استفاد منها المسلمون التنجيم مصادر متنوعة. ويذكر صاعد أن التنجيم من علوم الهند الأساسية، وكذلك كان للفرس معرفة ثاقبة بأحكام النجوم وتأثيراتها في العالم السفلي، ولهم في ذلك كتب جليلة، كما قال[٢]. فهذان مصدران، والثالث يوناني[٣]. ولم يعرف المسلمون علم النجوم البابلي - بشقيه - بشكل مباشر، يقول القاضي صاعد: «لم يصل إلينا من مذهب البابليين في حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مستقصى ولا جملة ولا عندنا من آدابهم غير الأرصاد التي نقلها بطليموس عنهم في المجسطي.»[٤]

ويذكر بروكلمان أن «مفتاح أسرار النجوم»، وهو كتاب هرمسي في التنجيم، ترجم في العصر الأموي، ولذلك يقول: إن هذه الترجمة قد تكون أقدم ترجمة لمصنف غير ديني وصلت إلينا. وكان الفراغ منها سنة ١٢٥ هـ[٥].

ولكن هذا - لو صح - عمل معزول، ولا يعرف عن العصر الأموي أي اشتغال معتبر بالتنجيم، وإنما ذلك حدث في الدولة العباسية. وهنا قولان، الأول ينسب إدخال التنجيم في الأمة إلى الخليفة أبي جعفر المنصور الذي توفي سنة ١٥٨هـ. والثاني ينسبه إلى حفيده الخليفة المامون، المتوفى سنة٢١٨هـ.

القول الأول: وعليه قرائن، إذ يقول عنه صاعد الأندلسي إنه أول من عنى

---

(١) طبقات الأمم، ص ٦٦. و«النجوم» هنا هو الخليط القديم من الهيئة والتنجيم.

(٢) طبقات الأمم، ص ١٦، ص ٢٠ - ٢١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مقال التنجيم، ٥/ ٤٩٤. ويضيف صاحب مقال التنجيم في الموسوعة الفرنسية مصدرا رابعا هو سوريا. ويقول توجد مصادر أخرى لم تدرس جيدا، وهي مصادر شفوية بالأساس، يهودية وأرامية وصابئية. انظر Encyclopaedia Universalis, 3/289.

(٤) طبقات الأمم ، ص ٢٥.

(٥) تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٩٠. كارل بروكلمان مستشرق ألماني كبير، له أيضا تاريخ الشعوب الإسلامية.

بالعلوم، وكان متقدما في علم الفلسفة وصناعة النجوم، كلفا بها وبأهلها[١]. ويقول حاجي خليفة في مقدمته في أحوال العلوم: «واعلم أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية، ولما ظهر آل العباس كان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور. وكان رحمه الله تعالى مع براعته في الفقه مقدما في علم الفلسفة، وخاصة في النجوم، محبا لأهلها.»[٢]

وفي عهد المنصور تمت ترجمة أعظم كتاب فلكي للهند، وهو المعروف بـ «السند هند»[٣]. ويذكر بعض المؤرخين والمنجمين أخبارا تدل على أنه كانت للمنصور عناية بالتنجيم ورعاية لأصحابه، حتى إنه وضع أساس مدينة بغداد في وقت عينه له المنجمون[٤].

وبعض الكتاب لم يرتض هذا، يقول الدكتور يوسف السعيد: «المنصور ومن أتى بعده من خلفاء بني العباس لديهم غيرة على الدين... وليس الخليفة المنصور ممن يجهل خطر التنجيم على الإسلام... (وما ذكر) منقول عن منجمين، ولا ريب أنهم يريدون أن يجعلوا لصنعتهم أصلا، ثم إنهم غير ثقات، لأن الكذب في المنجم مما لا يختلف فيه عاقلان... وأما كون ابن نوبخت وغيره ظهروا في زمن المنصـور، وكانوا يدخلون عليه، فلا يعني أنه كان يأخذ بأقوالهم.. (و) لا يعني أنه توجه للدولة في زمن المنصور»[٥].

على أن التنجيم إذا لم يكن توجها للدولة العباسية في أول عهدها، إلا أن الاهتمام به والاشتغال بحساباته أمر بدأ يتسرب إلى الأمة، وتم ذلك على الخصوص على يد طوائف من أهل الكتاب، ومن الصابئين والفرس. وكان بعضهم قد أسلم، فيما الآخرون ظلوا على معتقدهم القديم. ففي زمن المنصور

---

(١) طبقات الأمم، ص ٦٤.

(٢) كشف الظنون، ١/ ٣٤. وحاجي خليفة، المعروف أيضا بكاتب جلبي، مؤرخ للعلوم، توفي بالقسطنطينية عام ١٠٦٧هـ، انظر: معجم المؤلفين، ١٢/ ٢٦٢.

(٣) انظر: طبقات الأمم، ص ٦٧. محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، لفؤاد سزكين، ص ١٧٥ فما بعدها. ومعنى «السندهند»: الدهر الداهر، كما في طبقات الأمم، ص ١٦.

(٤) راجع بعضها في مقدمة محقق كتاب الخطيب البغدادي: القول في علم النجوم، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٥) في مقدمته لكتاب الخطيب «القول في علم النجوم»، ص ١١١ ـ ١١٢. وهو يوسف بن محمد السعيد أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض بالسعودية.

مثلا ظهر أول منجم في عصره - كما يقول بروكلمان - ، وهو ما شاء الله (أو منسى) بن أثري البصري اليهودي، المتوفى حوالي سنة ٢٠٠ هـ. له كتاب الدول والملل والقرانات والحوادث، في التنجيم. ووصفه ابن النديم بأنه أوحد أهل زمانه في علم الأحكام، يعني التنجيم [١].

وظهر أيضا أبو سهل الفضل بن نوبخت، الفارسي الأصل، والذي أصبح فيما بعد خازنا لمكتبة هارون الرشيد المسماة بمكتبة الحكمة. له في التنجيم: سرائر من أحكام النجوم. والفأل النجومي. وكتاب المواليد. وكتاب المنتخل من أقاويل المنجمين في الأخبار والمسائل والمواليد... [٢]

وأبو يوسف يعقوب بن علي القرصي القصراني هو الآخر من منجمي القرن الثاني [٣]. غير أن صاعدا يقول إن محمد بن إبراهيم الفزاري الذي ترجم للمنصور كتاب «السند هند» هو أول من اشتهر في مملكة الإسلام بالتنجيم [٤].

القول الثاني: فلما جاء المأمون - غفر الله تعالى له - أسس بيت الحكمة، وعهد إليه بترجمة كثير من كتب الأقدمين في مختلف العلوم والمعارف، ومنها التنجيم الذي شق - مذاك - طريقه بين المسلمين، فظهر بينهم منجمون لا يقلون «براعة وعلما» عن المنجمين غير المسلمين الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية. يقول القاضي صاعد عن المامون: «أقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه، بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون و أرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستخارلها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام

---

(١) الفهرست لابن النديم، ص ٣٣٣. تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١٩٦ - ١٩٧. وصاحب الكتاب المعروف بالفهرست، هو أبو الفرج محمد بن إسحاق البغدادي، عرف بابن النديم، ويقال له أيضا الوراق، وكانت تلك مهنته. عالم وأديب، له أيضا: التشبيهات. توفي سنة ٤٣٨هـ. عن معجم المؤلفين، ٩/ ٤١.

(٢) الفهرست، ص ٣٣٣. طبقات الأمم، ص ٨١. تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٢٠٠.

(٣) تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١٩٨.

(٤) طبقات الأمم، ص٦٧، ٨٠.ويذكر ابن النديم شخصا اعتبره أول من عمل في الإسلام اسطرلابا، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري.

ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم نهض الناس على قراءتها، ورغبهم في تعليمها، فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من احظائه لمنتحليها، واختصاصه لمقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء، والفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعليم في أيامه كثيرا من أجزاء الفلسفة، وسنوا لمن بعدهم منهاج الطب ومهدوا أصول الأدب، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها»[١].

ثم قال: «ولم يزل خواص من المسلمين، وغيرهم من المتصلين بملوك بني العباس وسواهم من ملوك الإسلام، مذ ذلك الزمن إلى وقتنا هذا يعتنون بصناعة النجوم والهندسة والطب وغير ذلك من العلوم القديمة، ويؤلفون فيها الكتب الجليلة، ويظهرون منها النتائج الغريبة»[٢].

وقد تزامن ظهور التنجيم مع دراسة علم الفلك، حتى إن كثيرا من الفلكيين عرفوا بالتنجيم أيضا. يقول بروكلمان: «ارتبط بهذا الاهتمام بالفلك الاعتقاد الخرافي في علم التنجيم، الذي كفل لعلم الفلك رعاية الأمراء خاصة، على أساس أنه التطبيق العملي لعلم الفلك»[٣].

ومن هؤلاء المنجمين الذين قربهم المامون إليه: أبو أحمد يحيى بن أبي منصور، وكان اسمه قبل إسلامه زيست، ووصفه صاعد الأندلسي بكبير المنجمين في عصره[٤]. ومنهم عمر بن الفرخان الطبري، الذي توفي حوالي سنة ٢٠٠ هـ، وله في التنجيم كتب منها: رسالة في أحكام المواليد. والرسالة في استخراج الضمائر بطريق النجوم[٥]. وابنه أبو بكر محمد بن عمر هو الآخر ـ عند ابن النديم

---

(١) طبقات الأمم، ص ٦٥. والمامون هو عبد الله بن هارون الرشيد.

(٢) طبقات الأمم، ص ٦٩.

(٣) تاريخ الأدب العربي، ٤/١٩٦. الضمير في «أنه» يعود على علم التنجيم.

(٤) طبقات الأمم، ص ٦٨.

(٥) طبقات الأمم، ص ٧٥. تاريخ الأدب العربي، ٤/١٩٨ ـ ١٩٩.

ـ من أفاضل المنجمين[١]. ومنهم أيضا أبو الطبيب سند بن علي اليهودي، الذي أسلم على يد المامون[٢]. أما المنجم أبو عثمان سهل بن بشر الإسرائيلي المتوفى سنة ٢٣٥ هـ، فقد اختص بالحسن بن سهل وزير المامون[٣].

ومن منجمي القرن الثالث[٤]:

أبو علي يحيى بن غالب الخياط، «من أفاضل المنجمين»، وهو تلميذ «ما شاء الله»، من كتبه: سر العمل، وأحكام المواليد. وابن هبنتا المنجم النصراني، صاحب كتاب المغني. وأبو بكر الحسن ابن الخصيب الفارسي الكوفي، له المقنع في المواليد. وأحمد بن عبد الله حبش الحاسب المروزي، وتلميذه أحمد البازيار. وأبو العنبس محمد بن إسحاق الصيمري، القاضي بالصيمرة، إحدى قرى البصرة، وقد عاش في قصر المتوكل والمعتمد، وتوفي عام ٢٧٥ هـ، له: أصل الأصول في خواص النجوم وأحكام المواليد. وأبو الحسن ثابت بن قرة الحراني، المتوفى سنة ٢٨٨ هـ، أدخله المعتضد في جملة المنجمين.

وقد عرف هذا القرن منجمين اثنين بارزين:

١ـ أبو يوسف يعقوب الكندي. ترك رسائل كثيرة في التنجيم، وصل إلينا عدد منها: رسالة في ملك العرب وكميته. ورسالة في صلة روحانيات الكواكب. . وغيرها[٥]. وكان الكندي قد تنبأ سنة ٢٥٦ هـ بأن الدولة العباسية ـ التي كان يهددها القرامطة ـ ما زال لها من العمر أربعمائة وخمسون سنة[٦]. وذكر ابن تيمية أن الكندي عمل للإسلام طالعا، فوجد أنه ينقضي عام ثلاث وتسعين وستمائة من الهجرة[٧]. ولعل ذلك في رسالته في عمر الإسلام

---

(١) الفهرست، ص ٣٣٢.

(٢) الفهرست، ص ٣٣٤.

(٣) تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٢٠٢ ـ ٢١١.

(٤) راجع: الفهرست لابن النديم، ص ٣٣١ إلى ٣٣٤. طبقات الأمم، ص ٧٤، ٨١. تاريخ الأدب العربي ٤/ ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٠. أما المتوكل والمعتمد والمعتضد فمن خلفاء بني العباس.

(٥) راجع: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤. والكندي هو يعقوب بن إسحاق، فيلسوف العرب، وصلتنا بعض كتبه، توفي عام ٢٦٠هـ، وقد عاش بالعراق انظر: الأعلام، للزركلي، ٩/ ٢٥٥.

(٦) تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١٢٧.

(٧) الفتاوى، ٣٥/ ١٨٩.

وطوالعه من قرانات الكواكب[١].

٢ـ أبو معشر جعفر بن محمد البلخي، عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم وصاحب التآليف الشريفة، بتعبير القاضي صاعد[٢]. ولا تزال شهرته ـ باعتباره منجما كبيرا ـ قائمة إلى اليوم. كان في البداية من أصحاب الحديث، وكان يضاغن الكندي ويغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة، ثم إنه تحول إليها، وأعجب بالتنجيم خاصة، فدرسه في مرحلة متأخرة من عمره. ويقال إن الخليفة المستعين ضربه أسواطا لأنه خبّر بشيء قبل أن يكون[٣].

وقد ترك في التنجيم كتبا كثيرة، ذكرها ابن النديم[٤]، وأورد بروكلمان منها سبعة وعشرين كتابا، منها المخطوط والمطبوع، عدا الترجمات اللاتينية لكثير منها. ومن هذه التصانيف التي وصلت إلينا:

- المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم.
- مواليد الرجال والنساء.
- كتاب القرانات في البروج الاثني عشر، واتصالات الكواكب بعضها مع بعض.
- بغية الطالب في معرفة الضمير للمطلوب والطالب والمغلوب والغالب.
- معرفة النجوم وطبائع الناس[٥].

وفي القرن الرابع ظهر من كبار المنجمين[٦]:

١ـ أبو عبد الله ـ أو أبو جعفر ـ محمد بن سنان البتاني الصابئ الحراني، اعتنق الإسلام، وتوفي بالعراق سنة ٣١٧ هـ. وهو أيضا فلكي كبير، قال عنه القاضي صاعد: «ولا أعلم أحدا في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد

---

(١) نشرت هذه الرسالة بليبسك، سنة ١٨٧٥م، في ستة وأربعين صفحة، بحسب ما في دائرة المعارف الإسلامية، ٥/٤٩٥.

(٢) طبقات الأمم، ص ٧٦.

(٣) الفهرست، ص ٣٣٥. وانظر مصادر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي، ٤/٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٤) الفهرست، ص ٣٣٦.

(٥) تاريخ الأدب العربي، ٤/٢٠٦ إلى ٢١٠.

(٦) راجع: تاريخ الأدب العربي، ٤/١٨٤ إلى ١٨٧. ٢١٣ إلى ٢١٦. ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

الكواكب وامتحان حركاتها، وله بعد ذلك عناية بأحكام النجوم أدته إلى التأليف في ذلك، فمن تآليفه فيها كتاب في شرح المقالات الأربع، لبطليموس»[(١)].

٢ـ كوشيار بن لبان الجيلي. له: المدخل في صناعة أحكام النجوم.

٣ـ أبو نصر الحسن بن علي المنجم القمي. من كتبه: البارع في أحكام النجوم والطوالع.

٤ـ أبو سعيد أحمد بن محمد السجزي، الفلكي. مما وصل إلينا من كتبه: كتاب المزاجات، أو مزاجات الكواكب. وكتاب القوانين التي يستعملها المنجم في استنباط القضاء من النجوم... وغيرها.

٥ـ أبو الحسن علي بن أبي سعيد الصدفي، فلكي عظيم، خدم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، ووضع له «الزيج الحاكمي» المشهور. توفي الصدفي سنة ٣٩٩ هـ. ومن كتبه: الغيب، جداول فلكية. وبلوغ الأمنية فيما يتعلق بطلوع الشعرى اليمانية، وهو ملاحظات تنجيمية عن صور البروج التي يكون فيها القمر وقت طلوع الشعرى.

أما في الغرب الإسلامي فقد اشتهر من أبنائه المنجمين أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني القيرواني، وقد عاش مدة في بلاط الأمير المعز بن باديس المنصور من بني زيري. وتوفي بعد ٤٣٢ هـ[(٢)]. أهم كتب ابن أبي الرجال وأشهرها هو: البارع في أحكام النجوم. وله أيضا في هذا الفن منظومة شرحها قوم.

وفي الأندلس كان أبو عبيدة مسلم بن أحمد البلنسي المعروف بصاحب القبلة.. ممن عرف بالتنجيم، وكان مع ذلك صاحب فقه وحديث[(٣)].

لكن يظهر أن التنجيم لم ينتشر بالغرب الإسلامي، كما في المشرق. وقد كان

---

(١) طبقات الأمم، ص ٧٥ ـ ٧٦. وانظر الفهرست، ص ٣٣٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي، ٤/٢٢٦.

(٣) طبقات الأمم، ص ٨٦. راجع كتب التراجم والطبقات العامة، ففيها ذكر كثير ممن اشتغل بالتنجيم أو ألف فيه. وقد أورد ابن الأكفاني بعض كتب التنجيم، وفيها المختصرة، والمداخل إليه، والمنفردة ببعض أجزائه، انظر إرشاد القاصد، ص ٦٦ ـ ٦٧.

في الأندلس - كما أوضح ذلك صاعد الأندلسي - مقاومة لعلوم الأوائل، من منطق وفلسفة وتنجيم.

وبحسب ما في دائرة المعارف الإسلامية فإن التنجيم - رغم معارضة أكثر العلماء والفلاسفة له - بقي منتشرا في المسلمين إلى حدود القرن التاسع عشر الميلادي، وكان له شأن في قصور السلاطين والأمراء، وبين العامة. . . وكان في دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيكوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم بين المسلمين.[١]

لكنني أختلف مع هذا الرأي، وظني أن التنجيم - وإن وجد طيلة التاريخ الإسلامي - إلا أنه ظل فكرا هامشيا في الحضارة الإسلامية، وكانت ممارسته أمرا محدودا على العموم. أما تعليل هذا الكلام فموضعه هو الفصل الخاص بالفقه، لأنني أعتقد أن وضوح العقيدة وحزم الفقهاء. . أمران مسؤولان عن إضعاف التنجيم العربي، وإلى حد بعيد.

لكن العرب برغم ذلك أضافوا أشياء كثيرة إلى التنجيم، فهم الذين فرقوا بوضوح بين التنجيم الأحكامي - القائم على تحديد الطالع - وبين التنجيم الطبيعي، وهم أصحاب فكرة المنازل التنجيمية. . وقد امتاز المنجمون المسلمون بأنهم بلغوا شأوا بعيدا في الحسابات ودقتها.[٢]

يبقى أن أهم شيء يحمده المنجمون الغربيون المعاصرون للعرب - هذه الأمة المحبة للمعرفة، كما قالوا - ، هو أنهم أنقذوا التنجيم الذي كان مشرفا على الزوال والموت[٣] ، ثم نقلوه إلى أوربا فرعته واحتضنته بأكثر مما فعل العرب.

(١) مقال التنجيم، ٥/ ٤٩٥. أما N.Copernic ففلكي بولوني توفي سنة ١٥٤٣م اكتشف أن الأرض ليست هي مركز الكون، وأنها من يدور حول الشمس.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مقال تنجيم، ٥/ ٤٩٤.

(٣) انظر : Frédéric Maisonblanche : Poissons, p 15. Vierge, p 15.

التنجيم بأوربا :

العصر الوسيط:

طيلة حوالي خمسة قرون بعد سقوط روما في القرن الخامس الميلادي. كاد التنجيم يندثر من أوربا. لكنه عاود الظهور حوالي القرنين ١١ و ١٢، وذلك لسببين: بدء انتقال العلوم والمعارف العربية إلى أوربا، وتسامح مؤقت للكنيسة تجاه التنجيم[١].

وفي هذه الفترة برز من المنجمين الذين أضافوا أشياء إلى التنجيم: كومبانو طبيب البابا أوربان الرابع، في القرن الثالث عشر. والفلكي الألماني ريجيومونتانوس، المولود سنة ١٤٣٦. وبلاسيد دي تيتي، الذي ولد عام ١٦٠٣ [٢]. وفي القرن الخامس عشر ترجمت أهم أعمال أبي معشر البلخي إلى اللاتينية[٣].

وقد استمر هذا الإحياء حتى وصل أوجه في القرن السادس عشر، رغم ما كانت تسببه أحيانا نبوءات المنجمين من فوضى عامة، خصوصا تلك التي تتعلق بكوارث قادمة[٤].

النهضة: مرحلة التناقض.

تميزت النهضة بكشوفات علمية ضخمة، خصوصا في الفيزياء والفلك والجغرافيا، وبدا واضحا أن نظريات كوبرنيكوس وغاليلي ونيوتن حول فيزياء السماء، وما صححته من المعلومات الفلكية الخاطئة، كفيلة بالقضاء على التنجيم، إذ لم تبق للكواكب - وقد أصبحت موضوعا للدراسة - تلك الهالة المقدسة التي كانت لها في الماضي. أما فلك بطليموس - والذي كان التنجيم يستند إليه ويتأسس عليه - فقد انهار تماما، وأصبح ينتمي إلى تاريخ العلوم. ولذلك يقول بول: إن

---

(١) L'astrologie, p 96.

(٢) Principes d'astrologie scientifique, p 30 - 31 وإن كان الفلكي الألماني ودي تيتي محسوبين على عصر النهضة.

(٣) Encyclopaedia Universalis, art astrologie, 3/290.

(٤) اقرأ: L'astrologie, p 96 à 99

التنجيم انتهى - من الناحية التاريخية - مع قبول نظريات كوبرنيكوس[١].

لكن الذي حدث هو أنه بينما ضعف الاعتقاد في التنجيم في الأوساط العلمية والمثقفة على العموم، إذا به يقوى بين عامة الناس[٢].

يقول ديكارت - مثلا - : «أنا أعرف ما يكفي عن المعتقدات السيئة وعن قيمتها، ولذلك لا يمكن أن أخدع بها، لا بوعود كيميائي ما، ولا بتنبؤات منجم..»[٣]

وهكذا تم حذف كرسي التنجيم من جامعة باريس منذ سنة ١٦٤٥م[٤].

ومن جهة أخرى لم يكن رفض التنجيم إجماعا بين علماء النهضة، حتى إنك لا تجد في القرن السادس عشر - العصر الذهبي للتنجيم الأوربي - ملكا أو أميرا أو شخصية هامة في الكنيسة - أو غيرهم من الشخصيات العامة - .. ليس له منجم أو أكثر يسترشد بنبوءاته[٥]. وهذا كاردان، فيلسوف وعالم، كان منجما معروفا، ووضع طوالع لكثير من المشاهير كمارتن لوثر وإرازموس، بل لم يتردد حتى في وضع طالع للمسيح نفسه، عليه السلام[٦].

بل الذي يبدو أن التصديق بالتنجيم، وحتى بالسحر، واللجوء إليهما. كل ذلك زاد وانتشر مع النهضة. والباحثون يسجلون ذلك ويستغربونه[٧]، ولا أدري ما تعليله.

---

(١) L'occultisme devant la science, p 35. و M.Boll كاتب فرنسي معاصر، وله كتب كثيرة، خصوصا في العلوم وآثارها اليوم، أما G.Galilée فيزيائي وفلكي إيطالي(١٦٤٢)، واصل عمل كوبرنيكوس، ومهد لإسحاق نيوتن (١٧٢٧) الذي اكتشف نهائيا قوانين ميكانيكا السماء..

(٢) L'astrologie, p 104.

(٣) Discours de la méthode , p 22. : René Descartes الفيلسوف الفرنسي ومؤسس الفلسفة الحديثة، توفي سنة ١٦٥٠. له أيضا: تأملات ميتافيزيقية. وأعمال في الرياضيات والبصريات.

(٤) Hervé Barreau: L'épistémologie, p 15.

(٥) Quelques sciences captivantes, p 207.

(٦) انـظـر: Encyclopaedia Universalis, article Cardan, 4/1013. و Jérome Cardan (١٥٠١م - ١٥٧٦) فيلسوف وطبيب ورياضي إيطالي. قدم حلولا لمعادلات الدرجتين ٣ و ٤. وهو في الفلسفة يميل إلى شكل من وحدة الوجود. أما M.Luther فألماني، قاد الإصلاح الديني بأوربا، له كتب كثيرة وتوفي سنة ١٥٤٦. ومعاصره D.Erasme هو الآخر رجل دين هولندي (١٥٣٦)، له: في مدح الجنون.

(٧) اقرأ: L'astrologie, p 105 .L'épistémologie, p15. Quelques sciences captivantes, p 207

صدى التنجيم في أعمال أدبية من القرن السابع عشر:

وإذا تحولنا إلى الأدب - وهو تأريخ غير مباشر، في نظري - وجدنا التنجيم فيه حاضرا، بقبوله أو برفضه، كل ذلك يدل على انشغال الناس به.

في إحدى أوائل الروايات الفرنسية - أميرة كليف - تحكي الكاتبة لافاييت[١] كيف كانت حاشية الملك مهتمة جدا بأمور التنجيم والطوالع، وكيف انقسمت في مسألة صدق نبوءات المنجمين. فبالنسبة إلى بعضهم تدل النبوءات التي تحققت على أن للتنجيم أصلا صحيحا، بينما تدل - عند البعض الآخر - على أنها كانت بالاتفاق فقط. والكاتبة أيدت التنجيم بصفة غير مباشرة، لأنها حققت في روايتها ما رواه الملك لحاشيته عن المنجم الذي تنبأ له بموته في ظروف محددة[٢]. وزمن هذه الرواية هو القرن ١٦، والكاتبة عاشت في القرن ١٧، وكانت قريبة من حاشية لويس الرابع عشر.

أما لافونتين[٣] فقد خصص للتنجيم قصتين، صاغهما شعرا، يذكرهما ثم يعلق عليهما ويستنبط منهما حكمة أو فائدة، على عادته في حكاياته التي تشبه إلى حد ما قصص كليلة ودمنة. القصة الأولى هي قصة المنجم الذي سقط في بئر، فقيل له: يا مسكين! بينما لا ترى ما تحت رجليك إلا بصعوبة، تزعم أنك تقرأ ما فوق رأسك. ثم يسمي لافونتين واضعي الطوالع بالمشعوذين ويصيح فيهم أن اخرجوا من بلاطات أمراء أوربا[٤]. أما الحكاية الثانية وعنوانها «الطالع»، فقد استهلها لافونتين بحكمة مضمونها أن الإنسان كثيرا ما يلقى ما قدر له، وهو في طريقه لتجنب هذا القدر. من ذلك أن رجلا كان له ابن عزيز عليه جدا، وبلغ من حرصه

---

(١) Madame de Lafayette كاتبة فرنسية، استقرت بباريس سنة ١٦٥٩، حيث فتحت صالونا أدبيا. من كتبها مذكرات البلاط الفرنسي لسنتي ١٦٨٨، ١٦٨٩. وكان لها دور سياسي محدود. تنتمي روايتها «أميرة كليف» إلى صنف الرواية السيكولوجية، وهي من أهم روايات القرن ١٧. توفيت لافاييت سنة ١٦٩٣.

(٢) اقرأ الرواية: La princesse de Clèves, p 143 - 144

(٣) Jean de la Fontaine شاعر وقاص فرنسي. أهم أعماله «الحكايات»، التي يبدو فيها نفس من الأخلاق الأبيقورية، وتغلب عليها رؤية تشاؤمية للواقع. توفي لافونتين سنة ١٦٩٥.

(٤) (الحكايات) La Fontaine: Les fables, 1er recueil, fable XIII.

عليه أن سأل العرافين والمنجمين مسترشدا، فقال له أحدهم ينبغي أن تبعده عن الأسود خاصة، حتى يبلغ من العمر عشرين سنة. . وكذلك كان، وكبر الطفل، ومع الزمن وعى سبب منعه وحرمانه من الخروج من القصر المغلق مع زملائه، للصيد واللعب. . وكان هذا الحرمان مصدر ألم وتعاسة له. ذات يوم رأى في أحد بيوت القصر مجموعة من اللوحات بينها لوحة عرف أنها تصور أسدا. ذكرته الصورة بمعاناته، واشتد غضبه، فضرب صورة الأسد في اللوحة بيده، بقوة وعنف. كان في اللوحة مسمار غير بين، دخل في يده، فقتله[١].

التنجيم والدين والأسطورة:

إن العلاقة بين أطراف هذا الثالوث ثابتة، لكنها - في بعض جوانبها - معقدة وغامضة.

لقد كان التنجيم - بين يدي الكهنة الكلدانيين - ديانة مستقلة ومتميزة[٢]. فأكبر الآلهة عند البابليين - في الألفية الثانية ق.م - مردوخ هو المشترى، والإلهة عشتار هي كوكب الزهرة، والإله شماش هو الشمس. . .[٣]

وأصل هذه الديانة سومري - في الألفية الثالثة ق.م - ، فعندهم خلقت الآلهة الكبيرة - وهي ثلاثة: عنوم ملك السماء، وإنليل ملك الأرض، وعن ملك البحر - الآلهة التي هي هذه الكواكب والنجوم المعروفة منذ ماض غابر. وهذه الآلهة من النجوم هي التي تتكلف مباشرة بشؤون الإنسان[٤].

ومن جهة أخرى خصصت ميثولوجيا بعض الشعوب القديمة للكواكب السبعة: زحل، والمشترى، والزهرة. . . حيزا هاما من قصصها ورموزها[٥]. ويرى بعض الكتاب أن التنجيم هو التطبيق العملي للهرمسية[٦]. وتقول السيدة ميرتينس:

---

(١) Les fables, fable XVI.

(٢) Principes d'astrologie scientifique, p 10.

(٣) Principes d'astrologie, p 14. Ency. Uni, 3/283, astrologie.

(٤) Précis d'histoire ancienne, p 17,19 , 20

(٥) انظر في هذه المسألة بالضبط: L'occultisme du zodiaque, p 50 à 54.

(٦) من مقدمة ناشر كتاب بابوس: Editeur du livre du Papus :"Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie" , p 227

الأسطورة مرتبطة بقوة بالتنجيم، وكتابي هذا يثبت ذلك[١].

إن البروج الاثني عشر عبارة عن تراتبية في السماء تقابل - أو تعكس - تراتبية أخرى للآلهة الكبيرة. في الاعتقاد اليوناني - الروماني الوثني، مقابل برج الثور مثلا هو الإلهة الزهرة، ومقابل الجوزاء هو أبولو[٢]. . وليس هذا شيئا يخص اليونان فقط، ففي الهند اعتقاد مماثل في اثني عشر قوة سماوية (جايا Jayas)، وكذلك في بلاد فارس (Akhtars)[٣].

وقد اعتبر توكر أنه لا مفر من قيام هذه العلاقة بين الدين والتنجيم، لأنهما يشتركان في النظر في قضايا موحدة، وفي تحديد موقف منها، وهي مسائل: القدر، والمصير الإنساني، والحرية، والجانب الأخلاقي. . ونحو ذلك[٤].

عبادة الكواكب في البشرية:

اعتقد كثير من قدماء الأمم أن كل ما يحدث في العالم هو من فعل الكواكب، وأنها الواسطة بينهم وبين الإله الأكبر أو الآلهة الأكبر، فعظموها وقربوا لها القرابين. ثم وضعوا لكل كوكب صنما خاصا، فكانوا إذا توجهوا إلى التمثال أو عبدوه أو قدموا له شيئا، قصدوا بذلك كوكبا معينا، واعتقدوا «أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون، وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا مفردا، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب»[٥]. قال صاعد: «وإنما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة، في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها في الهياكل لا على ما يعتقده الجهال بديانات الأمم وآراء الفرق من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم. . . دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾»[٦].

---

(١) L'occultisme du zodiaque, p77 والسيدة مارغريت ميرتينس كاتبة في العلوم الخفية، ودرست معتقدات الهند.

(٢) Papus : Traité élémentaire...p 303.

(٣) L'occultisme du zodiaque, p 40 راجع التفاصيل في هذا الكتاب الذي اهتم بهذه الناحية بالخصوص، ص ٧١ إلى ١٤١.

(٤) Principes d'astrologie scientifique, p 8.

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن المسعودي، ٢/٢٣٦.

(٦) طبقات الأمم، ص ٥٧ - ٥٨. والآية ٣ من سورة الزمر.

العرب:

جاء في القرآن ذكر كوكب الشعرى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾، سورة النجم، ٤٩. وذلك لأن بعض العرب عبدته، فنبه على أنه مربوب لغيره[1].

والشعرى نجم من نجوم برج الجوزاء، شديد الضياء. . وهو من البروج الربيعية، أي التي تكون مدة حلول الشمس فيها هي فصل الربيع[2]. . «وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير. ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى، ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها. ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء»[3].

والذي عبد الشعرى في الجزيرة هو قبيلة خزاعة، وكانت مجاورة لأهل مكة، والجمهور أنه لم يعبدها من قبائل العرب غيرهم[4].

الصابئة:

على أن أهم وأشهر طائفة عبدت النجوم هي الصابئة، وكانوا كثيرا بالعراق. فهؤلاء اعتقدوا أن «الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات، وهي التي بمرورها في أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار: من امتداد الأعمار وقصرها، وترك البسائط، وانبساط المركبات، وتتميم الصور، وظهور المياه وغيضها، وفي النجوم السيارة و في أفلاكها التدبير الأكبر، وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز»[5].

عظم الصابئة الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر وصوروها في هياكلهم، وقالوا بقدمها، وقربوا لها الذبائح. ثم تطور بهم الأمر إلى تعظيم الهياكل ذاتها[6].

---

(١) راجع: مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ٧٨.التحرير والتنوير، ٢٧/ ١٥٠.

(٣) في ظلال القرآن، ٧/ ٦١٥.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٧/ ١٥١. وقارن بـ: طبقات الأمم، ص ٥٧.

(٥) مروج الذهب، ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣. (والصابئة بالفرنسية هم Nabatéens ou Sabéens)

(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، ١/ ٨٨.

وهذه الطائفة من أقدم الطوائف الدينية في التاريخ الإنساني، حتى قال ابن حزم: «كان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر، والغالب على أهل الدنيا، إلى أن أحدثوا فيه الحوادث وبدلوا شرائعه.. فبعث الله عز وجل إليهم إبراهيم..»[(١)]

والصابئة فرق مختلفة، وقد اعتنى الشهرستاني ببيان مذاهبهم وشرح اعتقاداتهم، وذكر أن إبراهيم عليه السلام ناظر بعض فرقهم..في تفاصيل كثيرة أعرضت عنها لأنها ثانوية بالنسبة إلى ما نحن فيه[(٢)].

الصابئة في القرآن الكريم:

وقد أشار الكتاب الكريم إلى هذه الطائفة في ثلاثة مواضع، ففي سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ، وَعَمِلَ صَٰلِحًا ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آية ٦٢. وفي سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ، وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ، مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. آية ٦٩ . وفي سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [١٧] .

وقد كان هذا الدين معروفا للعرب في الجاهلية، بسبب جوار بلاد الصابئة بالعراق والشام لبعض القبائل العربية مثل ديار بكر وتغلب..ولذلك كانوا يطلقون على العربي إذا أسلم كلمة صابئ[(٣)].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/٨٨. والمؤلف هو أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦هـ)، عالم الأندلس وأحد أئمة الإسلام، كثير التصنيف. الأعلام، ٥/٥٩.

(٢) كتاب الشهرستاني: الملل والنحل، ٢/ص٩٥ إلى ١٥٤، هو من أهم المصادر الإسلامية في موضوع الصابئة. وكذلك ابن النديم في فهرسته، ص ٣٨٣ إلى ٣٩١، في أول المقالة التاسعة، وفيها وصف مذاهب الحرنانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة. وقد ذكر ـ غير المعتقدات ـ عاداتهم وبعض رجالهم.

وانظر أيضا: تفسير المنار، ١/٣٣٥، ٣٣٧.

والشهرستاني هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، المتكلم الأشعري. تتلمذ لأبي القاسم الأنصاري وأبي نصر القشيري، وسمع الحديث بنيسابور، ورحل إلى بغداد. توفي بشهرستان ـ وهي قريبة من نيسابور ـ سنة ٥٤٨هـ. من تصانيفه الأخرى: نهاية الإقدام في علم الكلام. عن معجم المؤلفين، ١٠/١٨٧.

(٣) التحرير والتنوير، ١/٥٣٦.

لكن العلماء اختلفوا في هؤلاء الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن، وأهم آرائهم ما يلي:

١ـ الصابئة قوم لا دين لهم غير فطرة التوحيد. قال ابن كثير: «وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه. ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك»[١].

٢ـ وقريب من هذا المذهب الأول قول من قال الصابئة هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي قط[٢].

٣ـ وقيل هم طائفة من أهل الكتاب، كان عندهم كتاب يقرأونه، وبعضهم قال هم كالمجوس[٣]. وفي دائرة المعارف الإسلامية أن اسم الصابئة أطلق على فرقتين متمايزتين تماما: الأولى، المنديا، أو الصبوة، وهي فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد في العراق، وهؤلاء نصارى يوحنا المعمدان، أي يحيى عليه السلام. والثانية، صابئة حران، وهي فرقة وثنية بقيت أمدا طويلا في ظل الإسلام. والقرآن الكريم إنما ذكر الفرقة الأولى[٤].

٤ـ واختار كثير من العلماء ـ ومنهم الرازي ـ[٥] أن الصابئة قوم يعبدون الكواكب. قال القرطبي: «والذي تحصل من مذهبهم ـ فيما ذكره بعض علمائنا ـ أنهم موحدون معتقدون تأثير النجوم، وأنها فعالة، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري القادر بالله بكفرهم حين سأله عنهم»[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير، ١/١٣٣. وابن كثير هو عماد الدين إسماعيل (٧٧٤ هـ)، حافظ ومؤرخ من الشام. الأعلام، ١/٣١٨. ومجاهد هو ابن جبر، تلميذ ابن عباس في علم التفسير.

(٢) تفسير ابن كثير، ١/١٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١/٢٩٥.

(٤) دائرة المعارف، مقال صابئة، ١٤/٨٩.

(٥) في كتابه: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٩٠. وهو فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦هـ)، إمام في المعقول والمنقول، كثير من كتبه مطبوع. انظر الأعلام، ٧/٢٠٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١/٢٩٥. والإصطخري هو الحسن بن أحمد، قاضي قم. من أئمة الشافعية الكبار. وكان صلبا في قضائه، ورعا متقللا من الدنيا. توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ. انظر طبقات الشافعية، =

وقال ابن عاشور: «وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي، وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم مقدس عن سمات الحوادث، غير أنهم قالوا إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه، وهي الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة، وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة في الكواكب وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات، فعبدوا الكواكب بقصد الاتجاه إلى روحانياتها، ولأجل نزول تلك الروحانيات على النفوس البشرية يتعين تزكية النفس بتطهيرها من آثار القوى الشهوانية والغضبية بقدر الإمكان، والإقبال على العبادة بالتضرع إلى الأرواح وبتطهير الجسم والصيام والصدقة والطيب، وألزموا أنفسهم فضائل النفس»[(١)].

واعتبر كثير من الأخباريين أن الصابئين الذين وجدهم المسلمون بالعراق حين فتحوها هم المذكورون في القرآن، وقالوا كان أسلافهم من أصحاب إبراهيم، وهم أهل حران، ثم فسد بعضهم واعتقدوا بالكواكب[(٢)].

أما لو وصف القرآن الصابئين بالإيمان، فللمفسرين بحوث في ذلك وأجوبة متعددة يجدها القارئ في أهم التفاسير، لكن لا بأس بذكر بعضها على سبيل التمثيل واستكمالا لهذا المبحث: فقيل المعنى أن من آمن بالنبي الذي كان في عهده نجا، فللناس التمسك بالتوراة إلى زمان عيسى، فإذا بعث لزمهم اتباعه، ثم ذلك إلى زمن النبي الخاتم، وبعده لا يقبل غير الإسلام، كما في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ آل عمران، ٨٥[(٣)].

وقال ابن عاشور: «معنى من آمن بالله: الإيمان الكامل، وهو الإيمان برسالة

= لابن السبكي، ٣/ ٢٣٠ فما بعدها، وفيها خبر هذه الفتوى. والقادر بالله خليفة عباسي. أما القرطبي فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١هـ)، رحل إلى الشرق، وكان ورعا عابدا. أما القرطبي أبو العباس صاحب شرح مسلم فشيخه.

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٥٣٤. وابن عاشور هو محمد بن الطاهر (١٢٨٤هـ)، كبير علماء تونس في زمانه. له عناية بالأدب أيضا. الأعلام، ٧/ ٤٣.

(٢) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، ٦/ ٧٠١ ـ ٧٠٢.

(٣) راجع تفسير ابن كثير، ١/ ١٣٢.

محمد ﷺ، بقرينة المقام، وقرينة قوله: «وعمل صالحا»، إذ شرط قبول الأعمال الإيمان الشرعي»[١]. ولذلك ففي قوله «من آمن» يجوز أن تكون «من» شرطا في موضع الابتداء، ويكون معنى الكلام: من يؤمن منهم بالله ويعمل صالحا فله أجره، ويكون المقصود منه فتح باب الإنابة لهم بعد أن قرعوا بالقوارع السالفة في الآية قبل هذه. ووجه الاقتصار على الأديان الثلاثة أنهم أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين، لأنهم يثبتون الإله المتفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل، على تفاوت بينهم في ذلك[٢].

استمرار عبادة الكواكب إلى اليوم:

والصابئة وإن شكلوا قديما شعبا كبيرا أو طائفة هامة، إلا أن عددهم بدأ ـ مع الزمن يقل شيئا فشيئا ـ ربما لأن ديانة الصابئة حوصرت من طرف العقائد الكبيرة: المجوسية، ثم المسيحية، فالإسلام. وقد لاحظ ابن حزم ـ في القرن الخامس الهجري ـ تضاؤل عدد الصابئين[٣]. وكنت ـ من حوالي عشر سنوات ـ قد قرأت كتابا في الموضوع لكاتب عراقي معاصر، هو عبد الرزاق الحسيني، عنوانه: «الصابئة قديما وحديثا»[٤]. ولا يحضرني الآن هذا الكتاب، ولكنني ما زلت أذكر أنه قال إن بالعراق اليوم بضع عشرات الآلاف من الصابئين. ولا يستبعد أن يكون في قبائل الهنود، والهنود الحمر، والشعوب البدائية الإفريقية والأسترالية، كالبيكمي، من يعبد الكواكب إلى الآن.

ومن عجائب بلاد الهند أن أحد ملوكها «المسلمين» قام بمحاولة لإحياء عبادة النجوم، وهو أحد ملوك الدولة المغولية المسلمة التي حكمت أكثر الهند زمانا. هذا الملك ـ واسمه أكبر ـ بدأ حياته متمسكا بالإسلام، تقليدا للآباء، وكان هو نفسه أميا. ثم بدا له أن يضع ديانة جديدة سماها الدين الإلهي الأكبري، ومما فيها تعظيم النار وعبادة الشمس، مصدر النور والحياة. وجعل العيد الأول للدولة هو

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٥٣٩.
(٢) التحرير والتنوير، ١/٥٣٨.
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/٨٩.
(٤) الكتاب بخزانة الشريف الإدريسي التابعة لوزارة الثقافة بمدينة وجدة، تحت رقم ١١٢٤.

مهرجان نوروز، عندما تكمل الشمس دورتها السنوية وتدخل في برج الحمل، فتفيد أهل الدنيا ببركاتها.. إلى غير ذلك من حماقاته الكثيرة[١].

وللآن لم أفهم لم يطول حكم مثل هذا الرجل - من ٩٦٣ هـ إلى عام ١٠١٣ -، وهو لا عقل له ولا دين، مثله مثل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، بينما يحكم أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن عبد العزيز سنتين أو أقل؟

وربما كان عمل الملك أكبر هو المحاولة الوحيدة لإحياء عبادة النجوم في ديار المسلمين، ولا أعرف لها نظيرا.

من التنجيم إلى عبادة النجوم، أو العكس؟

إن العلاقة بين الأمرين ثابتة[٢]، فمن اعتقد أن الكواكب أرباب مستقلة أو وسائط بين العالم والإله الخالق.. لا بد أن يؤمن بفعالية النجوم وتأثيرها على شؤون الأرض. وكذلك لا يبعد أن يفضي الاعتقاد في تأثير الكواكب إلى الاعتقاد في ألوهيتها.

والذي يظهر أن الإنسان في البداية عبد الكوكب، ظانا أنه لسموه وارتفاعه ونوره رب من الأرباب، ولذلك أسند إليه كل شيء يقع على الأرض، فنشأ التنجيم.

يقول الرازي في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. سبأ ٢٢ - ٢٣:

«لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى، عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر، على سبيل التهكم، ثم بين أنهم لا يملكون شيئا بقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

---

(١) انظر تفصيل مرحلة الملك أكبر والظروف العامة للهند.. في كتاب أبي الحسن الندوي: الإمام السرهندي، حياته وأعماله، خصوصا صفحات ١٠٠ إلى ١٠٣.

(٢) في الفرنسية اصطلاحان مختلفان: عبادة الكواكب باعتبارها آلهة: Astroltrie. والتنجيم: Astrologie.

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم (إنهم لا يملكون في السماوات شيئا) كما اعترفتم، قال ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم. (وثانيها) قول من يقول السماوات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه، ولكن بواسطة الكواكب، فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا في الأرض، والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب. (وثالثها) قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلانا فضربه، يقال في العرف الملك ضربه، ويصح عرفا قول القائل ما ضرب فلان فلانا، وإنما الملك أمر بضربه فضرب، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله، فقال تعالى في إبطال قولهم ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما فوض إلى شيء شيئا، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب. (ورابعها) قول من قال إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا»[1].

ولعل القارئ لاحظ أن كلام الرازي يفيد أن أكثر أبواب الشرك وأهمها لها علاقة بتعظيم الأفلاك. ولذلك يقول كوديرك: التنجيم يستبطن الاعتقاد في تعدد الآلهة، والخصائص التي ينسبها التنجيم إلى الكواكب هي في الواقع صفات آلهة الوثنية اليونانية. فمثلا كوكب زحل يقابل الإله كرونوس الذي كان يفترس أبناءه، ولذلك فزحل كوكب شرير لا يحمل خيرا. . .هكذا لا تزال الآلهة القديمة حية حاضرة عبر التنجيم، وبصفة غير مباشرة، أي في صورة كواكب فاعلة[2].

ومن هنا يبدو جليا أن الاعتقاد بأن الكواكب والنجوم تحمل خيرا أو شرا، سعادة أو شقاء. . .أفضى ـ ويمكن أن يفضي في كل وقت ـ إلى الظن بأنها أرباب وآلهة.

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٢) L'astrologie, p 56.

علم النجوم عند العرب في الجاهلية:

لم تكن للعرب - في جاهليتهم - معرفة بعلم الفلك والهيئة ولا عناية به، حتى عرب الجنوب - في بلاد اليمن - لم يكونوا على علم كاف بهذا العلم، وهم أكثر العرب علما وأوسعهم معرفة، ولذلك يقول القاضي صاعد عن هؤلاء: «ولم تكن ملوك «حمير» معتنية بأرصاد الكواكب ولا باختيار حركاتها، ولا بإيثار شيء من علوم الفلسفة. وكذلك كان سائر ملوك العرب في الجاهلية، ولم يبلغنا عن أحد منهم أنه بحث في شيء من ذلك»[١]. ويقول الأستاذ سزكين: «معرفة العرب قبل الإسلام كانت محدودة فيما يتعلق بعلم النجوم. كانوا يعرفون منازل القمر الثمانية والعشرين، والاثني عشر برجا، وفي غالب الاحتمال أسماء السيارات (يعني الكواكب غير الثابتة). ويبدو أنهم كانوا يتصورون الأرض مسطحة، والسماء فوقها كالقبة»[٢].

وهذا لا يعني أن الجزيرة العربية كانت خلوا من أي معرفة - ولو بسيطة - بعلم الفلك، يقول صاعد: «كان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعلم الحقائق، ولا على سبيل التدرب في العلوم»[٣]. أي كانت معرفتهم معرفة تجربة لا دراسة. ولذلك يقول الخطيب البغدادي: «العرب تعرف أوقات المطر والرياح والحر والبرد بمطالع النجوم، ولهم في ذلك فضيلة بينة. وإذا رأوا السحاب عرفوا: هل هي ذات مطر أم لا؟ وهل مطرها كثير أو غير كثير؟ وهل هي مما قد أهراق ماءه أو ماؤه فيها؟»[٤] فظهر أثر ذلك كله في الشعر، فقد «أكثر العرب في أشعارهم أشياء من علم النجوم»[٥]، أورد الخطيب جملة منها[٦]. ولهم أيضا أسجاع كثيرة

---

(١) طبقات الأمم، ص ٥٥.

(٢) تاريخ العلوم العربية والإسلامية، لفؤاد سزكين، ص ٧٧ - ٧٨. وهو باحث تركي مقيم بألمانيا، حيث يدير معهدا لتاريخ العلوم عند المسلمين. وأهم كتبه «تاريخ التراث العربي» كتبه بالألمانية، ثم ترجم إلى العربية.

(٣) طبقات الأمم، ص ٥٩ - ٦٠. وانظر بعض معارف العرب عن أوقات المطر وأسماء النجوم ومطالعها... ونحو ذلك، في: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨/ ٤١٩ إلى ٤٣٥.

(٤) القول في علم النجوم، للخطيب، ص١٥٧.

(٥) القول في علم النجوم، ص ١٤٣.

(٦) راجعها في كتابه: القول في علم النجوم، ص ١٤٣ إلى ١٤٥.

تلخص بعض تجاربهم في شؤون الطقس والفصول خاصة، فمن ذلك قولهم: إذا طلع الشرطان ـ وهما نجمان ـ ألقت الإبل أوبارها في الأعطان، واعتدل الزمان، واخضرت الأغصان، وتهادت الجيران. وإذا طلع البطين، طلعت الأرض بكل زين، واقتضي الدين، وحسن النبات في كل عين. وإذا طلع نجم الدبران، بات الفقير بكل مكان، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان، وكرهت النيران. وإذا طلع السماك، فأجد حذاك، وأصلح خباك، وصوب فناك، يعني للمطر. وإذا طلع الغفر، أتاك من البرد صدر، وقام الشعر، وطاب أكل التمر. وإذا طلعت البلدة، فشت الرعدة، وأصاب الناس من البرد شدة، وأحبوا عند النار القعدة..[1]. قال الخطيب: «ولهم من الأسجاع في هذا الضرب أكثر من هذا، ولهم أيضا أسجاع في تقدير مكث الهلال والقمر من أول ليلة من الشهر إلى عشر منه»[2].

وكذلك يبدو أن العرب لم يعرفوا التنجيم بتفصيل، أعني ذاك الذي كان عند الإغريق أو الفرس أو الهنود، فليس بين أيدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن العرب عرفوا التنجيم ومارسوه..وهذا أمر مفهوم، بما أن التنجيم يحتاج إلى حسابات فلكية دقيقة، وهو ما لم يكن متيسرا لهم في جاهليتهم تلك.

لكن الذي يترشح من الحديث النبوي خاصة، هو أن العرب كانوا يعرفون المبدأ الأساسي في التنجيم، وكانوا يؤمنون به، أعني أن حوادث الأرض مرتبطة بأوضاع السماء. ففي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ حين أبصر نجما قد لمع واستنار في السماء، سأل أصحابه عن تفسيرهم الجاهلي لهذا الأمر، فأجابوه: كنا نقول ولد اليوم ملك عظيم، أو مات عظيم[3]. وكذلك كانوا يعللون كسوف الشمس وخسوف القمر بموت أحد أو بولادته أو بأن أمرا عظيما قد حدث، والعرب وإن عدوا التنجيم ضربا من ضروب التكهن أو الكهانة، إلا أنهم ميزوه عنه، وعن العرافة، والزجر، والسحر..ونحو ذلك. وقالوا هو النظر في النجوم، أي للتنبؤ بها. وإنما عرف العرب التنجيم تفصيلا في العهد الإسلامي من تاريخهم.

---

(١) لخصته من كتاب: القول في علم النجوم، ص ١٤٦ إلى ١٤٩.

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٥٠. راجع التفاصيل في صفحات ١٥٠ إلى ١٥٦. والخطيب هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (٤٦٣هـ) حافظ كبير ومؤرخ. منشأه ووفاته ببغداد. الأعلام ١٦٦/١.

(٣) كذا بالمعنى من رواية الترمذي في كتاب التفسير من سننه، حديث ٣٢٣٨، وقال حسن صحيح. ورواه أيضا مسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب ٣٥، الحديث رقم ١٢٤ في الكتاب.

الفصل الثاني

مبـــادئ التنجيـــم

الأسس العامة للتنجيم:

القارئ في كتب القوم يلاحظ أن بينهم اختلافات واسعة، تصل أحيانا إلى حد التناقض. لكن جذعا مشتركا يوجد بين المنجمين، وهو كتاب بطليموس، الذي يعتبر بمثابة الكتاب المقدس للتنجيم، حتى إن أي مقارنة ولو عابرة بين كتاب تيترابيبلوس وأي كتاب آخر في التنجيم المعاصر تكشف عن أن التنجيم هو هو، ولم يتغير في خطوطه العريضة على الأقل. وهم يعتبرون هذا دليلا على أصالة علمهم[١].

ولذلك يتفق المنجمون على المفاهيم الآتية[٢]:

١ـ للكواكب صفات خاصة، ولكل كوكب جنس معين، وطبيعة من الطبائع الأربعة. . وكل كوكب مسؤول عن جوانب من الصفات الجسمانية أو النفسية أو العقلية للفرد، وكذا عن بعض النواحي الاجتماعية.

٢ـ تمتلك الأبراج أيضا خصائص معينة، وكل برج مكون من أحد العناصر الأربعة، وله مزاج من الأمزجة الأربعة، وهو إيجابي أو سلبي، فاعل أو منفعل، أبوي أو أمومي. . ولكل برج أيضا كوكب يلائمه ويتناغم معه.

٣ـ المنازل، وفيها السعيدة والشقية، والمحظوظة والنحسة. وكل منزل يسير مجالا من مجالات حياة الفرد أو المجتمع.

٤ـ مفهوم الاتصال والتقابل والمقارنة. . وهذا عبارة عن وضع الكوكب بالنسبة إلى آخر، ويحسب بالزاوية التي يكونانها معا، حيث الأرض هي المركز.

---

(١) Quelques sciences captivantes, p 191.

(٢) L'astrologie, p 26 - 27

والتنجيم يعتمد كثيرا على معطيات علم الفلك، لذا كان الاشتغال به يتطلب ثقافة فلكية أولية[١].

الكوكب الحي وآثاره:

يعتقد المنجم أن الأرض مخلوق حي، يتنفس ويعيش ويسبح في الفضاء الواسع[٢]. بل إن لكل كوكب حياته الخاصة وطبعه الخاص، فله أصدقاء و أعداء، وله أيضا مزاج معين. وهذا الكوكب الذي يتجول في الكون يلتقي بالكواكب الأخرى، فهو يعرفها ويتبادل معها التأثير والتأثر[٣]. يقول بابوس: إن النجوم حية بالفعل، تماما مثل الحيوانات والنباتات[٤].

وقد قسم بطليموس النجوم إلى ذكور وإناث، وإلى كواكب ليلية كالقمر والزهرة، وأخرى نهارية كالمشترى والشمس[٥]. والكواكب أيضا ـ كما يقول البيروني ـ علوية كزحل والمشترى والمريخ، وسفلية كعطارد والزهرة والقمر[٦]. وبعضها خير، كالمشترى والزهرة، فهما سعدان بإطلاق، وأخرى شريرة، كزحل والمريخ، فهما نحسان بإطلاق. . .وفي عطارد تفصيل[٧].

وفي اتجاهات التنجيم من يفرق بين الكوكب المادي وروح الكوكب، فالأول هو النجم الذي نراه ونعرفه، كزحل وعطارد. .والثاني هو العقل الفلكي الذي ينبعث من عقل الشمس، أو العقل الأكبر، فيحرك هذا الكوكب ويسيره[٨].

ومنذ زمان طويل رأى البابليون أن في الأرض أشياء كثيرة تماثل مختلف

---

(١) راجع بعض مبادئ الفلك في : L'astrologie, p 5 à 21

(٢) Traité élémentaire d'Occultisme et d'astrologie. Initiation à l'étude de l'Esotérisme hermétique, p 271. : Gérard Papus والكاتب طبيب فرنسي، لكنه تفرغ للعلوم الإخفائية حتى صار من كبار مفكري الباطنية في نهاية القرن ١٩. توفي في بداية القرن العشرين.

(٣) Traité élémentaire..., p247.

(٤) Traité élémentaire..., p255.

(٥) في كتابه عن التنجيم : Tétrabible, p 21 - 22

(٦) التفهيم في صناعة التنجيم، ص ٥٠ ، مخطوط.

(٧) التفهيم، للبيروني، ص ١٧٣.

(٨) L'occultisme du zodiaque, p 41.

النجوم، أو تمثلها، فكأن تلك الأشياء مصدرها سماوي، وأهمها المعادن[١].

ويعتقد بعض الباحثين - ومنهم برتولو - أن ألوان النجوم وبريقها هو الذي أوحى لقدماء المنجمين بوضع مقابلة بين كل نجم على حدة وبين معدن ما، فالذهب للشمس، والفضة للقمر، والنحاس للزهرة.. وهكذا[٢].

فلما جاء اليونان وسعوا من هذه التقابلات والتماثلات بين الكواكب وما على الأرض من بشر وأشياء، فزادوا الألوان: اللون البني لزحل، والأصفر للشمس.[٣]. وربما استدلوا - كما يقول

ابن القيم - «على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف ألوانها، فقالوا: زحل لونه الغبرة والكمودة، فحكمنا بأنه على طبع السوداء، وهو البرد واليبس، فإن السوداء لها من الألوان الغبرة. وأما المريخ فإنه يشبه لونه لون النار، فلا جرم قلنا طبعه حار يابس...»[٤].

وأضاف اليونان أيضا النباتات والأعشاب والحيوانات. وعلى سبيل المثال، فإن برج الثور مسؤول عن أنواع النبات والعشب الآتية: السبانخ، والقرع أو الدباء، والطحلب، والليلك، والآس، وزهرة الحوض، والمهماز، والكتان، واللاصف، والسلق، وحشيشة السعال...

وكذلك عن الأحجار البيضاء الكثيفة غير الشفافة، مثل: المرجان الأبيض.

أما الحجر الكريم السحري لهذا البرج، والذي يمكن استعماله كنوع من الرقى فهو: العقيق أو الشيب، فهذا هو الطلسم المناسب لمواليد الثور[٥].

ثم امتد الأمر إلى الإنسان، فجعلوا لكل جزء من جسمه كوكبه - أو برجه -

---

(١) L'astrologie, p 35. Traité élémentaire d'occultisme...p 271.

(٢) Quelque sciences..., p 191. Marcelin Berthelot، وهو كيميائي فرنسي له إنجازات هامة في الكيمياء العضوية. واشتغل أيضا بالسياسة حيث تولى وزارة التعليم، ثم الخارجية. توفي سنة ١٩٠٧.

(٣) راجع: التفهيم في صناعة التنجيم، ص ١٥٧ L'astrologie, p35. Principes d'astrologie scientifique, p 15 à 19.

(٤) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٧٩. شمس الدين محمد بن أبي بكر، (٧٥١هـ) الشهير بابن قيم الجوزية. تلميذ ابن تيمية، وعالم الشام. له كتب كثيرة. الأعلام، ٦/ ٢٨١.

(٥) Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 285, 286.

الخاص، والقيم على شأنه: فللحمل الرأس والوجه، وللثور العنق والحلق، ولبرج الجوزاء المنكبان واليدان..[١]. ودخل التنجيم حتى في أمور الطب، فصارت له كلمته الخاصة في المستقبل الصحي لكل إنسان. ويقول بعض المنجمين إن لكل برج استعدادا خاصا للإصابة بأمراض محددة، فمثلا مولود برج الأسد يمكن أن يصاب - بشكل خاص - بأمراض المعدة والقلب والكبد، ومولود العقرب بأمراض الصدر والرئتين..[٢]. ولذلك يقترح بعض المنجمين لكل برج أدوية وأعشابا ومأكولات محددة[٣].

ثم حدد أهل التنجيم المهن الصالحة لكل برج، فهذا تصلح له النجارة، وذاك التجارة، والآخر الكتابة..[٤]. وتكلموا أيضا في شؤون الحب والعاطفة، بل وصفوا حتى السلوك الجنسي لكل برج وما يحب وما يكره فيه...[٥]

وهكذا أثبت التنجيم آثارا واسعة للكواكب، يقول البيروني: «وللبروج دلالات على العلل في بدن الإنسان، وعلى الألوان والحلى والصور، وعلى الأماكن والبلدان، وعلى أنواع الحيوان والمياه والنيران»[٦]. فلبرج الميزان أماكن المساجد وبيوت العبادة ومواضع الصيد والمراعي...أما بلدانه فبابل وفارس وفلسطين.. وللجدي القصور والصهاريج العتيقة ومنازل الغرباء...وبلدانه السند ووسط بحر عمان إلى الهند.[٧]. ولقد قسمت الكواكب الأرض إلى مناطق نفوذ، وكان حظنا نحن في شمال إفريقيا أن

---

(١) راجع: التفهيم، ص١٥٧ Principes d'astrologie. L'astrologie, p35. Tétrabible, p162. scientifique, p 15 à 19

(٢) راجع: التفهيم، ص١٦٤ Traité élémentaire, p. L'astrologie, p 41 à 46. Tétrabible, p 166. 322 à 327

(٣) انظر مثلا: Frédéric Maisonblanche: Poissons, p 62 - 63 Vierge, p 60 - 61

(٤) انظر مخطوط: التفهيم في صناعة التنجيم، ص ١٦٤, F. Maisonblanche : Poissons p 39. Vierge, p 39

(٥) انظر حول عاطفة بعض الأبراج: F. Maisonblanche : Poissons, p 47. Vierge, p46. وراجع في السلوك الجنسي كتبا مث ـ ل: Le Sagittaire et l'amour للكاتب نفسه. من منشورات مارابو.

(٦) التفهيم ، ص ١٥٨.

(٧) التفهيم، ص ١٦٥.

نقع تحت نفوذ السرطان، بينما وقعت بلاد الغال وبريطانيا وفلسطين في يد برج الحمل، وانفرد الثور بفارس وآسيا الصغرى[١].

وباختصار، فإن التنجيم يؤمن بأن الكواكب - في أوضاعها المحددة - هي التي تصنع طبيعة الإنسان، كما تحدد مصيره. واللحظة الأهم في هذا «الصنع» هي لحظة الولادة، ولذلك يحرص المنجمون على دراسة الوضع العام للسماء كيف كان حين ولادة شخص ما. وهذه الدراسة تضع ما يسمى بالطالع الفلكي[٢]. وقبل بيانه لابد من كلمة عن الكواكب السبعة.

الكواكب السبعة وخصائصها:

وترتيبها في نسق بطليموس الذي أخذ به أهل التنجيم هو كالآتي: زحل، والمشترى، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر. ولكل كوكب طبيعته الذاتية ودوره الخاص[٣].

---

(١) Ptolémée : Tétrabible, p 87 - 88

(٢) L'astrologie, p 20.

(٣) في أكثر كتب التنجيم كلام عن طبائع الكواكب. انظر مثلا : : Tétrabible, p 173 et après. Belline : Traité élémentaire . p 257 - 269 Encyclopédie des arts divinatoires, p 32 à . (موسوعة فنون التنبؤ). ٣٩.

صورة ١ : الأبراج الاثنا عشر

الرمز[٢]	اسم البرج	زمنه
♈	الحمل	من يوم 21 مارس إلى 20 أبريل
♉	الثور	21 أبريل إلى 20 يونيو
♊	الجوزاء	21 ماي إلى 21 يونيو
♋	السرطان	22 يونيو–22 يوليوز
♌	الأسد	23 يوليوز–22 غشت
♍	العذراء	23 غشت–22 شتنبر
♎	الميزان	23 شتنبر–22 أكتوبر
♏	العقرب	23 أكتوبر–21 نوفمبر
♐	القوس	22 نوفمبر–20 دجنبر
♑	الجدي	21 دجنبر– 19 يناير
♒	الدلو	20 يناير– 18 فبراير
♓	الحوت	19 فبراير–20 مارس

(صورة 1)

صورة ٢ : الاعتقاد في التنجيم بين الفرنسيين[١]

الجنس		النسبة المائوية
	الرجال	21
	النساء	39
السن	20 إلى 34 سنة	38
	35 إلى 49	33
	50 إلى 64	24
	65 سنة فما فوق	20
المهنة	مهن حرة، أطر عليا	34
	تجار	36
	مستخدمون	46
	عمال	29
	فلاحون	15
	بدون مهنة. ومتقاعدون	30
عدد سكان المركز السكني	أقل من ألفي نسمة	21
	عدد سكان القرية أو المدينة بين 2000 نسمة و 5000 .	27
	بين 5000 و20000 نسمة	37
	بين20000 و100000 نسمة	34
	أكثر من 100000 نسمة	40

(صورة 2)

الطالع ومنطقة البروج
(صورة 3)[٣]

(١) المصدر : ١١/٦٩٣، Article d'astrologie in : Encyclopaedia Universalis
وهذا الجدول هو ملخص البحث الميداني لسوفر سنة ١٩٨١ بفرنسا.
(٢) انظر في معنى هذه الرموز وعلاقتها بالأسطورة وبالباطنية : L'occultisme du zodiaque, p 71 à 141
(٣) عن : F. Maisonblanche : Poissons, p64

١ـ **زحل**: وهو أقوى الكواكب وأكثرها شرا، حتى إنه يعد ـ رفقة كوكب المريخ ـ مسؤولا عن تسعة أعشار مشاكل الإنسانية، فهو ذو طبيعة متعجلة وخفية ومخادعة. وإذا كان المريخ ـ في لحظات الغضب ـ يجرم دون قصد، فإن زحل يخطط جيدا لأعماله ويندر أن يخطئ.

ومن جهة أخرى فزحل هو رمز للتأمل الصامت والتفكير الهادئ، ولذلك يمثل في الإنسان الكبير حاسة السمع، وعلى المستوى الفكري والنفسي يشرف زحل على المشاعر الإنسانية ومجموع قدرات الإنسان الفكرية. قلت: ولعل هذا هو السبب الذي من أجله عنون فيرلين أحد أهم دواوينه هكذا: أشعار زحلية. وهي تأملات حزينة[1].

٢ـ **المشترى**: وعلى خلاف زحل، فإن هذا الكوكب يمثل أفضل وأطيب ما في الحياة الإنسانية، ففعله خير محض، وهو لا يتصور أن في الآخرين خبثاء. فهذا كوكب الأخلاق العالية بامتياز.

٣ـ **المريخ**: وهو من أقدم الكواكب المعبودة، وكان يمثل ـ بالنسبة إلى بعض الأمم ـ إله الحرب والبأس. ولذلك فهو في التنجيم رمز للصدام والتدمير والوحشية. أما على المستوى المعنوي، فالمريخ مسؤول عن قوى الطاقة والحيوية والعمل، ولولاه لأصاب الكسل جميع الناس.

٤ـ **الشمس**: أساس الحياة، وموردها إلى البشر، وهي التي تضع في أعماقهم مشاعر الحزم وتقدير الذات، وكذا الوعي والأمل.

٥ـ **الزهرة**: كوكب جميل، ولذلك قال المنجمون إنه مصدر البهجة والسعادة والعلاقات الاجتماعية، وهو المسؤول عن الشهوات بأنواعها، ولذلك فهو الذي يهب للإنسان المشاعر المثالية والميول الفنية.

٦ـ **عطارد**: كوكب الطاقة والذكاء، فهو المسؤول عن القوى العقلية، خاصة الإدراكية منها، وكذا عن المواهب الشفهية، كالخطابة. وهو مصدر الحكمة أيضا. ولذلك يتحكم هذا الكوكب في الدماغ واللسان. ورغم هذا فهو أحيانا يكون مصدرا لأخلاق الصلف «والسفاهة».

---

(١) Paul Verlaine شاعر فرنسي توفي سنة ١٨٩٦، وهو صديق رامبو.

٧- **القمر**: أقرب الكواكب إلى الأرض، وأقواها علاقة بها، ولكن تأثيراته سلبية على العموم. يقوم القمر بدور الوساطة بين الأرض - والإنسان - ، وبين الكواكب الأخرى، حيث يمرر إلينا أشعتها. أيضا القمر مسؤول عن الطبيعة السلبية والضعيفة في الإنسان.

الطالع الفلكي:

إذا كان التنجيم الذي يتعلق بالملوك والدول قديما جدا، فإن التنجيم الخاص بالأفراد حديث نسبيا[١]. فأقدم طالع فلكي نعرفه يعود إلى سنة ٤١٩ ق.م[٢]. واليونان هم من قام بالدور الأكبر في توسيع مجال التنبؤ التنجيمي ليشمل الناس العاديين[٣].

ونعني بالطالع الفلكي خلاصة دراسة أوضاع الشمس والقمر وسائر الكواكب الأخرى، بعضها بالنسبة إلى بعض[٤]، وبالقياس أيضا إلى خطوط الاستواء والأفق، وحركة الأرض الإهليلجية في دورانها حول الشمس. وذلك عند ولادة الشخص الذي نريد أن نكتشف طالعه الفلكي (انظر الصورة ٣). ولذلك يمكن أن نقدم التعريف التالي: الطالع هو الشكل المخصوص الحاصل للفلك عند انفصال الولد من رحم أمه[٥]. والأصل - كما بين ذلك بطليموس - هو أن نعتبر زمن الإخصاب لا زمن الولادة، لكن ما دام الأول مجهولا لا سبيل إلى معرفته في أكثر الأحوال، فقد اقتصر المنجمون على اعتبار ساعة خروج الجنين من رحم أمه ويومه[٦].

والغاية من هذا الطالع هو التنبؤ بمستقبل المعني، كما قال ابن أبي الرجال:

وكل من يسأل عن حياته ... وما يلاقيه إلى مماته

---

(١) راجع: Couderc : L'astrologie, p 59,90

(٢) Encyclopaedia Universalis, 3/279, article astrologie.

(٣) L'astrologie, p 26,92. ربما لاحظ القارئ أن هذا يخالف ظاهر قصة إبراهيم عليه السلام مع النجوم، وهو الذي عاش حوالي ١٨٠٠ق.م.

(٤) هو بالفرنسية: L'horoscope

(٥) كما قال ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٩.

(٦) Tétrabible, p 121.

سيــر لــه طــالــعــه وكــوكــبــه ونــيــر الــنــوبــة لا تــعــيــبــه[١]

وهذه الدراسة عبارة عن بحث جملة أمور أهمها :

١ـ تحديد برج الشخص، ويلزم لذلك معرفة يوم الولادة، وفي أي شهر كانت (انظر الصورة ١) ومنطقة البروج ـ أو الزيج ـ عبارة عن دائرة متخيلة تحيط بالأرض، درجتها ٣٦٠، فإذا قسمناها إلى اثني عشر منطقة، تحصل لنا اثنا عشر برجا، لكل برج ثلاثون درجة[٢]. وهذا الشريط ـ أو الزيج ـ ثابت لا يتغير (انظر الصورة ٣).

٢ـ تحديد الطالع[٣]، وهو ضروري لوضع طالع فلكي تام ودقيق[٤]، فهو الكوكب الذي كان هو السيد والمتحكم، من بين جميع الكواكب السبعة ـ أو الاثني عشر ـ ، أثناء ولادة الشخص المعني[٥].

وإذا تصورنا أن الأرض تتحرك في سطح أفقي واسع يحيط بها، فإن الطالع يحدده تقاطع هذا السطح مع الزيج، أو منطقة البروج، من جهة الشرق (انظر الصورة ٣)[٦]. ولذلك يخضع الشخص لتأثير كوكبين: نجم البرج، ونجم الطالع، فيكون فيه مزيج من طبائع الكوكبين، مع غلبة نسبية لطبيعة كوكب البرج الثابت. وهذه الأمور ـ أعني منطقة البروج والزيج. . ونحوها ـ هي ـ كما قال الجرجاني ـ أمور موهومة لا وجود لها في الخارج، ولا حجر في مثلها، فلا يتوجه نحوها

---

(١) في منظومته في التنجيم، وهي مخطوطة، ص ٢٣٣ (ضمن مجموع). وهذه أهم منظومة في هذا الفن بالغرب الإسلامي.

(٢) L'occultisme du zodiaque, p 143 - 144 والزيج هو حساب الكواكب وحركتها وسرعتها واتجاهاتها، فتعرف مواضع الكواكب في مساراتها لأي وقت فرض بناء على هذا الزيج الذي مرجعه إلى الرياضيات. ولذلك فالزيج من علم الهيئة لا التنجيم. انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٣٦٣. وأهم الزيجات عند المسلمين: زيج ابن الشاطر، وزيج أبي معشر البلخي، وزيج ألوغ بيك. والزيج الشامل لمحمد البوزجاني. وزيج محمد بن جابر البتاني. والزيج الحاكمي الكبير لأبي الحسن بن يونس... راجع كشف الظنون، ٢/ ٩٦٤ إلى ٩٧١.

(٣) أي L'ascendant

(٤) L'occultisme du zodiaque, p 144.

(٥) L'astrologie, p 31.

(٦) L'occultisme du zodiaque, p 144.

إثبات وإبطال[١]. قال ابن خلدون: «وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبني عليها الأحكام النجومية، وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان.»[٢]

٣- معرفة موضع الكوكبين النيرين: الشمس والقمر، وكذا الأوضاع الهندسية لمختلف الكواكب المؤثرة بعضها بالنسبة إلى بعض، ودرجاتها في تقابلها فيما بينها[٣]، فلكل هذه التفاصيل قيمة ومعنى في التنجيم. يقول ابن أبي الرجال في باب المال من نظمه:

وإن أتاك سائل عن مال ... فانظر لرب طالع السؤال
ونير الليل ورب الثاني ... وحالهم في البعد والتداني
فإن يكن بينهما تواصل ... فالمال حتما في يديه حاصل[٤]

وهذا العمل كله علم فلك محض، لهذا يمكن القيام به بكامل الدقة والصواب. أما التنجيم فيتدخل بعده، بتفسير هذه المعلومات، وإعطاء معنى لكل معلومة منها، وتحديد قيمة كل وضع وأثره. وفي هذا يختلف المنجمون وتختلف انطباعاتهم وآراؤهم باختلاف تكوينهم الثقافي والتنجيمي، وباختلاف طبائعهم وأمزجتهم[٥].

العناصر الأربعة:

كان العالم القديم يقسم المادة إلى أربعة أنواع: النار، والهواء، والتراب،

---

(١) شرح المواقف في علم الكلام، المواقف للقاضي عضد الدين الإيجي، والشرح للشريف الجرجاني، ٢/٤١٠.
والجرجاني هو علي بن محمد، من شيراز (٨١٦ هـ)، متكلم وعالم بالعربية. انظر: الأعلام، للزركلي، ٥/١٥٩.

(٢) المقدمة ، ص ٣٦٤. عبد الرحمن بن محمد، ولي الدين، الشهير بابن خلدون (٨٠٨هـ)، أصله من إشبيلية، ومنشأه بتونس، مؤرخ ورحالة، وفيلسوف. الأعلام، ٤/١٠٦.

(٣) L'astrologie, p 31. Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 254 - 255

(٤) نظم ابن أبي الرجال القيرواني في التنجيم، ص ٢٣٣ ، مخطوط.

(٥) L'astrologie, p 31.

والماء. فباختلاط هذه العناصر بنسب مختلفة تنشأ مواد مختلفة[(١)].

والمنجمون ورثوا هذه الفكرة، وما زالوا يعتمدونها إلى اليوم، فلكل برج عنصر يقابله، ويفسر - إلى حد كبير - خصائصه وصفاته:

- **الهواء، وفيه أبراج: الميزان، والدلو، والجوزاء.**
- **النار: الحمل، والقوس، والأسد.**
- **الماء: العقرب، والسرطان، والحوت.**
- **التراب، أو الأرض: الثور، والعذراء، والجدي.**

وبين أبراج العنصر الواحد تناغم وانسجام، فالحمل والأسد مثلا يفهم بعضهما بعضا، بسبب تقاربهما في الطبائع[(٢)].

ويوجد أيضا - بالموازاة مع العناصر الأربعة - الطبائع الأربعة: الحرارة، والبرودة، واليبوسة، والرطوبة. وكذلك توجد الأمزجة الأربعة: الدموي، والصفراوي، والسوداوي، والبلغمي. ولهذا كله أثر ومكان في التنجيم[(٣)].

وبعض المنجمين لا يأخذ هذه التقسيمات بالحرف، ويقول إنها فقط تساعد على التصنيف والترتيب[(٤)]. ومن المفيد أيضا أن أذكر هنا رأي بابوس، فهو يقول: إن العناصر الأربعة - في عرف

القدماء - ليست هي المواد التي نرى ونعرف، فالماء المقصود ليس هو ذاك الذي نشربه، والهواء ليس الذي نستنشقه.. وإنما تعني نظرية العناصر الأربعة الحالات الأساسية للمادة: الصلابة، والسيولة، وحالتا الإشعاع، والبخار[(٥)]. وهو كما قال.

---

(١) راجع في العناصر الأربعة مقدمة محقق «طيماوس»: ..Timée, p 83 à 85 وانظر أيضا مبحث العنصريات في «لباب الإشارات والتنبيهات»، ص ١١٠ إلى ١١٥، وهو تلخيص الرازي لإشارات ابن سينا.

(٢) Principes d'astrologie.. p 171 à 174.

(٣) انظر: التفهيم، للبيروني، ص ١٥٤ L'astrologie, p 27,32.

(٤) L'astrologie , p 32.

(٥) Papus : Traité élémentaire ... p 66.

منازل الكواكب:

ويقول أهل التنجيم إن لكل كوكب منزلا معينا، هو «سكنه وبيته»، حيث يسود ويمارس فيه التأثير الأكبر لا يشاركه فيه غيره. ولكل منزل إشراف على مسائل محددة في حياة الإنسان[١]. وهذه هي:

- **المنزل الأول**: يمثل كل ما يتعلق بالإنسان نفسه، بجسمه ومزاجه وبيئته الخاصة...
- **المنزل الثاني**: يتعلق بالأشياء وتملكها، وبالغنى والفقر..
- **الثالث**: وهو علاقات الإنسان بالعالم الخارجي، أي حياته الاجتماعية...
- **الرابع**: منزل الأسرة والأم والحياة النفسية الداخلية، وما بعد الموت...
- **الخامس**: ويمثل هذا البيت عالم المشاعر والأبناء والمتع...
- **السادس**: وهو الخدمات والعمل..
- **السابع**: يمثل العلاقات الزوجية، والشركة والخصوم..
- **الثامن**: مسؤول عن النوم والأزمات والموت..
- **التاسع**: وفيه الحس الجمالي والفكر وقوى الإدراك، بما فيها قدرات التنبؤ واستشفاف المجهول. وكذا الدين والسفر...
- **العاشر**: منزل الطموح والسلطة..
- **الحادي عشر**: الصداقة، والآمال، والجماعة..
- **الثاني عشر**: الأسرار والتأمل، والأعداء، والحزن والفشل..[٢].

---

(١) Quelques sciences captivantes , p 194. وفي مفهوم المنازل (maisons des planètes) اضطراب واختلاف، خصوصا في علاقته مع الأبراج، وفي أصله هل هو يوناني أو عربي، لأن هذا المفهوم لم يكن عند البابليين. انظر : التفهيم في صناعة التنجيم، ص ١٥٩ Quelques sciences, p 193 - 194 . وقارن بـ : Principes d'astrologie, p 23 - 24 وراجع أيضا : Tétrabible, p 48 à 50. Traité élémentaire... p 248, 277 à 279.

(٢) التفهيم ، ص ١٥٩ L'occultisme du zodiaque, p 144 - 145 . وانظر غيرها من كتب التنجيم التجارية أو الدراسية، مثلا F.Maisonblanche : Poissons, 179 à 190. Vierge, p 177 et après. Encyclopédie des arts divinatoires, p 50. وفي هذه المنازل اختلافات كثيرة بين المنجمين.

لكن تأثير كوكب ما يرتبط بوضعه بالنسبة إلى الكواكب الأخرى، فإن شكل الكوكبان زاوية درجتها ٣٠ أو ٦٠ أو ١٢٠، كان لهما أثر إيجابي، وإن تقابلا، أي كانت الزاوية ٩٠ أو ١٨٠، فهذا ينبيء بالخطر وسلبية الأثر(١). ولذلك يقول البيروني: «البروج المتحابة هي المتناظرة عن تثليث أو تسديس. والمتباغضة هي المتناظرة عن مقابلة أو تربيع. والمتعادية هي المتناظرة من مقابلة خاصة»(٢).

وكذلك يوجد مقابل كل يوم في الأسبوع كوكب يديره ويتكلف به: الإثنين له القمر، ومنزله واحد هو برج السرطان. الثلاثاء: المريخ، ومنزله الحمل والعقرب. الأربعاء: عطارد، ومنزله العذراء والجوزاء. الخميس: المشترى، ومنزله الحوت والقوس. والجمعة: الزهرة، ومنزلها الثور والميزان. والسبت: زحل، ومنزله الدلو والجدي. والأحد للشمس ولها منزل وحيد، هو برج الأسد(٣).

الأبراج وطبائعها:

تختلف طبائع الناس باختلاف الأبراج التي ولدوا في ظلها، بحيث يوجد في البشر اثنا عشر طبعا عاما وأساسيا. وهذه نظرة جد عامة عن هذه الطبائع(٤):

١ـ **برج الحمل**: يتميز مولود هذا البرج بالشجاعة وحب المغامرة والطموح. وهو ذو طبيعة عنيدة. ويصلح للقيادة وتجاوز الصعاب. وهو مع ذلك رقيق.

٢ـ **الثور**: قدراته الفكرية جيدة. نبيل، ومتسامح، ومحبوب. واقعي لدرجة المبالغة. وأحيانا متشائم ومكتئب. يميل إلى التملك.

---

(١) Ptolémée : Tétrabible, p 42 à 47. Principes d'astrologie scientifique, p 47 - 48, 99 à 135. Quelques sciences captivantes, p 195.

(٢) التفهيم ، ص ١٦٧.

(٣) Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 248,249.. وانظر : Quelques sciences, p 195

(٤) راجع كتب التنجيم، فأكثرها يتحدث عن طبائع الأبراج. من الكتب الدراسية والعامة: Papus : Traité élémentaire... p 279 à 282. Tucker : Principes d'astrologie... p 69 à 99.
ومن الكتب التجارية انظر السلسلة الصادرة عن دار مارابو بإشراف : . Frédéric Maisonblanche
وانظر في الدلالات الباطنية للأبراج: .Traité élémentaire, p 283 à 301

٣- **الجوزاء**: ذكي يميل للمعارف المجردة. قلق، ومتقلب في مزاجه، ولا مبالي. وهو اجتماعي ومتحرر.

٤- **السرطان**: شخص حساس، وله ميول فنية، وهو قلق، وفيه شيء من الكبرياء والعدوانية،

٥- **الأسد**: عقلاني، ومع ذلك مندفع وأناني، ويحب السيطرة والمدح. وأحيانا انعزالي. عريض الدعاوى.

٦- **العذراء**: هادئ، ومتواضع، ومتردد في قراراته أحيانا لدرجة عدم الاكتراث، يحب النظام ويكره التعقيد.

٧- **الميزان**: صريح، ومع ذلك محبوب. ذو طبيعة هادئة، ويحتاط في تصرفاته، ليس له طموح بارز، وهو إنسان مساعد. يحب الأكل ومظاهر الاحتفال.

٨ - **العقرب**: حيوي، وصاحب إرادة ومبادرة، غير مستقر في مشاعره، ومتهور، أحيانا فقط. لكنه نبيل.

٩- **القوس**: شجاع، وحازم. يحب الرياضة والسفر. عنيد وغير اجتماعي. واقعي، يحب الترف.

١٠- **الجدي**: هاديء يحسب كل شيء، علاقاته الاجتماعية معقدة. غير عاطفي. يحب العمل، لكنه سريع الشعور بالإحباط.

١١- **الدلو**: متواضع، وخجول، وقلق، وغير اجتماعي، لكنه ذكي وطيب، ودقيق في تصرفاته.

١٢- **الحوت**: يتقلب في أطوار، ولا يستقر، حساس يحب التغيير. أمين ويساعد الآخرين. له قدرات خاصة في الحدس والتوقع[١].

في سبب تسميات الأبراج:

قال الإيجي: «أخذوا أسماء البروج من صور تخيلوها من كواكب كانت موازية لها حين التسمية»[٢]. أي أن مجموعة من النجوم كانت قد أشبهت ذات مرة

---

(١) عن: Belline : Encyclopédie des arts divinatoires: p 41 à 44.

(٢) المواقف في علم الكلام، ٢/ ٤٠٨. وهو القاضي عبد الرحمن بن أحمد الشيرازي، عضد الدين. عالم مشارك في العلوم العقلية والنقلية واللغوية.من كتبه: شرح مختصر ابن الحاجب الأصولي.تحقيق التفسير =

شكل حيوان ما، فسميت باسمه. كما يسمي علماء الهيئة مجموعات معروفة من الكواكب بالدب، والعقاب..[(١)].

تفاصيل أخرى:

وفي الكلام عن البروج وخصائصها تفصيل كثير، فقد قال المنجمون - على سبيل المثال - : إن جميع البروج الحارة ذكور، والباردة إناث. وثمة بروج ولودة، وأخرى قليلة الولد، أو عقيمة. وقالوا إن الثور والأسد والعقرب والدلو - يدل في شؤون النساء - على عفتهن، والحمل والسرطان والميزان على فسادهن، وسائر ذلك على توسط[(٢)].

وقالوا: كل ريح تهب من جهة برج ما فهي منسوبة لجهته، فريح الصبا للحمل، والدبور للجوزاء...[(٣)].

موضوعات التنبؤ في التنجيم:

وهي متنوعة تشمل «أحوال الملك والممالك، والأشخاص البشرية، والمسائل الحربية، واختيارات ابتداءات الأعمال»[(٤)].

وقد ذكر بطليموس من هذه المواضيع: كشف مدة حياة الإنسان، وطريقه، والغنى والفقر، والمهنة، والزواج والأطفال، والأصدقاء والأعداء، والأسفار، وكيفية الموت، أي بأي طريقة سيموت السائل[(٥)].

ولعله يكفي لإدراك اتساع مجال التنجيم أن يلقي القارئ نظرة على أبواب منظومة ابن أبي الرجال في هذا الفن، وهي كالآتي: في المبتدأ. الحياة. المال. التجارة. القراض. الأخوة. الآباء. الأولاد. الحمل. الأخبار. الكتب والإرسال. الأمراض. الممالك. المسحور. التزويج. الخصوم والحروب.

= في تكثير التنوير. الرسالة العضدية في الوضع. توفي مسجونا - رحمه الله تعالى - سنة ٧٥٦ هـ. عن معجم المؤلفين، ٥/١١٩.

(١) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 12.

(٢) التفهيم في صناعة علم التنجيم، للبيروني، ص ١٥٤، ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) التفهيم، ص ١٥٧.

(٤) إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، ص ٦٧.

(٥) راجع كتابه: Tétrabible, p 144 à 161, p 195, 199, 204, 214, 217, 221, 224

الشركة. السرقة. الآبق (يعني العبد الهارب) والضالة. الغائب. السفر. الأسير والمسجون. الخائف والطريد. ولاية العمال. الأصدقاء والحوائج. الأعداء. الدواب. فنون الاختيارات. في عقد اللواء. في حله. في رضاع الطفل. فطامه. تقليم الأظافر. في تقصيص الشعر. دخول الحمام. ختان الولد. النقلة (أي تغيير السكن). لبس الثياب. السلف والوديعة. البناء. الهدم. غرس الشجر. طلب الولد. تعليم الولد. علاج العين. إخراج الدم. أخذ الدواء المسهل. الممسك. شراء العبيد. طلب الذاهب والعدم. الأملاك. في الابتناء (يعني بالعروس). السفر. المسير مع السلطان وطلب الحوائج. في كسب الدواب. الصيد.

إن التنجيم يتنبأ تقريبا بكل شيء، وهو يحاول أن يوجه حتى حياة الأفراد في حاضرهم، ولذلك يعين لكل عمل وقتا محددا، بحسب وضع الأفلاك، ففي منطق المنجمين «النجوم توجب أن يعيش فلان كذا كذا سنة وكذا كذا شهرا، وينتهون في التحديد إلى جزء من ساعة، وأن يدل علـى تقليد رجل بعينه الملك، وتقليد آخر بعينه الوزارة، وطول مدة كل واحد منهما في الولاية وقصرها، وما فعله الإنسان وما يفعله في منزله، وما يضمره في قلبه، وما هو متوجه فيه من حاجاته، وما هو في بطن الحامل والسارق، ومن هو، والمسروق وما هو وأين هو وكميته وكيفيته، وما يجب بالكسوف وما يحدث معه، والمختار من الأعمال في كل يوم بحسب اتصال القمر بالكواكب من أن يكون هذا اليوم صالحا للقاء الملوك والرؤساء وأصحاب السيوف، وهذا يوم محمود للقاء الكتاب والوزراء، وهذا اليوم محمود للقاء القضاة، وهذا اليوم محمود لأمور النساء، وهذا اليوم محمود لشرب الدواء والفصد والحجامة، وهذا اليوم محمود للعب الشطرنج والنرد، وغير ذلك.»[١]

وقد أضاف عصرنا إلى هذه المواضيع أشياء كثيرة كالبورصة المالية وتقلباتها، وألعاب القمار، فحين ظهر اليانصيب الوطني بفرنسا سنة ١٩٣٣ كان أحد أهم الأسئلة التي توجه للمنجمين هي: ما هو الرقم المربح في اللعبة القادمة؟[٢]

---

(١) رسالة عيسى بن علي في التنجيم ، وقد نقلها ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٤٦٩.

(٢) Quelques sciences captivantes, p 228.

الفصل الثالث

التنجيـــم اليـــوم، ظاهـــرة استعصائـــه على المـــوت، وعوامل استمراره

إن المتتبع لوضع التنجيم في عصرنا الحاضر يقضي العجب من شدة انتشاره بين الناس وغزوه لمختلف طبقات المجتمعات البشرية في كامل الكرة الأرضية، لم يشذ عن ذلك عالم إسلامي ولا مسيحي، ولا صيني ولا هندي...

وسأحاول في هذه الصفحات القليلة أن أكشف عن بعض مظاهر هذا الانتشار، خصوصا بلغة الأرقام، أبلغ لغة بشرية، وأن أقدم ما تحصل لدي من الأسباب التي يمكن أن نعلل بها هذا الانتشار المهول..

وعندي أن هذه الصفحات مجرد تنبيه على الموضوع الذي يحتاج إلى بحث مستقل يستعان فيه بعلوم الدين والنفس والأنثروبولوجيا الثقافية، وبالدراسات الموضوعة حول الوضع النفسي والعقلي والاجتماعي العام لإنسان القرنين العشرين والواحد والعشرين..عل ذلك يصل بنا إلى نظرية تفسر لنا مسألة الانتشار الواسع للتنجيم في البشرية المعاصرة.

مظاهر انتشار التنجيم من خلال بعض الأرقام:

لنأخذ مهد العقلانية الديكارتية نموذجا لهذا الانتشار. لقد كان في باريس وحدها ـ سنة ١٩٣٥ ـ حوالي ٣٤٦٠ مكتبا للتنجيم وقراءة الكف، ونحو ذلك من فنون التنبؤ. وكان المعدل العام للرسائل التي يتلقاها منجم مشهور حوالي خمسة آلاف رسالة كل يوم(١).

(١) L'astrologie, p 106. Quelques sciences captivantes, p 233.

وفي سنتي ١٩٦٢ و ١٩٦٣ بين استطلاعان للرأي العام سعة انتشار التنجيم بين الفرنسيين، فالذين يعرفون برجهم الخاص، ويقرأون بين الفينة والأخرى طالعهم الفلكي بالصحف أو يسمعونه بالمذياع، ويعتقدون أن جانبا من الصدق والحقيقة يوجد فيما ينسبه التنجيم من خصائص وطبائع إلى الأبراج. . .الذين يحققون هذه الشروط الثلاثة يشكلون ثلث الشعب الفرنسي: ٣٠٪ . ويجد القارئ في الصورة ٢ ملخصا لنتائج هذين البحثين. ولعله سيلاحظ أن النساء أكثر ميلا إلى الاعتقاد في التنجيم من الرجال، والشباب أكثر من الكهول، وسكان المدن أكثر من القرويين. وفي المهنيين يأتي العمال والمستخدمون على رأس قارئي الطالع الفلكي، بنسبة ٧٢٪، ثم التجار بنسبة ٥٧٪[١].

ثم أوضح استطلاع آخر قامت به مؤسسة سوفر سنة ١٩٨١ ـ لصالح أسبوعية «الأمسيات الطيبة» ـ نمو هذا الاهتمام بالتنجيم، فالذين يطلعون ـ باستمرار أو بصفة متقطعة ـ على طوالعهم يشكلون ٣٢٪ من السكان. و٩٠٪ من الفرنسيين يعرفون أبراجهم، والأكثر لا يعرفون الطالع {ascendant {13%. والفرنسيون الذين يلجئون إلى التنجيم هم أكثر من ضعف الذين يذهبون ـ باستمرار أو بتقطع ـ إلى الصلاة الأسبوعية بالكنيسة[٢].

وقد استمر هذا الوضع في التصاعد، ففي استطلاع للرأي قامت به المؤسسة المذكورة سنة ١٩٩٨ لسبر الآراء، تبين أن ٦٠٪ من الفرنسيين يصدقون بمضامين التنجيم، بعد أن لم تكن تتجاوز هذه النسبة ٣٠٪ عام ١٩٦٠[٣].

ولذلك لا عجب أن يكون أحد أهم رؤساء فرنسا ـ وهو فرانسوا ميتران ـ يؤمن بالتنجيم ويلجأ إلى منجمة مشهورة اسمها اليزابيث تيسييه، التي وضعت كتابا عن قصتها مع الرئيس عنوانه «تحت برج ميتران». ومما كشفت عنه أنها أصبحت اعتبارا من سنة ١٩٨٩ زائرة منتظمة لقصر الإليزيه، حيث لم يكن ميتران يتردد في الاتصال بها هاتفيا قبل اتخاذ قرارات هامة، ومن ذلك أنه استشارها في دجنبر ١٩٩٠ عشية حرب الخليج. وتضيف العرافة أن الرئيس الراحل كان يسألها في بداية كل لقاء

---

(١) Encyclopaedia Universalis, 11/693, article horoscope.

(٢) Encyclopaedia, 11/693. والمؤسسة هي Sofres، والمجلة Les bonnes soirées

(٣) عن جريدة الشرق الأوسط، ليوم ٢ أبريل ١٩٩٨.

بينهما هذا السؤال: كيف تسير الأمور بالنسبة لفرنسا، وبالنسبة لي؟ أي ماذا تفعل النجوم. وكان ميتران ـ وهو من مواليد برج العقرب ـ شغوفا بمعرفة أبراج الشخصيات السياسية الفرنسية، سواء كانت صديقة أم منافسة[١].

وكذلك الوزير الأول الحالي للهند، السيد أتال فاجبايي، والذي يسير ثاني أكبر دولة في العالم سكانا، لم ينتقل إلى منزله الرئاسي الجديد، إلا بعد أن أذن له في ذلك منجمه الخاص، وحدد له «الساعة السعيدة». وصرح السيد الوزير الأول للصحافيين بأن «على الواحد منا أن يراعي النجوم»[٢].

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فالوضع ـ بحسب كوديرك ـ أسوأ من مثيله بفرنسا. فقد تبين وفق بحث ميداني أجري سنة ١٩٤٣ أن خمسة ملايين أمريكي يتبعون في تصرفاتهم توجيهات العراف أو المنجم، وينفقون مائتي مليون دولار سنويا ليعرفوا مستقبلهم. وفي هؤلاء من كل الطبقات: الشباب، والنساء، ورجال الأعمال، والفنانون.. وتجاوز عدد المنجمين بهذا البلد ـ أمريكا ـ ثلاثين ألفا[٣]. ولا شك أن هذه الأرقام اليوم مضاعفة.

تحول التنجيم إلى صناعة وتجارة مربحتين:

يوجد اتفاق عام بين المهتمين بالتنجيم على انتشاره في كل المجتمعات وبين جميع الطبقات، وأنه إلى ذلك أصبح تجارة ناجحة تروج فيها عشرات الملايين من الدولارات.. بجمعياته واختصاصييه[٤].

وبداية تحول التنجيم إلى صناعة قائمة بذاتها هو أن للتكهن الفردي، أعني الذي يتم بزيارة المنجم في مكتبه أو مقر عمله، حدودا، لأن الساعات الملائمة لطلب الاستشارة قليلة، ولا يمكن للمنجم أن ينتهي مع الزبون في أقل من عشرة دقائق. ولذلك اكتشف المنجمون وسيلة أخرى، هي ربط العلاقة مع الزبناء عن طريق الإرسال البريدي. وهذه الطريقة نجحت مع التنجيم بالخصوص، لأنه يصعب

---

(١) عن يومية العلم، ٢ ماي ١٩٩٧. قصر الإليزيه هو مقر الرئاسة الفرنسية. وحرب الخليج هي الثانية بين قوى التحالف الدولي بزعامة أمريكا وبريطانيا وفرنسا ضد العراق في أزمة اجتياح الكويت.

(٢) انظر الصحيفة اليومية الناطقة بالإنجليزية: Saudi Gazette, Thursday, 9 April 1998

(٣) L'astrologie, p 106.

(٤) L'astrologie, p 50 الدولار يساوي حوالي عشرة دراهم مغربية أو سبع فرنكات فرنسية.

تطبيقها في الأساليب الأخرى للتكهن مثل قراءة الكف، والنظر في البلورات، واستعمال بطاقات اللعب..[١].

والذي ساعد على نجاح هذه الأساليب غير المباشرة في الاتصال، هو أنها تجنب بعض الناس الحرج أو الانزعاج الذي يشعرون به عند زيارتهم للمنجم في مكتبه، إذ يكفي أن ترسل تاريخ مولدك وساعته لتتلقى جوابا خاصا وشخصيا[٢].

ويلجأ المنجمون لجلب الزبناء إلى طريقة تجارية محكمة، فهم في البداية يرسلون إلى الناس يعرضون عليهم أن يقدموا لهم طالعا فلكيا مجانيا، ويكتفون بنفقات الإرسال. وفي العادة يجيب عدد كبير منهم بالإيجاب، لكنهم يتلقون طالعا عاما وغير تام، ويكون ذلك وسيلة لربط علاقة قد تستمر سنوات طويلة مع الزبون الذي يصبح في حاجة إلى طالع فلكي مفصل، وهنا يطالب تدريجيا بأداء مبالغ مالية هامة لقاء تقديم الاستشارة التامة ورفع كل الأسرار النجومية[٣].

وهذا أحد المنجمين المصريين - السيد الحسيني - يوضح لنا في كتابه أنه يقدم استشارات مجانية[٤]، وقد ملأ كتابه بعنوانه وهاتفه الشخصي، وهو يعرض كثيرا من الخدمات، فهو يحل مشاكل الحب والزواج.[٥]. ويقترح على القارئ تعليمه فنونا مختلفة عن طريق المراسلة: علم الفلك الروحاني، والتنويم المغناطيسي، وقراءة الكف والفنجان، والسحر[٦].. وأخيرا وجد السيد الحسيني الكلمة الجامعة، فنادى في كتابه أن استشيروني في جميع مشاكلكم[٧].

ثم إن بعض مكاتب التنجيم سرعان ما تتحول إلى شركات حقيقية، بسبب اتساع أعمالها. ولذلك فالمنجم المشهور الذي يتلقى كل يوم مئات الرسائل والمكالمات الهاتفية يشغل حوالي خمسين مستخدما. وقد كان أحد أشهر المنجمين

(١) Quelques sciences captivantes, p 222.

(٢) Quelques sciences captivantes, p 224.

(٣) Quelques sciences captivantes, p 224 - 225 وقارن بـ: مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٥ إلى ٥٤٧.

(٤) السر الرباني في علوم الفلك والروحاني، للسيد الحسيني الفلكي. ص ٧٤، ٨٦.

(٥) السر الرباني، ص ٣١، ٤٢، ١٠٦، وغيرها ...

(٦) السر الرباني، ص ٤١، ٤٢.

(٧) السر الرباني، ص ١٠٦.

بباريس يتلقى يوميا حوالي ألفا وأربعمائة رسالة، ويرسل ثلاثة آلاف وخمسمائة رسالة أو جوابا، ويصل رقم أعماله المالية - بالحساب الحاضر - إلى ملايين الدولارات سنويا. ولهذه الشركات كل ما يلزم من مجلس إدارة ومستشارين وموظفي الاستقبال ومكاتب المحاسبة وأقسام الكتابة والطبع والإرسال. وأهم شركات التنجيم مجهولة الاسم. وتتجاوز أرباحها الصافية عشرات ملايين الدولارات كل سنة[١].

وليس المنجمون فقط من يستفيد بهذا السوق الواسع، فكثير من الشركات الصناعية دخلت هذا المجال وطرحت في السوق أشياء كثيرة تحمل بصمات التنجيم وأبراجه، من ذلك: الميداليات والأوسمة، والأساور، والأقمصة، وحاملات المفاتيح، والبطاقات البريدية، واليوميات، ومنفضات السجائر، والكؤوس، وصناديق الوقيد، وأكيسة السكر الصغيرة التي تقدم بالمقاهي..[٢].

تحالف التنجيم والإعلام:

ثمة ظاهرة تميز بها عصرنا هذا، وهي وجود تحالف شبه مطلق بين التنجيم والمنجمين من جهة، وبين وسائل الإعلام، وعلى رأسها: الصحف والمجلات، والتلفاز، والمذياع..من جهة أخرى.

وقد استفاد التنجيم كثيرا من الإعلام الذي فتح له ذراعيه جيدا..وبذلك أصبح هو الوسيلة الأولى المسؤولة عن انتشار التنجيم، على مستوى العالم كله.

لقد كان في الولايات المتحدة - حوالي منتصف القرن العشرين - عشرون مجلة متخصصة في التنجيم وحده، إضافة إلى أكثر من ألفي صحيفة ومجلة تخصص لتنبؤات المنجمين وكلامهم في طباع الأبراج ومستقبلها حيزا خاصا وثابتا[٣].

واليوم فإن عدد القنوات التلفزية التي تقدم برامج أسبوعية أو يومية عن التنجيم ونبؤاته ونصائحه.. كثيرة، ويكفي لإدراك ذلك متابعة بعض برامج القنوات الفضائية[٤]. ولست أستبعد - في المستقبل القريب - أن تلجأ بعض القنوات العربية

---

(١) L'astrologie, p 106. Quelques sciences... p 232 - 233.

(٢) Encyclopaedia Universalis , art horoscope, 11/693.

(٣) L'astrologie, p 106.

(٤) انظر مثلا القناتين الإسبانيتين الأولى والثانية، وقناة كنال سور.

إلى خدمات المنجمين وتعرضها على جمهورها المسلم.

وقد خدمت وسائل الإعلام، خصوصا الصحافة، التنجيم بطريقتين:

الأولى ـ تخصيص عمود ثابت لتنبؤات المنجمين حول الأبراج الاثني عشر. وعلى سبيل المثال، فقد قفز عدد الصحف الفرنسية التي تحتوي على هذا العمود من ٥٠٪ ـ من مجموع اليوميات والمجلات ـ في سنة ١٩٦٠ إلى ٦٣٪، في سنتي ١٩٧٩ و١٩٨٠[١].

الثانية ـ تخصيص مساحات للإشهار ببعض المنجمين والعرافين.. ونحوهم.

وهي تستفيد مقابل ذلك مبالغ مالية هامة تصل إلى ملايين الدولارات سنويا، بالنسبة إلى بعض الصحف[٢]، إضافة إلى كسب طبقات من القراء التي تدمن على قراءة أبراجها، فترتبط باليومية أو بالمجلة لذلك.

واليوم فإن وسائل الإعلام المختلفة، التي اعتبرت الدفوعات المالية للمنجمين بمثابة هبة سماوية لا تكلفهم شيئا، غير مستعدة للتفريط في هذا المصدر على الإطلاق[٣].

وقد تتعدى العلاقة بين التنجيم والإعلام مستوى تبادل المصالح والمنافع المادية إلى قيام نوع من التحالف الواعي، ومثاله ما حكاه مارسيل بول عن فترة عمله بمجلة «أخبار الأدب»، حيث كان مشرفا على الصفحة العلمية بها، فكتب مقالا عنوانه: «هل التنجيم علم؟» لكن الإدارة لم تضعه في هذه الصفحة، بل في أخرى تحت عنوان: «آراء حرة»[٤].

ظاهرة استعصاء التنجيم على الموت:

كيف إذن لفن غير ثابت وفاسد الأسس ـ كما سنرى بعد قليل ـ، أن يستمر كل هذا الزمن الطويل من عمر الإنسانية، بل أن يحقق فتوحات كبيرة في قلب الحضارة الغربية السائدة اليوم، ونحن نعيش بداية القرن الواحد والعشرين؟

---

(١) Ency. Universalis, 11/692, article horoscope.

(٢) Quelques sciences captivantes, p 233.

(٣) Quelques sciences, p 233, 234.

(٤) Quelques sciences captivantes, p 212. والمجلة هي: « Nouvelles littéraires »، أخبار أدبية.

لقد لاحظ بعض الكتاب ظاهرة استمرار حياة التنجيم إلى اليوم، فقال بيلي: «إن التنجيم هو المرض الأطول أمدا الذي أصاب العقل الإنساني»[١]. ومن الغريب فعلا أن يحتفظ التنجيم بوجوده رغم كل أخطائه عبر التاريخ[٢]، ورغم كل التقدم العلمي والفكري والتقني الذي حصله الإنسان في القرون الأخيرة... وكذلك رغم معارضة الأديان السماوية له.

نعم، هذا نبينا محمد ﷺ - خاتم النبيين - يخبرنا أن أمته لن تدع أبدا التنجيم واعتقاده والاشتغال به:

روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: أخاف على أمتي تكذيبا بالقدر، وصدقا بالنجوم[٣]. قال العزيزي: «لأنهم إذا صدقوا بتأثيراتها مع قصور نظرهم إلى الأسباب هلكوا بلا ارتياب»[٤].

وفي حديث أصح وأصرح لأبي مالك الأشعري أن الرسول الكريم قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[٥]. أي أن بعض الأمة - لا كلها طبعا -

---

(١) نقله بول في: Quelques sciences, p 193 ; note 1. والقائل Jean Bailly عضو أكاديمية العلوم الفرنسية سنة ١٧٦٣ بفضل أعماله في الفلك. ثم اشتغل بالعمل السياسي حيث كان رئيسا للبرلمان الفرنسي، ثم عمدة لباريس، إثر قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، لكنه ما لبث أن أصبح ضحية لهذه الثورة، فأعدم سنة ١٧٩٣.

(٢) L'astrologie, p 68.

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء»، والخطيب في «القول في علم النجوم»، ص ١٦٢ - ١٦٣... كلهم عن أنس. وقال السيوطي هو حديث ضعيف. انظر الجامع الصغير، ٤٧/١. وعند أحمد في المسند والطبراني في الكبير عن جابر بن سلمة إضافة: حيف السلطان، وهو خبر ضعيف بدوره، الجامع الصغير ٥٢٩/١.

(٤) السراج المنير شرح الجامع الصغير، ٦٨/١. والعزيزي هو علي بن أحمد (١٠٧٠هـ)، محدث مصري. الأعلام، ٦٤/٥.

(٥) رواه مسلم في جامعه، في كتاب الجنائز، باب ١٠، التشديد في النياحة، حديث ٩٣٤، وهو لفظه هنا. والترمذي في أبواب الجنائز، باب ما جاء في كراهية النوح، وهو من رواية أبي هريرة، وفيه الرابعة: الأنواء: مطرنا بنوء كذا وكذا. وأحمد في المسند، ٥٢٦/٢، بنحو لفظ الترمذي. ورواه أيضا الخطيب في علم النجوم، ص ١٦٤.

سيفعل هذه الأمور الأربعة، إما مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المحرمة. ومنها نسبة المطر إلى النجوم[1]. وأنت إذا نسبت الغيث إلى نجم ما جرك ذلك إلى أن تنسب إليه أعمالا أخرى وأشياء أخرى.

ومثل هذا الحديث في المعنى ما رواه الخطيب وغيره أن النبي ﷺ قال: ثلاث من فعال الجاهلية لا يدعهن أهل الإسلام: استناءة بالكواكب، وطعن في النسب، والنياحة على الميت[2].

والنبي الكريم إذا أخبرنا بهذه الأمور فليس على سبيل إقرارها، بل للتحذير منها والتنبيه على خطرها.

وهذه المناعة التي يتمتع بها التنجيم عبر تاريخه الطويل تقودنا إلى طرح هذا السؤال:

لماذا عمر التنجيم إلى اليوم؟

هذا سؤال بسيط، لكنه في الواقع يثير مشكلة معقدة، فبساطة السؤال مجرد ظاهر لا ينبغي الاغترار به. فالتنجيم حي ومستمر إلى يومنا هذا، وعمره يتجاوز دون شك أربعة آلاف سنة، على أقل التقديرات. ولا يبدو أن ذلك سيتغير في المستقبل، بل على العكس من ذلك فالتنجيم اليوم - في البشرية - أرسخ وأقوى مما كان منذ قرن من الزمان.

لقد بينت للقارئ ظاهرة مناعة التنجيم واستعصاءه على الاندثار وعدم تأثره بتقلبات التاريخ ولا بتطورات العلوم والمعارف، وهذا أوان تعليل هذه الظاهرة.

ويشبه أن يكون ابن خلدون قد فكر في هذا الأمر حين تكلم عن أضرار التنجيم، ولاحظ أنه مع ذلك موجود في الإنسانية، وقال: «لا يقدح في ذلك (أي ضرر صناعة التنجيم) كون وجودها طبيعيا للبشر، بمقتضى مداركهم وعلومهم،

---

(١) فتح المجيد، ص ٣١٠، ٣١١.في جريدة العلم، ليوم ٢٧ غشت ١٩٩٧، أن السيد هشام إبراهيم السعيد أصدر كتابا عنوانه: «قراءة الطالع. الحقيقة والوهم»، تعرض فيه لظاهرة الانتشار السريع للتنجيم بين مختلف طبقات المجتمع المصري.

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٦٣ ـ ١٦٤. ورواه أيضا البخاري في التاريخ الكبير، والطبراني في المعجم الكبير، كلاهما عن جنادة بن مالك، غير أن فيهما: استسقاء بالكواكب. انظر الجامع الصغير ٥٢٨/١.

فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه، ودفع أسباب الشر والمضار»[١]. والحق أن هذه المسألة تحتاج إلى بحث عميق ومتأن، وإلى تعليلات أقل عمومية من مثل كلام ابن خلدون.. وهذا كله لا تتسع له هذه الأطروحة.. لكنني أظن أن درس هذه القضية أمر مفيد جدا ليس فقط لتعليل استمرار التنجيم إلى عصرنا هذا، بل هو أيضا مفيد لفهم الإنسان.. الذي يبدو أنه لم يتغير كثيرا عبر تاريخه الطويل.

وفي انتظار هذا البحث الموسع لا بأس أن أذكر بعض الأسباب التي يمكن أن تعلل - نسبيا - هذا الوضع العجيب.

الأسباب العامة:

يأتي على رأسها التحالف السابق بين التنجيم وأكثر وسائل الإعلام. ويضاف إليه وجود تواطؤ أو تسامح للدولة الحديثة وللقضاء تجاه التنجيم[٢]، الذي دخل حتى في الرواية، والقصة البوليسية، وأدب الخيال العلمي، والأغنية..[٣].

أسباب تتعلق بالأشخاص:

١- أول سبب وأوضحه هو رغبة الإنسان العميقة في معرفة المستقبل، خصوصا مستقبله الشخصي. ولذلك يقول كوديرك: يجد التنجيم فينا وفي أعماقنا الدعم اللازم لاستمراره، في التعطش الشديد لإدراك المستقبل، وبأي طريق كان[٤].

٢- وجود ما يشبه غريزة التصديق عند الإنسان، أو استعداده في الاعتقاد بأشياء ليست بالضرورة صحيحة. هذه الغريزة العامة نجدها قوية في بعض الناس[٥].

وفي هذا الإطار يمكن الاستدلال بتجربة طبيب نفساني فرنسي هو كوديرك،

---

(١) المقدمة، ص ٤٠٧.
(٢) Quelques sciences ... p 235 - 236
(٣) Ency. Uni. Art horoscope, 11 /691.
(٤) L'astrologie, p 69. Quelques sciences captivantes, p 193.
(٥) L'astrologie, p 69. Quelques sciences , p 192 - 193

فقد نشر بجريدة يومية إعلانا ادعى فيه أنه المخلص بآخر الزمان، فتلقى إثر ذلك عددا هائلا من أجوبة الناس. ثم أرسل إلى كل واحد من هؤلاء نموذجا موحدا من النصائح والتنبؤات، بحيث تنبأ لكل من اتصل به بتنبؤ واحد لا يختلف، ونصحه بنفس النصائح التي وجهها إلى غيره. وبعدها تلقى أكثر من مائتي رسالة كلها تقول ما معناه وخلاصته: أنتم تقرأون في حياتي كأنها كتاب مفتوح... إن ما تقولونه عما مضى من حياتي وعن طبائعي الشخصية هو الحق المطلق!...[١]

٣- ومن الأسباب أيضا حب الناس لكل غريب وعجيب من ظواهر الكون والحياة. وبالنسبة إلى بعض الكتاب فهذا أهم سبب، لأن الإنسان وجد أن حياته اليومية شديدة الرتابة والوضوح، يشبه بعضها بعضا، فليلها كنهارها، واليوم كالبارحة، وكلاهما كالغد[٢]. والتنجيم بإضافته إلى الكواكب فعالية كبيرة، يستجيب لهذا الميل الإنساني.

٤- وقد ساهمت الإصابات القليلة للمنجمين في كسبهم بعض المصداقية، في حين لا يهتم أحد بأخطائهم الكثيرة، لهذا كان للإصابة الواحدة أثر في تصديق المنجم لا يكون لألف خطأ في تكذيبه[٣]، كما قال الخطيب: «من شأن الناس أن يحفظوا الصواب للعجب به والشغف، ويتناسون الخطأ، لأنه الأصل الذي يعرفونه، والأمر الذي لا ينكرونه. ومن ذا الذي يتحدث بأنه سأل المنجم فأخطأ ؟ وإنما التحدث بأنه سأله فأصاب»[٤].

وقد نبه النبي الكريم على هذا السبب بشكل واضح، ففي الحديث الذي يرويه البخاري في باب تفسير سورة سبأ عن النبي ﷺ أن الكاهن حين يتلقى الكلمة من الشيطان يخلط معها مائة كذبة، فيصدق، ويقول الناس: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا... فهم نسوا هذه الكذبات كلها، ولم يعد يعلق بأذهانهم غير الكلمة التي صدقت.

---

(١) عن: L'astrologie, p 111 والطبيب هو Louis Couderc، عمل بالمستشفيات النفسية الداخلية بإقليم باريس.

(٢) وهذا رأي بول في كتابه: Quelques sciences... p 237.

(٣) L'astrologie, p 69.

(٤) القول في علم النجوم، ص ١٩٣. وكذلك قال ابن سينا، انظر: Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p16

وبما أن تنبؤات مختلف المنجمين كثيرة وعديدة، وهم أصلا كثر، فلا يبعد أن يصيب بعضها[١].

أسباب تعود إلى المنجمين أنفسهم:

١- المنجمون أناس عمليون يعرفون كيف يتكيفون مع الأوضاع المختلفة، وكيف يستفيدون من الفرص السانحة.. وهكذا حاولوا أن ينتفعوا بالثورة العلمية والتقنية الحديثة، وذلك على مستويين:

الأول - نظري، بتطوير التنجيم وتطعيمه بالمعلومات الفلكية الحديثة، وذلك لإضفاء المصداقية الضرورية عليه وإحاطته بهالة من «القدسية العلمية». وهكذا فإن مبادئ التنجيم هي نفسها كتاب تيترابيبلوس، لكن في لغة جديدة تناسب التقدم العلمي الحاصل[٢].

وأحيانا يحور بعض المنجمين كشوفات أو نظريات علمية فيقدمونها في صورة جديدة تؤكد بعض أفكار التنجيم القديم، فالثقوب السوداء - أو «مقابر» النجوم - تؤكد - عند بابوس - الفكرة القديمة التي تقول إنه بجانب كل كوكب يوجد نجم آخر أسود، تتجمع فيه العناصر اللازمة لبناء عالم جديد يعوض القديم حين يندثر[٣].

ولكن هذه الاستفادة من العلم لا تكون دائما سليمة، ومن ذلك أن بعض المنجمين حاول الاستفادة من نظرية التموجات في الفيزياء، فزعم أن الكواكب تؤثر في الإنسان بطريق موجات أو ذبذبات مختلفة ترسلها إليه. وهذا أمر لا يصح في علم الفلك[٤].

الثاني - تقني، باستعمال أدوات تكنولوجية حديثة، فالتطور التقني وفر الورق وسهل الطباعة[٥] والنشر والتوزيع، وجاءت مختلف وسائل الإعلام لتربط بين المنجم وملايين من الناس. لهذا تجد اليوم أن شركات التنجيم ومكاتبه تعمل كأي

---

(١) L'occultisme devant la science , p 42. وانظر كذلك: Quelques sciences captivantes, p207 - 208

(٢) L'astrologie, p 31 وقارن بـ Principes d'astrologie.. p 34 - 35

(٣) Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 75.

(٤) L'astrologie, p 56 - 57

(٥) Quelques sciences captivantes, p 237.

شركة تجارية ناجحة وجادة، وتستعمل الهاتف والفاكس والبريد والحاسوب الآلي والإنترنيت...

٢- وهناك سبب آخر يفسر جزئيا بقاء التنجيم، وهو أن أهله يقومون بجهود حقيقية في الدفاع عنه ونشره وجذب الناس إليه. ولذلك يوجد عدد هام من الصحف والمجلات المتخصصة في التنجيم، علاوة على الصحف العامة التي تخصص لتنبؤات المنجمين حيزا يوميا أو أسبوعيا. ويكفي لإدراك ذلك أن يطلع المرء على بعض الصحف المغربية أو العربية أو الأجنبية. والقارئ المعتاد على زيارة المكتبات يعرف أن كثيرا منها يخصص للتنجيم جناحا خاصا..

ثم إن المنجمين اليوم نظموا أنفسهم في إطار جمعيات واتحادات، منها الاتحاد العالمي للفلكيين الذي كان يرأسه المنجم العربي الراحل حميد الأزري[١].

ولهم أيضا معاهد لتدريس التنجيم وتخريج المنجمين، منها المعهد الفرنسي للتنجيم[٢]. والمعهد الأعلى للدراسات الفلكية بباريس، والمركز الوطني للتنجيم بغرازييه، شمال فرنسا.

٣- وسبب آخر هو مهارة كثير من المنجمين وحذرهم في التنبؤ وقدرتهم على التخلص الحسن حين لا تصيب نبوءاتهم، وهو غالب الأمر. إن المنجم الذكي - عند السيدة ميرتينس - لا يقدم أبدا نبوءاته بشكل صريح وقاطع، ولا بشكل مفصل، لأنه واع بسبب تعمقه في الدرس بأن عوامل كثيرة تنقصه، مما لا يسمح له باستنتاجات قطعية، ولذلك هو يعرف بأن التنبؤات في التنجيم تقريبية واحتمالية فقط[٣].

ولذلك تلاحظ أن في جواب المنجم دائما قدرا من الغموض، يقل أو يكثر، وهذا الغموض مهم جدا لأنه يترك للتأويل والتخلص مجالا، ويساعد على ذلك أن

---

(١) توفي الأزري منذ سنوات قليلة، وكان يشرف على صفحة الأبراج، بالمجلة الأسبوعية «الوطن العربي» التي تصدر من باريس، وذلك لسنوات طويلة. وهذا الشخص غريب الأطوار، اطلعت على كتاب له يحاكي فيه القرآن الكريم، ويزعم أنه تلقاه عن عالم الغيب، في حال بين اليقظة والمنام.

(٢) (العلم الخاطئ في مواجهة العلوم الخفية) Dom Neroman: La fausse science devant l'occultisme, p 112.

(٣) L'occultisme du zodiaque, p 11. وكأنها هنا تقدم نصيحة غير مباشرة إلى المنجمين.

الجواب أصبح يقدم على سبيل الاحتمال لا القطع. ثم إن المنجم الخبير غالبا ما يدع للشخص نفسه، أي الراغب في معرفة طالعه الفلكي، تأويل الجواب العام، لأن السائل سيؤوله بما يناسب حالته هو، وهو بها أعلم[١].

وأكثر ما يكون جواب المنجم عاما وحذرا.. إذا أرسله للصحافة، فإن مئات الآلاف من الناس يقرأون الأجوبة نفسها. وهكذا لا تجد في الجواب كلاما عن الزوج والزوجة - مثلا -، بل عن الرفيق أو الشخص المحبوب... ونحو ذلك، وفي محيط كل واحد شخص عزيز، قريب أو صديق أو زوج[٢].

ثم ليس من النادر أن يلجأ بعض المنجمين إلى اختلاق قصة بمقتضاها يكون أحد زملائهم قد تنبأ بحدث قبل وقوعه[٣]. والتغليط شائع في أهل هذا الفن، فالسيد الحسيني - مثلا - لا يسمي التنجيم باسمه الحقيقي، بل يطلق عليه علم الفلك، ويستدل له بآيات مثل: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ الرحمن. ٥ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء. ٣٣ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾. الواقعة ٧٥، ونحوها[٤]. ويقول إن الكاهن والعراف في حديث النهي عن إتيانهما ليسا من يعمل في علم الفلك - يعني التنجيم - أو فيما يسميه بعلم الروحاني، وهو السحر[٥].. ولا يخفى على هذا الكاتب الفرق بين الفلكي

---

(١) Encyclopaedia, 11/p 692, art horoscope Quelques sciences captivantes, p 225,257.
وانظر: L'occultisme devant la science, p 42.

(٢) Ency. Universalis, 11/692.

(٣) Quelques sciences... , p 210, 211, 214.

(٤) السر الرباني في علوم الفلك والروحاني، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٥) السر الرباني، ص ٣٩، ٤١. وقد ذكر الكاتب في التقديم أن المدعو المحسن محمد المهدي مدرس العلوم العربية والشرعية والقراءات بالأزهر، راجع كتابه هذا فوجده مطابقا للشريعة بعيدا عن الشعوذة والدجل.
وأنت لوفتشت في لوائح مدرسي الأزهر ربما لن تجد لهذا المهدي أثرا، أو ربما كان مدرسا بأحد المدارس الابتدائية التابعة للأزهر، يحفظ للفتيان فاتحة الكتاب، فجعله الكاتب بناء على ذلك من شيوخ الأزهر الأجلاء! انظر السر الرباني، ص ٦ - ٧.
ومن جانب آخر يغلب على ظني أن اسم هذا الكاتب، السيد الحسيني، ليس باسمه الحقيقي، ومن عادة بعض المنجمين أن يطلقوا على أنفسهم اسما فخما يوحي بالأهمية والغموض، فصاحب الموسوعة التي أحلت عليها أحيانا، أعني موسوعة فنون التنبؤ، اسمه في الكتاب: الأستاذ الأكبر بيلين! فقط.

والمنجم، ولكنه تدليس مقصود.

ومن مظاهر مهارة المنجمين قدرتهم على تحويل أي كشوفات علمية قد تشكك في التنجيم إلى كشوفات لصالحه؛ فهم يعلمون الجمهور أن العلم غير ثابت، ينقض اليوم ما أثبته في الأمس، ويقرر اليوم ما كان مستحيلا قبله، فلا يستقر على حال.. ولذلك سينتهي العلم - في العاجل أو في الآجل - إلى الاعتراف التام بالتنجيم. وهذا ما يفسر عندي ملاحظة كوديرك أنه يوجد تناقض غريب في هذا الموضوع، إذ يبدو أن التنجيم يزدهر أكثر في أزمنة التطورات والتقلبات العلمية الكبيرة[١]. يعني كأنها تضعف ثقة الجمهور بثبات العلم واستقرار قواعده ونتائجه.

وقد لاحظت في قراءاتي في مختلف كتب هذا الفن أن المنجمين يكيفون التنجيم مع كل وضع وحال، فله في الوثنية مسوح خاص به، وهو تحت النصرانية مختلف، ولذلك تجد أن بابوس - وهو يكتب في التنجيم والباطنية - يرى التثليث في كل شيء. أما في الإسلام، فلا أحد يقول بألوهية الكواكب، ولكنهم يقولون هي وسائط الفعل والتأثير، وقد يطلقون على الأفلاك اسم الملائكة. لذلك يقول أبو القاسم عيسى عن المنجمين: «لم يمكنهم أن يقيموا بين أرباب الملل إلا بالتستر بهم ومنافقتهم والتزيي بزيهم ظاهرا»[٢].

٤- والمنجم إذا أعيته الحيلة وظهر كذبه أو خطؤه، لجأ إلى الاعتذار بقصور العلم: التنجيم - كسائر العلوم - فيه نواقص وثغرات، ولذلك فهو عرضة للخطأ[٣]. أو يقول إن سبب الخطأ يكمن في نقص في المعلومات التي قدمت له لوضع الطالع الفلكي. أو أنه يحتمل أن توجد كواكب أخرى مؤثرة[٤].

---

(١) L'astrologie, p 40.

(٢) في رسالته عن التنجيم والتي نقلها ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٦. صاحب الرسالة هو - فيما بدا لي -: عيسى بن علي بن عيسى أبو القاسم، المعروف بابن الجراح. من أهل بغداد، وبها مات سنة ٣٩١هـ. كاتب عارف بعلوم الأوائل، عمل بديوان الخليفة العباسي الطائع لله. وكان على معرفة ببعض اللغات الأجنبية. وهو قليل التأليف، مع سعة علمه. وكان قد اتهم بشيء من مذهب الفلاسفة كذا في الأعلام، للزركلي، ٥/ ٢٩٠. وابن القيم لم يذكر عنه شيئا سوى أنه كان مائلا إلى التنجيم، ثم تركه. فالغالب أنه هو.

(٣) L'astrologie, p 69. وقارن بـ: المعلم شرح مسلم، للمازري، ٣/ ١٠٦.

(٤) L'occultisme devant la science, p 42.

وقد يكون أصل الخطأ من المنجم نفسه: «قد يغفل . . المنجم اعتبار حركات كثيرة من أجرام مختلفة، لأنه يعجز عن نظمها وتقويمها ومزجها وتسييرها وتفصيل أحوالها وتحصيل خواصها مع بعد حركة بعضها وقرب حركة بعضها وبطئها وسرعتها وتوسطها والتفاف صورها والتباس تقاطعها وتداخل أشكالها»(١). فالعلم أوسع من أن يحاط به، وعلى كل حال فالمنجم «ما هو بنبي حتى يصدق في كل ما يقول»(٢).

بل ربما نسبوا الخطأ للنجوم نفسها، فهي التي تعمدت أن يخطيء المنجم، وجعلت ذلك في طالعه الفلكي!(٣).

وإذا لم يكن السبب في الخطأ لا هذا ولا ذاك، فهو خطأ بشري محض لا يختص بالتنجيم، كما قال حسن الشارني حين ووجه بفشل تنبؤاته: «لا ننسى بأن المنجم هو بشر، ويخضع لضغوطات نفسية، وله حياة خاصة، وله مشاكل. . . في معظم الأحيان يقع تأويل موقع كوكب ما بطريقة أو بأخرى، ولهذا هناك الكثير من المرات التي لا يصيب المنجم في تأويله للأحداث. . . ﴿وَلِذَالِكَ﴾ يمكن أن تقع إجابات - لا أقول فاشلة - بل لا تدل على المقصود»(٤).

فالخلاصة - كما قال المازري - أن معاذير المنجمين لا تفرغ(٥). وقد بين إمامهم بطليموس بعض أسباب الخطأ، ثم قال: هل نرد علما كاملا وراقيا، فقط لأنه يخطيء أحيانا(٦).

٥- أسلوب التبري: وقد يجد المنجمون أن أفضل طريقة لمحو آثار تنبؤات فاشلة هو التبري من بعض زملائهم، فتراهم يشتكون من أن المهنة دخلها الدجالون الذين يشوشون على المنجمين الحقيقيين ويشوهون حقيقتهم الصادقة، فليس

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٩٨.

(٢) رسالة عيسى أبي القاسم في التنجيم، ص ٤٨٨.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٨، ص ٥٠٤.

(٤) جريدة العلم، ٢٠ أبريل ١٩٩٨. والشارني منجم تونسي يقدم نفسه بالمنجم الذي تنبأ بمقتل الأميرة الانكليزية ديانا في حادث سيارة بباريس يوم ١٩٩٧/٠٨/٣١.

(٥) المعلم، ١٠٧/٣. والمازري هو أبو عبد الله محمد بن علي التميمي (٥٣٦هـ)، نسبته إلى مازر بصقلية، عاش بإفريقية، وهو فقيه مالكي. عن الأعلام للزركلي، ٧/ ١٦٤.

(٦) Tétrabible , p 11 - 12

الخطأ في التنجيم، بل في بعض من ينسب نفسه إليه دون حق[١]. ولذلك يميز نيرومان بين التنجيم الحقيقي والعقلاني وبين التنجيم الآخر الذي سماه بالهابط أو الدنيء[٢].

٦- وهناك سبب آخر، ولعله أهم الأشياء التي تعلل بقاء التنجيم حيا إلى عصرنا هذا، وهو الفراغ النفسي والروحي للإنسان الحديث، وحاجته إلى عقيدة غيبية تربطه بالكون كله. والتنجيم شأن خاص، فهو يتحدث إليك وعنك.

على أن بعض الناس صادقون فعلا في اعتقادهم في التنجيم واشتغالهم به. ولا أتفق مع بول الذي لا يرى فيمن كتب عن التنجيم أو دافع عنه أو دعا إليه أو مارسه... غير جماعة من المشعوذين والدجالين. وسيأتي تعليل هذا الأمر.

الختم بقصة:

وهي معبرة عن بعض أحوال المنجمين، وذكاء بعضهم، وضيق الناس منهم أحيانا:

يحكى أن الملك لويس الحادي عشر استقدم منجما شهيرا، ونوى أن يفتك به، وكان المنجم على علم بذلك. ثم طلب الملك منه أن يثبت معرفته وعلمه بتحديد مستقبله هو، أي المنجم. فلما وقع في يده، وعرف أنه لا سبيل إلى علم ما في غد اهتدى إلى هذه الحيلة: قال المنجم للملك إنه لا يعرف مصيره الشخصي على وجه الدقة، ولكن علمه أنبأه أن مصيره مرتبط بمصير الملك، بحيث إن موت أحدهما يتبعه لا محالة موت الآخر، وخلال ساعات فقط. ارتعب الملك من هذا الجواب الذكي الذي لم يكن ينتظره، ورأى أنه من الأسلم ترك المنجم لحال سبيله، بل حرص على ضمان أمنه في سفره للعودة إلى بلده[٣].

---

(١) L'astrologie, p 69.

(٢) La fausse science devant l'occultisme, p 111 - 112 والكاتب Dom Neroman مهندس، ومنجم، وكان في الخمسينيات مديرا لمجلة أسبوعية اسمها «قدرك» Votre Destin. له كتب منها: الكواكب والآلهة. النجوم والأقدار. المبشرات والنذر الزاجرة في ضوء قوانين التطور. روح النجوم. دروس أفلاطون... وأشرف على الموسوعة الكبرى المصورة للعلوم الخفية. وكتابه هذا هو رد على كتاب بول السابق: L'occultisme devant la science

(٣) عن: L'occultisme devant la science, p 41

الفصل الرابع

أدلة المنجمين وشبهاتهم من القرآن والحديث

من أهم أدلة أهل التنجيم على صحة مذهبهم:

أساس التنجيم فكرة تقول إن الإنسان صورة للكون وانعكاس له، وكل شيء في العالم يتناغم مع وجوده وينسجم معه(١).

وأهم دليل يذكره المنجمون - من قديم - في مقام الاستدلال على صحة هذا الفن هو ما ثبت بالتجربة والمعاينة من أثر بعض النجوم والكواكب على الأرض وحياة الإنسان، فالشمس مصدر النور والضياء، وهي المسؤولة عن الفصول الأربعة وتواليها المنتظم، وأثرها على النبات لا يخفى. والقمر يحدث حركة المد والجزر في البحار، وبه علم الإنسان عدد السنين والحساب.

يقول توكر: إذا سلمنا بالأثر الفيزيائي للشمس، فلا بد أن نسلمه لسائر النجوم والشموس، وكل جسم مضيء فهو شمس، ولا يمكن أن نعترف بأثر نجم دون آخر، فهذا تحكم لا يصح. فلا بد أن يكون لكل كوكب أثره على الأرض والإنسان، ولو كان ضعيفا(٢).

وإذا كان للكواكب هذه الآثار الفيزيائية المباشرة على حياتنا، فما المانع أن تكون لها أيضا آثار أخرى على سلوكاتنا وأجسامنا وشؤوننا كلها. يقول نيرومان: إن حركة المد والجزر - التي يحدثها القمر - يمكن أن تتسبب ليس فقط في اضطراب البحار، بل حتى في اضطراب جداول المياه، بل وفي الماء الذي نحمله

---

(١) L'occultisme du zodiaque, p 28.

(٢) Principes d'astrologie scientifique, p 33.

في أنسجتنا ودمائنا. وهذا ما يفسر التأثير المرضي للقمر على صحة الإنسان[١].

ثم إن المنجمين السابقين «امتحنوا عدة مواليد صححوا طوالعها، وجماعة مسائل راعوها، فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة، فدلهم ذلك على أن الأصول التي عملوا عليها صحيحة»[٢]. لقد اختبر القدماء قواعد التنجيم فوجدوها سليمة، واستغرق هذا قرونا من الزمن.

ومما يدل على صحة التنجيم أن علماء كبارا اشتغلوا به، ومنهم كبلر، ومقامه في فيزياء الفلك معروف[٣].

ويدل على صواب التنجيم كذلك تاريخه الطويل، فهو «علم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم، ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة إلا وكان أهل ذلك الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعولين عليه في معرفة المصالح، ولو كان هذا العلم فاسدا بالكلية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب ـ من أول بناء العالم إلى آخره ـ عليه.»[٤]

الاستدلال على التنجيم على «الطريقة الإسلامية»:

وقد ذكر ابن القيم هذه الأدلة في أحد كتبه[٥]، وهذا ملخصها:

أولا: ما يتعلق بالقرآن الكريم:

١ ـ في القرآن آيات دالة على تعظيم الكواكب. منها قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أول سورة الطارق. وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٥٤ .

٢ ـ وقد أقسم الباري بالنجوم في مواضع من كتابه، وهذا يدل على غاية جلال مواقع النجوم ونهاية شرفها. قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ

---

(١) La fausse science devant l'occultisme, p106 سيأتي في فصل النقد تفصيل الكلام في هذا الدليل الرئيسي للمنجمين، ولعله الوحيد.

(٢) رسالة عيسى أبي القاسم، ص ٥٠٥ في مفتاح دار السعادة.

(٣) Quelques sciences captivantes, p 209. و Johannes Kepler (١٦٣٠)، فلكي ألماني، اكتشف قوانين دوران الأفلاك حول الشمس.

(٤) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٩.

(٥) راجع مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٦ إلى ٥٠٨.

لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة ٧٥ . وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ التكوير ١٥ .

٣ ـ ودلت آيات أخرى على أن للكواكب تأثيرا في العالم، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ النازعات.٥ وقوله: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ الذاريات ٤، فقد قال بعضهم المراد بها هذه الكواكب.

٤ ـ وبينت آيات أخرى أنه تعالى وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يونس ٥ . وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ الفرقان ٦١ .

٥ ـ ثم إن إبراهيم عليه السلام تمسك بعلم النجوم، كما حكى تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ الصافات ٨٨ . وقال أيضا: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾(1) . الأنعام ٧٤ إلى ٨٠ .

٦ ـ وقد حكى تعالى في القرآن أن فرعون كان يذبح بني إسرائيل ويستحيي نساءهم. وقال المفسرون إن ذلك كان لأن المنجمين أخبروه بأنه سيجيء ولد من بني إسرائيل ويكون هلاكه على يده.

٧ ـ وقد وصف الله سبحانه بعض الأيام بالنحس، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فصلت ١٦ .

ثانيا: ما يتعلق بالحديث

أ ـ ففي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر، فقال: استعيذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب». وفي

(١) رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥. مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٦، ٥٠٧. السر الرباني، ص ١٣٨.

رواية: «أخذ بيدي، ثم نظر إلى القمر، فقال: يا عائشة، تعوذي بالله من هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»[١].

ب ـ عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب. فقال رسول الله: بعثت هذه الريح لموت منافق. فلما قدم المدينة، فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات[٢].

ج ـ حديث الكسوف، فإنه لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ انكسفت الشمس، فقال الناس ذلك لموته، فقال الرسول ﷺ: الشمس والقمر آيتان لله، لا تنكسفان لموت أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة[٣].

د ـ وفي حديث آخر: لا تسافروا والقمر في العقرب[٤].

هـ ـ وقد نهى النبي ﷺ عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر[٥].

و ـ وتقدم في تاريخ التنجيم، في الكلام عن الروم، أن هرقل استنبط قرب ملك العرب من نظره في النجوم.

ثالثا: الآثار عن الصحابة والتابعين:

وأهم من نسب إليه الإقرار بالتنجيم من الصحابة: علي وابن عباس، رضي الله عنهما. وذكروا أن رجلا أتى عليا، وقال له: إني أريد الخروج في تجارة، وكان

---

(١) رواه أحمد في مسند عائشة، في مواضع، منها ٦/ ٢١٥. والترمذي في كتاب التفسير من سننه، في تفسير المعوذتين، وقال حسن صحيح. قال السخاوي: أخرجه الترمذي عن عائشة وصححه من طريقها، وبه ينتقد تضعيف النووي له. عن: «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»، ص ٥٥ ومعنى وقب أظلم، أو دخل في الخسوف، أو في الغيبوبة.

(٢) رواه مسلم في الصحيح، في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٧٨٢.

(٣) حديث الكسوف من أصح الأخبار، وقد توارد الأئمة على تخريجه في كتبهم، منهم أصحاب الكتب الستة، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند... وأكثرهم يخرجه في كتاب مستقل -أو باب- هو الكسوف، أو في الاستسقاء، أو في أبواب الصلاة على العموم.

(٤) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة»، ص ٤٦٠، حديث ١٢٨٩، وقال إنه يروى أيضا من قول علي رضي الله عنه.

(٥) أورد هذه الأدلة من الحديث ابن القيم في مفتاح دار السعادة عن بعض من انتصر للتنجيم، ص ٥٠٥. وذكر الخطيب بعضها في: القول في علم النجوم، في مواضع مفرقة.

ذلك في محاق الشهر، فقال له: تريد أن يمحق الله تجارتك، استقبل هلال الشهر بالخروج[١].

وذكر الخطيب ـ بإسناده ـ أن عكرمة مولى ابن عباس سأل رجلا عن حساب النجوم، وجعل الرجل يتحرج أن يخبره، فقال عكرمة سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه، وددت أن علمته[٢].

ونسب المنجمون إلى ميمون بن مهران ـ وهو من ثقات التابعين توفي سنة ١١٦هـ ـ أنه قال: إياكم والتكذيب بالنجوم، فإنه علم من أعلام النبوة[٣].

وقال المنجمون أيضا: إن الإمام الشافعي كان عالما بالنجوم، وقد حكم لولد بعض جيرانه أنه يكون كذا، فوجدوه كما قال[٤]. وهذا أبو عبد الله الحاكم صنف كتابا في مناقب الشافعي، وذكر من علوم الإمام: الباب الرابع والعشرين في معرفته تسيير الكواكب من علم النجوم. أورد فيه ثلاث حكايات عن الشافعي تدل على تصحيحه لأحكام النجوم[٥].

في إبطال هذه الشبهات:

كلامي في هذه الصفحات هو في رد استدلالات المنجمين بالنصوص والآثار. أما الكلام في غيرها فسيأتي في المبحث السادس.

ما يتعلق بالقرآن:

١، ٢ ـ أما ما يخص النجوم وعظمتها والاستدلال بها فموضعه الفصل الخامس الذي بعد هذا.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٨.
(٢) رواه الخطيب البغدادي في «القول في علم النجوم»، ص ١٨٧ إلى ١٨٩. وذكر المحقق أن السيوطي أورد هذا الأثر في الدر المنثور -٣/ ٣٥ـ، ونسبه إلى الخطيب، وكذلك أورده الزمخشري في ربيع الأبرار، ١/ ١١٧. وأكثر رجال سند الخطيب مابهم بأس، بحسب ما ساقه المحقق من ترجماتهم. وانظر الجامع لأحكام القرآن، ٢٥/ ٦٢، الصافات ٨٨. وعكرمة بن عبد الله، بربري، من أجل تلامذة ابن عباس في علم التفسير. توفي عام ١٠٥هـ. الأعلام، ٥/ ٤٣.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٨.
(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٨.
(٥) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٠.

٣ ـ قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾: لم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بالتفسير إنها النجوم.. بل قالوا هي الملائكة تدبر أمور الدنيا. ولم يذكر المتوسعون في نقل أقوال المفسرين غير الملائكة. فتفسير المدبرات بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين. وكذلك ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ لم يقل أحد من أهل التفسير العالمين به إنها النجوم، بل قالوا: هي الملائكة التي تقسم أمر الملكوت بإذن ربها، من الأرزاق والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح والجبال[١].

٤ ـ القرآن واضح في الدلالة على فوائد النجوم من توفير النور والمساعدة على ضبط الحساب.. ونحو ذلك. لكن ليس في الآيات المحتج بها أنها مسؤولة عن السعادة والشقاء، أو أنها تهب وتمنع. وأين هذا في نحو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[٢].

٥ ـ سيأتي الكلام عن الخليل عليه السلام قريبا.

٦ ـ قال ابن القيم: «وأما ما احتج به من أن فرعون كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، لأن المفسرين قالوا كان ذلك بأن المنجمين أخبروه بأنه سيجيء في بني إسرائيل مولود يكون هلاكه على يديه، فأكثر المفسرين إنما أحالوا ذلك على خبر الكهان. وروى بعضهم أن قومه أخبروه بأن بني إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكك على يديه. وهاتان الروايتان هما الدائرتان في كتب المفسرين، وأما هذه الرواية أن المنجمين قالوا له ذلك فغايتها أنها من أخبار أهل الكتاب، وقد خالفها غيرها من الروايات، فكيف يسوغ التمسك بها في الأمر العظيم. وفي أخبار الكهان ما هو أعجب من ذلك فقد أخبروا بظهور خاتم الرسل محمد ﷺ قبل ظهوره، وذلك موجود في دلائل النبوة. ونحن لا ننكر علم تقدمة المعرفة بأسباب مفضية إليه تختلف قوى الناس في إدراكها وتحصلها، وإنما كلامنا معكم في أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التي تسندونها إليها»[٣]. فحاصل هذا الرد أن

---

(١) مفتاح دار السعادة، ٥١٣ ـ ٥١٤.

(٢) مفتاح دار السعادة، ٥١٥.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥.

الإخبار بمولد موسى عليه السلام لم يكن من عمل المنجمين، بل هو من عمل الكهان، وهؤلاء قد يصيبون أحيانا، لكن لا بطريق التنجيم.

٧ ـ فسر عبد الله بن عباس آية ﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، بأنها متتابعات، وقال الضحاك: شديدة البرد. وعلى القول بأن الأيام النحسات هي المشائيم، فلا دلالة في ذلك على شيء من أصول التنجيم. قال ابن قيم الجوزية: «لا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياما نحسات عليهم. . وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين. فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين. . واليوم يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة، كما كان يوم بدر. . ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحسا على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحسا لطائفة سعدا لطائفة، فهذا هو المحال»[١].

وجدير بأيام نزل فيهن عذاب الله تعالى أن تسمى نحسات، وليس للكوكب دخل في هذا العذاب، بل هو أمر الله تعالى يصيب به الظالمين. ثم إننا نصف يوما، فنقول هذا يوم مبارك، وإنما نعني أن الله سبحانه بارك لنا فيه، في أعمالنا وأرزاقنا. . فهذه مسائل لغوية لا ينبغي تحميلها بأكثر مما تحتمل.

ما يتعلق بالحديث:

أ ـ قال الخطيب ـ في حديث الاستعاذة بالله من القمر ـ : المعنى «تعوذي بالله من شره في تلك الحال؛ لأن أهل الفساد ينتشرون في الظلمة، ويتمكنون فيها مما لا يقدرون عليه في حال الضياء، فيقدمون على العظائم، ويجترئون على انتهاك المحارم، فأضاف النبي ﷺ فعل أهل الفساد في تلك الحال إلى القمر؛ لأن سبب ذلك الفعل: كسوفه، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا كان سببا له»[٢]. وقال ابن العربي: «وجه إضافة الشر إلى القمر ما يحدث عنده من فعل الله، فهو علامته ووقته، فأضيف إليه كسائر إضافة الأسباب إلى مسبباتها. وقال بعضهم معنى هذا الشر انتشار الحيوانات عنده، فعم. . ولعل الله يحدث عنده شرا لم يعلم به، فأمر

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٤. والضحاك بن مزاحم البلخي، مفسر من التابعين، توفي عام ١٠٥هـ. الأعلام، ٣/ ٣١٠.

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٧١ ـ ١٧٤.

بالاستعاذة. وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من شر ما لم يعلم»[١].

فهذا مجاز من باب إضافة الشيء إلى زمن ما. والمعنى التحذير من فترة الليل، لأنها مظنة للشر من فعل آدمي أو حيوان، لا أن للقمر نفسه ضرا أو نفعا. قال سيد قطب: «المقصود هنا غالبا هو الليل وما فيه، الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته، فضلا على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم، ومتلصص فاتك يقتحم... ومن وساوس وهواجس.. تتسرب في الليل...»[٢] قلت: لعلك إذا وضعت منجما في قلب أدغال الأمازون ليلا، فهم جيدا معنى الاستعاذة في الحديث، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

ب ـ أما حديث هبوب الريح لموت منافق كبير، فقد أجاب عنه الخطيب أيضا بأنه «يجوز أن يكون الله ـ تعالى ـ عرف نبيه ﷺ أنه إذا هبت ريح في يوم كذا، فاعلم أني أميت فلانا، وكفيتك أمره، فيكون قول النبي ﷺ هذا لما تقدم من إخبار الله ـ تعالى ـ إياه ذلك»[٣].

وقال النووي: بعثت هذه الريح لموت منافق، أي عقوبة له وعلامة لموته وراحة للبلاد والعباد منه[٤].

ج ـ أما حديث الكسوف ففيه تفصيل سيأتي في نظرة الدين إلى بعض الظواهر الفلكية. وهو حجة على التنجيم لا له.

د ـ أما حديث النهي عن السفر، إذا كان القمر في برج العقرب، فقد قال عنه ابن تيمية: كذب مختلق باتفاق أهل الحديث[٥].

(١) عارضة الأحوذي، شرح سنن الترمذي، ١٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢. والمؤلف هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، الإشبيلي المالكي، عالم مشارك في أنواع من العلوم. توفي سنة ٥٤٣هـ. انظر الأعلام، للزركلي ٧/ ١٠٦.

(٢) في ظلال القرآن، ٨/ ٧٠٩. وانظر: مفاتيح الغيب، ٣٢/ ١٩٠ ـ ١٩١، عند قوله تعالى في سورة الفلق: (ومن شر غاسق إذا وقب). وسيد كاتب ومفكر إسلامي من مصر، له كتب كثيرة، توفي سنة ١٩٦٦.

(٣) القول في علم النجوم، ص ١٧٤.

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٧/ ١٢٧. كتاب صفات المنافقين. والنووي هو يحيى بن شرف، المحدث والفقيه الشافعي، عاش بدمشق، توفي ٦٧٦هـ. الأعلام، ٩/ ١٨٤.

(٥) الفتاوى، ٣٥/ ١٧٩.

قال ابن القيم: «والذي أوجب للمنجمين كراهة السفر، والقمر في العقرب، أنهم قالوا: السفر أمر يراد لخير من الخيرات، فإذا كان الوصول إلى ذلك الأمر أسرع كان أجود، فينبغي على هذا أن يكون القمر في برج منقلب، والعقرب برج ثابت، والثوابت عندهم تدل على الأمور البطيئة. قالوا: وأيضا البرج للمريخ، والمريخ عندهم نحس أكبر.. أيضا فإن هذا البرج هو برج هبوط القمر، وإذا كان الكوكب في هبوطه لا يلتئم لصاحبه ما يريده ويقصده، بل يكون وبالا عليه، لأن الكوكب الهابط عندهم كالمنكس.. وبالجملة فإن العقرب عندهم شر البروج.. وليس ذلك مخصوصا عندهم بالسفر وحده، بل يكرهون جميع الابتداءات والاختيارات والقمر في العقرب»[١].

هـ ـ قال ابن القيم: «وأما استدلاله بأن النبي ﷺ نهى عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما، فكأنه والله أعلم لما رأى بعض الفقهاء قد قالوا ذلك في كتبهم في آداب التخلي: ولا تستقبل الشمس والقمر، ظن أنهم إنما قالوا ذلك لنهي النبي ﷺ عنه، فاحتج بالحديث. وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي ﷺ لم ينقل عنه ذلك في كلمة واحدة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مرسل ولا متصل، وليس لهذه المسألة أصل في الشرع، والذين ذكروها من الفقهاء منهم من قال: العلة أن اسم الله مكتوب عليهما، ومنهم من قال: لأن نورهما من نور الله، ومنهم من قال: إن التنكب عن استقبالهما واستدبارهما أبلغ في التستر وعدم ظهور الفرجين»[٢].

وإنما المحفوظ في أحاديث النبي ﷺ أنه نهى أن تستقبل القبلتين ببول أو غائط[٣]. ورغم ذلك توجد أحاديث ظاهرها الجواز، فاحتاج العلماء إلى التوفيق والجمع بين أحاديث النهي عن استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، وبين أحاديث جواز ذلك وجواز استدبارها[٤].

ثم لو صح ما يقوله المنجمون من استنباط تعظيم الكواكب من مجرد النهي عن

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٦.
(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٢٦.
(٣) رواه أحمد في المسند عن معقل الأسدي، وأبو داود وابن ماجه. كما في الجامع الصغير، ٢/ ٧٠٥.
(٤) راجع إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ١/ ٥٦، أو غيرها من كتب فقه الحديث.

استقبال بعضها في التخلي، لكانت الكعبة المشرفة أولى بنسبة التأثير والفعل إليها، مع وجود الأحاديث الصحيحة الناهية عن استقبالها عند قضاء الحاجة.

و ـ قال ابن حجر في خبر نظر هرقل في النجوم: «فإن قيل كيف ساغ للبخاري إيراد هذا الخبر المشعر بتقوية أمر المنجمين والاعتماد على ما تدل عليه أحكامهم؟ فالجواب أنه لم يقصد ذلك، بل قصد أن يبين أن الإشارات بالنبي ﷺ جاءت من كل طريق وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم محق أو مبطل إنسي أو جني، وهذا من أبدع ما يشير إليه عالم أو يجنح إليه محتج»(١).

ثم إن هذا الخبر هو من كلام صاحب هرقل، وهو ابن الناطور أمير إيلياء، وليس بكلام عبد الله بن عباس، أو مثله ممن يحتج به. وهذا واضح من سياق القصة في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري.

الرد على احتجاجهم بالآثار:

الأثر عن علي لا يعلم ثبوته، «والكذابون كثيرا ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها إلى علي وأهل بيته، كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والهفت والكميان والملاحم وغيرها، فلا يدري ما كذب على أهل البيت إلا الله سبحانه»(٢).

وعلى فرض صحته فلعله من باب قول النبي ﷺ: اللهم بارك لأمتي في بكورها(٣). وقد عرف بالتجربة أن ابتداء العمل في أول النهار أجدى(٤).

وقد روي عن علي رضي الله عنه عكس هذا، فحين عزم على الخروج لحرب الخوارج اعترضه أحد المنجمين، وهو مسافر بن عوف، وقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فرفض ذلك

---

(١) فتح الباري، ١/ ٦٠ ـ ٦١. وابن حجر العسقلاني هو أبو الفضل أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، أصله من فلسطين، وعاش بالقاهرة، وهو حافظ الإسلام في القرون الأخيرة. الأعلام، ١/ ١٧٣.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٧.

(٣) في الجامع الصغير، ١/ ٤٨٨: رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة. وضعفه السيوطي. وهذا بلفظ بورك لأمتي في بكورها. أما باللفظ الذي في المتن، فقد رواه أحمد في المسند، وابن حبان في الصحيح، وأبو داود، والنسائي والترمذي وابن ماجه، كلهم عن صخر الغامدي. والطبراني في المعجم الكبير عن صحابة آخرين. وهو حديث صحيح كما في الجامع الصغير، ١/ ٢١٦.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨.

علي، وقال: بل أخرج ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لقولك. ثم خطب الناس، وكان من جملة ما قال: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده[١].

أما خبر عكرمة عن ابن عباس فقد أجاب عنه الحافظ البغدادي بقوله: «الذي سأله عكرمة عنه إنما كان من الضرب الأول الذي كانت العرب تختص به، فظن الرجل أنه محظور لما سمع التغليظ الوارد في علم النجوم، وحسب أنه على العموم»[٢].

ويعني بالضرب الأول من علم النجوم ما نسميه اليوم بعلم الفلك، وعلم الطقس، أي شؤون الكواكب في مقاديرها وحركاتها واتجاهاتها، ومواقيت المطر، واتجاهات الرياح، ونزول الحرارة أو البرد. . .ونحو ذلك مما يعرف بالتجربة ولا يستند فيه إلى التنجيم المحض. وقد استدل الخطيب على هذا بأن المروي عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ إنما هو النهي عن التنجيم لا تقريره، فمن ذلك الحديث الذي رفعه إلى النبي ﷺ، وفيه التغليظ على من اقتبس علما من النجوم، وسيأتي قريبا. ومن أقوال ابن عباس الخاصة: إن قوما ينظرون في النجوم. .وما أرى للذين يفعلون ذلك من خلاق. وقال أيضا لابن مهران: أوصيك بتقوى الله، وإياك وعلم النجوم، فإنه يدعو إلى الكهانة[٣].

وما يروونه عن ميمون بن مهران ليس له سند معروف، فلا تصح نسبته إليه. ثم إن الحجة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه، لا في قول تابعي أو رأيه. ولو صح ما ذكروه عن ابن مهران فما يدريهم أي شيء قصد بالنجوم: هل هو التنجيم فعلا، أم علم الفلك وأحوال الجو. . وقد عرفت أن كليهما يسمى بالنجوم، وأن هذا مصدر خلط أحيانا، فيحتاج فيه إلى احتياط زائد.

أما ما نسب إلى الشافعي من قصص تدل على تصحيحه للتنجيم، فقد أجاب عنه ابن القيم بأجوبة حاصلها ثلاثة:

---

(١) أخرجه الخطيب في «القول في علم النجوم»، ص ١٨١ فما بعدها. وفي القصة بعض الطول والاختلاف بين الرواة، وقد لخصت ما نحتاج إليه منها. وأوردها أيضا ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٥، ٥٣٦. وذكر محقق كتاب الخطيب ص١٨٤ بالهامش ـ أن هذا الخبر أيضا أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «بغية الباحث»، وأبو الشيخ في كتاب «العظمة».

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٨٩.

(٣) راجع هذه الروايات عن ابن عباس في: «القول في علم النجوم»، ص ١٨٩ إلى ١٩١.

١ ـ الثابت الصحيح عن الشافعي العربي أنه كان علم بما كانت تعرفه العرب من الأنواء ومنازل الكواكب وكيفية الاهتداء بالنجوم. قال ـ في آية: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ ـ: كانت العلامات جبالا يعرفون مواضعها من الأرض، وشمسًا وقمرًا ونجمًا مما يعرفون من الفلك، ورياحًا يعرفون صفاتها في الهواء، تدل على قصد البيت الحرام[1].

٢ ـ أما الحكايات التي رواها الحاكم فثلاثة، الأولى من طريق محمد بن عبد الله البلوي، كذاب وضاع. والثانية فيها انقطاع في موضعين من السند. والثالثة كذلك. فلا يصح من هذه الأخبار شيء[2]. قلت: وقد اعتاد العلماء التساهل في أبواب المناقب، وهي مظنة للضعيف والمنكر والموضوع.

٣ ـ والغالب ـ إن حسنت نية النقلة ـ أنهم أخطئوا في هذه الأخبار عن الشافعي، فجعلوها من التنجيم، وإنما هي من باب الفراسة. قال ابن القيم: «الذي عندي في هذا أن الناقل إن أحسن به الظن، فإنه غلط على الشافعي. والشافعي كان من أفرس الناس، وكان قد قرأ كتب الفراسة، وكانت له فيها اليد الطولى، فحكم في هذه القضية وأمثالها (يعني حكايات الحاكم) بالفراسة، فأصاب الحكم، فظن الناقل أن الحكم كان يستند إلى قضايا النجوم وأحكامها. وقد برأ الله من هو دون الشافعي من ذلك الهذيان، فكيف بمثل الشافعي رحمه الله في عقله وعلمه ومعرفته»[3].

فالخلاصة إذن أنه لم يثبت عن السلف اعتراف بالتنجيم أو اشتغال به، فهذا كما رأينا في فصل التاريخ شيء حدث في آخر القرن الثاني. وكما قال ابن القيم:

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٠.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢. الحكاية الأولى هي القصة المشهورة في سؤال هارون الرشيد للشافعي عن علومه، وآثار الوضع والصنعة فيها بادية. وهذا نموذج من روايات الحاكم التي ذكرها بعضهم في الانتصار للتنجيم، وهي الحكاية الثانية: «قال الحاكم أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال: حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة قال: كان الشافعي يديم النظر في كتب النجوم، وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت، فقال: إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما، ويكون في فخذ الولد الأيسر خال أسود، ويعيش أربعة وعشرين يوما، ثم يموت. فجاءت به على النعت الذي وصف، وانقضت مدته فمات. فأحرق الشافعي بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها». عن كتاب ابن القيم.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢.

ما «كان النبي ﷺ وأصحابه يعولون على هذا العلم ويعتمدون عليه في مصالحهم، أو قرن التابعين أو قرن تابعي التابعين، وهذه هي خيار قرون العالم على الإطلاق كما أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس...

فهل رأيت خيار قرون هذه الأمة والموفقين من خلفائها وملوكها وساداتها وكبرائها معولين على هذا العلم أو معتمدين عليه في مصالحهم وهذه سيرهم ما بعهدها من قدم ولا يتأتى الكذب عليهم، هذا وقد أعطوا من التأييد والنصر والظفر بعدوهم والاستيلاء على ممالك العالم ما لم يظفر به أحد من المعولين على أحكام النجوم»(١).

نسبة التنجيم إلى الأنبياء وعلومهم:

وقال المنجمون أيضا إن علمهم هذا ورثوه عن النبوة، فتارة نسبوه إلى آدم عليه السلام، وقالوا قد عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألفا من أهل بيته، وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم عليه، فأكرمه الله تعالى بهذا العلم، وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب فيقف على حالته(٢). وتارة قالوا بل هو من علم إدريس عليه السلام، وذكروا أن اسمه عند الأمم القديمة هو هرمس. وربما نسبوا التنجيم إلى إبراهيم الخليل، وإلى النبي الإسرائيلي يوشع بن نون، ويروون عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل إن كان لعلم النجوم أصل فقال نعم، وذكر أن قوم يوشع قالوا له لن نؤمن لك حتى تعلمنا بدء الخلق وآجاله، فأجابهم الله تعالى إلى ذلك وعرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار... وبقي هذا العلم في بني إسرائيل حتى زمن داود عليه السلام، فدعا الله تعالى فحبست الشمس، فزاد النهار، واختلطت الزيادة بالليل، فاختلط عليهم الحساب. قال علي: فمن ثم كره النظر في النجوم(٣). وقيل بل الذي دعا برفع هذا العلم هو عيسى عليه السلام، وكان لا يزال باقيا إلى عهده(٤).

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٨.

(٣) في رواية طويلة ذكرها الخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٩٨ ـ ١٩٩. وقد اختصرتها ما أمكن. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٦٢، الصافات ٨٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

والقول بنسبة التنجيم إلى النبي الكريم إدريس عليه السلام أكثر وأشهر.

والواقع أن القول بأن التنجيم من الأنبياء أمر يحتاج إلى دليل، «ومثل هذا لا يعلم إلا بالنقل الصحيح، ولا سبيل لهذا القائل إلى ذلك»[١].

وهذه كتب اليهود والنصارى أقرب عهدا، ومع ذلك حرفت وزيد فيها وأنقص، واختلط فيها الحق بالباطل، فما بالك بما تركه إدريس عليه السلام[٢]، إن كان قد ترك شيئا.

قال ابن تيمية: «هذا إن كان أصله مأخوذا عن إدريس فإنه كان معجزة له، وعلما أعطاه الله إياه، فيكون من العلوم النبوية. وهؤلاء إنما يحتجون بالتجربة والقياس؛ لا بأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٣].

والتنجيم جزء من السحر، أو هو قريب منه، «ومن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء كان ساحرا. وهم يذكرون أنواعا من السحر، ويقولون: هذا يصلح لعمل النواميس، أي الشرائع والسنن. ومنها ما هو دعاية الكواكب، وعبادة لها، وأنواع من الشرك الذي يعلم كل من آمن بالله ورسوله بالاضطرار أن نبيا من الأنبياء لا يأمر بذلك ولا علمه، وإضافة ذلك إلى بعض الأنبياء كإضافة من أضاف ذلك إلى سليمان عليه السلام، لما سخر الله له الجن والإنس والطير، فزعم قوم أن ذلك كان بأنواع من السحر»[٤].

ثم قد تقرر في العقيدة بوضوح أن الأنبياء لا يعلمون الغيب الذي استأثر الله به، ولا يدعونه. ولذلك يقول ابن سينا: إن الأنبياء لهم رسالة واحدة، فهم لا يتناقضون فيما بينهم، ونبينا أخبرنا بأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وأخبرنا أنه يخشى على أمته الاعتقاد في النجوم. فنسبة التنجيم إلى إدريس، وهو نبي كنبينا، كذب[٥].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/١٧٩.

(٢) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/١٨٠.

(٣) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/١٧٩.

(٤) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/١٨١ ـ ١٨٢.

(٥) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 15. أبو علي الحسين بن عبد الله، الفيلسوف الرئيس(٤٢٨هـ)، أصله من بخارى، برز في الطب والطبيعيات والمنطق. كثير الكتابة. الأعلام، ٢/٢٦١.

وقد رد عليهم ابن خلدون من جهة أخرى، وذلك أن فنون التنبؤ بالغيب هي عنده من جملة الصنائع، والأنبياء لا يشتغلون بها، قال: «وربما ذهب ضعفاء منهم (يقصد من المنجمين) إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي. . . ومن أوضح الأدلة فيه (أي إبطاله)، أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق»(١).

أما الرواية عن علي في قصة يوشع فسندها ضعيف جدا، لا يحتج بمثله، قال الخطيب: في إسناد هذا الحديث غير واحد مجهول(٢). وهي في الواقع منكرة، لأن الغيب لا يعرفه إلا الله سبحانه، وفي الرواية أن الواحد من قوم يوشع كان يعلم متى سيموت ومتى يمرض وماذا سيولد له. . . ونحو ذلك من شؤون الغيب المحجوب. ثم المحفوظ في أمر تحبيس الشمس أن ذلك كان ليوشع خاصة، لا لداود، عليهما السلام(٣).

لكن المنجمين تعلقوا - بصفة أقوى - بالنبي إبراهيم، ونسبوا إليه التنجيم. وهذا يحتاج إلى بعض التفصيل:

استدلال المنجمين بالخليل إبراهيم:

وقد تعلق أهل التنجيم بسيرة إبراهيم عليه السلام، فقالوا إنه كان اعتقد بألوهية الكواكب، أو على الأقل بتسييرها لشؤون الأرض والناس. وقالوا قد حكى القرآن ذلك:

١ - قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ فقد أطلعه الله سبحانه على العالم العلوي فعرف عنه كل شيء، من الأفلاك وحركاتها . . وسائر شؤونها.

٢ - وفي سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٥.
(٢) القول في علم النجوم، ص ٢٠٠ . وضعفه أيضا ابن حجر في الفتح، ٦/ ٢٢١ (طبعة ابن باز).
(٣) القول في علم النجوم، ص ٢٠٠.

ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ٧٤ إلى ٨٠ .

٣ ـ وفي الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ، فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ ٨٣ إلى ٩٣ .

والرد على هذه الدعاوى فيه تفصيل، ويحتاج إلى بيان معنى هذه الآيات الكريمة:

أولا ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

في الآية آراء:

١ ـ قال ابن كثير: «أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»[١] فهذه رؤية عقلية أو قلبية، ولذلك قال سيد قطب: «استحق إبراهيم عليه السلام بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود..»[٢].

٢ ـ وقيل ملكوت السماوات والأرض أي ملكهما، وقيل خلقهما. وقال آخرون: بل معنى ذلك ما أخبر الله تعالى أنه أراه من النجوم والقمر والشمس[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/١٩٢. سورة الأنعام، آية ٧٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/٢٩١.

(٣) جامع البيان، ٧/١٤٧ ـ ١٤٨.

٣ ـ وقال الطبري: «وأولى الأقوال ـ في تأويل ذلك ـ بالصواب قول من قال: عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلى له بواطن الأمور وظواهرها. على هذا التأويل: أريناه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسا لا خبرا»[١].

وأي ذلك كان، فقد أطلع الله تعالى إبراهيم على بعض مظاهر ملكه وسلطانه ومسخراته، والنجوم بعض ذلك، وليس في الآية أنه أطلعه على التصرفات المزعومة للكواكب في شؤون الأرض.

ثانيا ـ قصة إبراهيم مع الكواكب وأفولها

اختلف المفسرون في أي المقامين كان عليه إبراهيم عليه السلام، أهو نظر ذاتي وتفكر، أم هو: احتجاج وتناظر مع قومه[٢].

١ ـ مقام نظر: وهذا رأي بعض المفسرين مثل الطبري الذي حكى آراء أصحاب القول الثاني بأن الآية لا تحكي نظر إبراهيم لخاصة نفسه، بل مناظرته لقومه. قال: «في خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه»[٣]. ولذلك قال إبراهيم حين أدرك الحق: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. قال الطبري: «وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه لما تبين له الحق وعرفه شهد شهادة الحق وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله[٤]». يعني أنه قبلها لم يكن قد تبين له الحق.

---

(١) جامع البيان، ٧/١٤٨ ـ ١٤٩. والطبري هو محمد بن جرير، أبو جعفر، توفي ببغداد سنة ٣١٠هـ، وأصله من طبرستان. مجتهد ومؤرخ، ومن أجل علماء الإسلام. عن الأعلام، ٦/ ٢٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/١٩٣.

(٣) جامع البيان ، ٧/ ١٥١.

(٤) جامع البيان ، ٧/ ١٥١.

وعلى هذا الرأي يكون تفسير الآية ما أوضحه العلامة ابن عاشور، قال: «فإذا بنينا على أن ذلك كان استدلالا في نفسه قبل الجزم بالتوحيد فإن ذلك كان بإلهام من الله تعالى، فيكون قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه نريه ما فيها من الدلائل على وجود الصانع ووحدانيته قبل أن نوحي إليه، ويكون قوله ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ بمعنى نظر في السماء فرأى هذا الكوكب ولم يكن نظر في ذلك من قبل، ويكون قوله ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ قولا في نفسه على نحو ما يتحدث به المفكر في نفسه، وهو حديث النفس... وقوله (هذا ربي ـ وقوله ـ لا أحب الآفلين ـ وقوله ـ لئن لم يهدني ربي) كل ذلك مستعمل في حقائقه من الاعتقاد الحقيقي. وقوله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ هو ابتداء خطابه لقومه بعد أن ظهر الحق له فأعلن بمخالفته قومه حينئذ»[١].

وللعلماء في تأويل هذا من إبراهيم أقوال، فقيل إنما كان ذلك في حال الطفولة، وهو ما تقتضيه الروايات التي ذكرت بعضها في مبحث «سبب الاختلاف»، الذي سيأتي بعد بضع صفحات. وقالوا إن هذه المرحلة في عمر الإنسان ليست بحال تكليف، ولا يكون فيها كفر ولا إيمان[٢]. وقيل بل كان ذلك بعد البلوغ، ثم هداه الله تعالى إلى التوحيد[٣].

ولسيد قطب رحمه الله تعالى رأي يختلف قليلا عن القول بأن إبراهيم كان في مقام نظر، فهو يرى أن النبي الكريم انطلق من الفطرة وتدرج بها في الوصول إلى الإيمان، فهذا أيضا مقام نظر، لكن سيد قطب لا يقول إنه اعتقد في الأصنام أو في الكواكب فترة ما، بل هو كان يتأمل بفطرته التي تنفي ألوهية هذه الأشياء: «﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم. إنه لم يهتد بوعيه وإدراكه إلى إلهه، ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة... وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم عليه السلام للوهلة الأولى، وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها... ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾... إنها صورة

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٣٢٥.

(٢) جامع البيان، ٧/ ١٥٠. فتح الباري، ٧/ ٤٠، عند شرح حديث الكذبات الثلاث، وسيأتي.

(٣) مفتاح الغيب، ١٣/ ٥٠.

لنفس إبراهيم، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبده أبوه وقومه من الأصنام، وقد باتت قضية العقيدة هي التي تشغل باله، وتزحم عالمه، صورة يزيدها التعبير شخوصا بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، كأنما الليل يحتويه وحده، وكأنما يعزله عن الناس حوله، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته، ومع همه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره... ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم. وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكبا. ولكن الكوكب ـ الليلة ـ ينطق له بما لم ينطق من قبل، ويوحي إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله، ويزحم عليه عالمه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربا، ولكن لا، إنه يكذب ظنه: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ، قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾، إنه يغيب، يغيب عن هذه الخلائق، فمن ذا يرعاها إذن، ومن ذا يدبر أمرها... ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي، هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ ولكنها كذلك تغيب. هنا يقع التماس وتنطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق، ويغمر النور القلب، ويفيض على الكون الظاهر، وعلى العقل والوعي... وعندئذ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة... ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»[1].

٢ ـ مقام مناظرة:

إن إبراهيم لم يعتقد لحظة في ألوهية الكواكب، وإنما كان ما حكاه القرآن طريقة في الاحتجاج على قومه والاستدلال على خطئهم في اعتقادهم أن للكواكب التأثير الذي يتصورون[2]. قال الطبري عن المفسرين الذين ذهبوا إلى هذا الرأي: «زعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس هذا ربي، لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون به، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوء وأحسن وأبهج من الأصنام، ولم يكن مع ذلك

(١) اختصرته من الظلال، ٣/ ٢٩٠ إلى ٢٩٤.

(٢) راجع بحث الرازي في معنى الأفول، وكيف يدل على عدم ربوبية الكواكب. مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٥ إلى ٥٨.

معبودا، وكانت آفلة زائلة غير دائمة، والأصنام التي دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة»[١].

وقد ذهب إلى هذا الرأي الآخر كثير من المفسرين ورجحوه على الأول، منهم: الرازي، وابن عاشور[٢]. قال ابن كثير: «الحقّ أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل. وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا، ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[٣].

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٥٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ١٤٨. تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣. التحرير والتنوير، ٧/ ٣٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣.

وإنما كان هذا التفسير أولى عند أصحاب هذا القول، وأن إبراهيم كان موقنا بنفي ألوهية الكواكب، وأنه إنما أراد استدراج قومه إلى إقامة الحجة عليهم، لأن هذا «هو المناسب لصفة النبوة، أن يكون أوحي إليه ببطلان الإشراك، وبالحجج التي احتج بها على قومه[1]». وقد كان إبراهيم محجاجا، كما حكى عنه القرآن: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ الأنعام ٨٣ .

وقالوا: إن إبراهيم ناظر قومه بما حكاه القرآن في أحد هذه الأحوال:

١ ـ قال ذلك على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ[2]. فيكون معنى الكلام: أهذا ربي، على وجه الإنكار والتوبيخ، أي ليس هذا ربي، والعرب قد تفعل مثل ذلك فتحذف الألف التي تدل على معنى الاستفهام[3].

٢ ـ أو قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيها على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية. قال ابن حجر: «وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخا لقومه أو تهكما بهم، وهو المعتمد، ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات»[4]. أي في الحديث الآتي[5]. ومن ذلك قول إبراهيم في كسره للأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾. الأنبياء ٦٣ .

٣ ـ قوله: هذا ربي، معناه هذا ربي في زعمكم واعتقادكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾، أي عندك وفي ظنك[6].

٤ ـ أن يكون القول مضمرا في الآية، والتقدير: قال إبراهيم يقولون هذا ربي. وإضمار القول في القرآن كثير، منه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا﴾... أي يقولون ربنا[7].

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٣٢٤.
(٢) فتح الباري، ٧/ ٤٠.
(٣) جامع البيان ، ٧/ ١٥٠ ـ ١٥١. وانظر مفاتيح الغيب ، ١٣/ ٥٢.
(٤) فتح الباري، ٧/ ٤٠. وانظر جامع البيان ، ٧/ ١٥٠.
(٥) وهو قول النبي ﷺ إن إبراهيم لم يكذب غير ثلاث كذبات: قوله (إني سقيم)، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا)، وقوله لسارة: أختي.
(٦) مفاتيح الغيب ، ١٣/ ٥٢، والآية ٩٧ من سورة طه.
(٧) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٣.

٥ ـ قصد إبراهيم إلى الاستهزاء بقومه، مثل الآية الأخرى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1].

٦ ـ ومن الوجوه التي ذكرها الرازي ـ وهو قريب جدا من الوجه الثاني ـ : «أنه ﷺ أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة. وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئنا بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا قوله، وتمام التقرير أنه لما لم يجد إلى الدعوة طريقا سوى هذا الطريق، وكان عليه السلام مأمورا بالدعوة إلى الله كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر»[2].

وعلى هذا الرأي ـ مقام مناظرة ـ يكون التفسير كما يلي: «قوله ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي أظلم الليل إظلاما على إبراهيم، أي كان إبراهيم محوطا بظلمة الليل، وهو يقتضي أنه كان تحت السماء ولم يكن في بيت.

ويؤخذ من قوله بعده ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أنه كان سائرا مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب، وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصورون لها أصناما. وتلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم. . .

وظاهر قوله ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أنه حصلت له رؤية الكواكب عرضا من غير قصد للتأمل وإلا فإن الأفق في الليل مملوء كواكب، وأن الكوكب كان حين رآه واضحا في السماء مشرقا بنوره. . .

وجملة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن مضمون جملة ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهو أن يسأل سائل: فماذا كان عندما رآه، فيكون قوله ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ جوابا لذلك. . .وظاهر قوله: ﴿قَالَ﴾ أنه خاطب بذلك غيره. . ولذلك كانت حقيقة القول هي ظاهر الآية من لفظها ومن ترتيب نظمها إذ رتب قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ على قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقوله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ

---

(١) مفاتيح الغيب، ٥٣/١٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ٥٣/١٣.

﴿ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ ورتب ذلك كله على قوله ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ الآية، ولقوله تعالى ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما يقوله لمخاطب، ولقوله عقب ذلك ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، ولأنه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة واستدل به على براءته مما يشركون مع أنه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى لولا أن ذلك هو مدعى قومه؛ فدل ذلك كله على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم ليصلوا إلى تلقي الحجة ولا ينفروا من أول وهلة فيكون قد جمع جمعا من قومه وأراد الاستدلال عليهم.

وقوله ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي. قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم فأظهر أنه موافق لهم ليهشوا إلى ذلك ثم يكر عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق. ولا يريبك في هذا أن صدور ما ظاهره كفر على لسانه ـ عليه السلام ـ لأنه لما رأى أنه ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده.

. . .وجاء بـ ﴿ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبودا إلا وهو عالم.

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على الناس، وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيبا عن هذا العالم، يعني أن ما يغيب لا يستحق أن يتخذ إلها لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه. . .

وقوله ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾. . .وهو يقتضي أن القمر طلع بعد أفول الكوكب، ولعله اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بقرب ذلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس. . .

وقوله ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا

يستحقان ذلك مع أنه عرض في كلامه بأن له ربا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب. وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب. ثم عرض بقومه أنهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون، لأن قوله ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالا، ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، وقال ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه... وقوله ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي في الصباح بعد أن أفل القمر، وذلك في إحدى الليالي التي يغرب فيها القمر قبيل طلوع الشمس لأن الظاهر أن هذا الاستدلال كله وقع في مجلس واحد.

... وقوله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى...

وتسميته عبادتهم الأصنام إشراكا لأن قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلهية غيره كما كان إشراك العرب، وهو ظاهر آي القرآن حيث ورد فيها الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض...»[1].

سبب الاختلاف:

وهما سببان:

١ ـ ظاهر القرآن، ففيه مآخذ لكلا الفريقين، كما سبق بيانه.

٢ ـ الروايات الواردة في تفسير الآية.

وقد أوردها الطبري في تفسيره، ومال إلى اعتبارها، من جهة موافقتها لظاهر القرآن. وأهم هذه الروايات اثنتان لا بأس من نقلهما هنا ليتبين القارئ السبب الذي أوجب الاختلاف بين جماعة المفسرين:

أ ـ قال الطبري حدثني «المثنى قال ثنا أبو صالح قال ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ يعني به الشمس والقمر والنجوم، فلما جن عليه

---

(١) مختصرا من التحرير والتنوير، ٧/ ٣١٧ إلى ٣٢٣.

الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فعبده حتى غاب فلما غاب قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فعبده حتى غاب فلما غاب قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فعبدها حتى غابت فلما غابت قال يا قوم إني بريء مما تشركون»[١].

ب ـ وأخرج الطبري أيضا قال: «حدثني محمد بن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق فيما ذكر لنا والله أعلم: أن آزر كان رجلا من أهل كوثى من قرية بالسواد »سواد الكوفة« وكان إذ ذاك ملك المشرق لنمرود بن كنعان، فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم حجة على قومه ورسولا إلى عباده، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبي إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله ما أراد، أتى أصحاب النجوم نمرود، فقالوا له: تعلم أنا نجد في علمنا أن غلاما يولد في قريتك هذه يقال له: إبراهيم، يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا، فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آزر، فإنه لم يعلم بحملها وذلك أنها كانت امرأة حدبة ـ فيما يذكر ـ لم يعرف الحمل في بطنها، ولما أراد الله أن يبلغ بولدها أراد أن يقتل كل غلام ولد في ذلك الشهر من تلك السنة حذرا على ملكه فجعل لا تلد امرأة غلاما في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق، خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبا منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يصنع مع المولود، ثم سدت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة فتنظر ما فعل فتجده حيا يمص إبهامه، يزعمون والله أعلم أن الله جعل رزق إبراهيم فيها وما يجيئه من مصه. وكان آزر ـ فيما يزعمون ـ سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: ولدت غلاما فمات، فصدقها، فسكت عنها، وكان اليوم ـ فيما يذكرون ـ على إبراهيم في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة، فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر، حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر، فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني

---

(١) جامع البيان، ٧/١٤٩. تعني كلمة «ثنا» في عرف المحدثين: حدثنا، وكذلك «ثني» هي حدثني، و«نا» أنبأنا .. فهذه اختصارات.

وسقاني لربي، ما لي إله غيره، ثم نظر في السماء فرأى كوكبا قال: هذا ربي، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، ثم طلع القمر فرآه بازغا، قال: هذا ربي، ثم اتبعه ببصره حتى غاب، فلما أفل، قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس أعظم الشمس ورأى شيئا هو أعظم نورا من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال: هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه، وبريء من دين قومه، إلا أنه لم يبادئهم بذلك وأخبر أنه ابنه، وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت من شأنه، فسر بذلك آزر وفرح فرحا شديدا، وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدونها، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم ـ فيما يذكرون ـ فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها منه أحد، وإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب فيه رؤوسها وقال: اشربي، استهزاء بقومه وما هم عليه من الضلالة، حتى فشا عيبه إياها، واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته من غير أن يكون ذلك بلغ نمرود الملك»[١].

رد هذه الروايات من جهة السند:

والحقيقة أن الأخبار التي يذكرها أهل القول الأول ـ بأن إبراهيم كان في حال نظر لنفسه ـ لا تصح. ويتبين هذا إذا درسنا هاتين الروايتين عن الطبري:

أ ـ الرواية الأولى ضعيفة، لأن فيها أبا صالح ومعاوية بن صالح، وهما ضعيفان[٢].

ب ـ والثانية كذلك، وقد ضعف علماء الجرح والتعديل محمد بن حميد وسلمة بن الفضل[٣]. ومن جهة أخرى فإن هذا الخبر مرسل، ولم يبين ابن إسحاق ـ وهو

(١) جامع البيان، ٧/١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢) أبو صالح هو عبد الله بن صالح الجهني المصري، كاتب الليث بن سعد، ضعفوه من قبل حفظه وضبطه. انظر تهذيب التهذيب، ٥/٢٥٦. الكامل في ضعفاء الرجال، ٤/١٥٢٢. أما معاوية بن صالح أبو عمر فصدوق، لكن تكلم فيه. تولى القضاء بالأندلس، وتوفي حوالي العقد السادس من القرن الثاني. راجع الكامل لابن عدي، ٦/٢٤٠٠ إلى ٢٤٠٢. ويقع في حديث كلا الراويين مناكير.

(٣) محمد بن حميد هو أبو عبد الله التميمي الرازي، توفي سنة ٢٤٨هـ، ضعفوه، كما في تهذيب =

من أتباع التابعين - عمن رواه، فلعله مما تلقي عن أهل الكتاب.

ردها من جهة الأصول والمعنى:

وهذا الرد نقله الطبري بنفسه، قال: «وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس وعمن روي عنه من أن إبراهيم قال للكوكب أو للقمر هذا ربي، وقالوا غير جائز أن يكون لله، نبي ابتعثه بالرسالة أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو لله موحد وبه عارف ومن كل ما يعبد من دونه بريء. قالوا ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر لم يجز أن يختصه بالرسالة لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من، خلقه مناسبة فيحابيه باختصاصه بالكرامة. قالوا وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة»[1].

ومن ناحية أخرى فإن ظاهر الآية يقتضي أنه لا يوجد زمان طويل بين التفكر أو مناظرة القوم، وبين البراءة منهم ودعوتهم إلى التوحيد، واستعمال فاء التعقيب في جمل الآية يشير إلى ذلك. أما في الروايات فالزمان بين الأمرين طويل، لأن التفكر - بحسبها - حدث في الطفولة، وإعلان البراءة من المشركين كان بعد البلوغ.

ثم إن الآيات الواردة في النبي إبراهيم عليه السلام، لم تصوره أبدا على أنه مر بمرحلة من الشك أو الشرك، أو الاعتقاد في الكواكب أو عبادتها، بل على العكس من ذلك هي تفيد أنه كان موحداً منذ البداية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ النحل ١٢٠ . ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾الأنبياء ٥١ . وفي الحديث أن كل مولود يولد على الفطرة[2]، وإنما يأتي التهويد والتنصير والتكفير بعدها.

= التهذيب، ٩/ ١٢٧. وسلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري مولاهم، أبو عبد الله الأزرق، قاضي الري. روى عن شيوخ جلة كالثوري وأبي جعفر الرازي، وعنه كذلك كيوسف القطان وابن معين. وتوفي سنة ١٩٠هـ . فيه أقوال كثيرة ومتقاربة حاصلها أن حديثه لا يحتج به، لكثرة ما فيه من مناكير وأخطاء، ولأن بعض النقاد جرحوه. انظر تهذيب التهذيب، ٤/ ١٥٣ - ١٥٤.

(١) جامع البيان ، ٧/ ١٥٠.

(٢) في معجم ونسنك لألفاظ الحديث: رواه البخاري في الجنائز، باب ٨٠، وفي تفسير سورة الروم، وفي القدر. ورواه مسلم في كتاب القدر، أحاديث ٢٢ إلى ٢٤. وأحمد في المسند.

مناقشة الرازي للمذهب الأول:

وقد اجتهد الرازي في رد القول الأول، وفرعه على الاحتمالين السابقين في القصة:

الاحتمال الأول: أن القصة وقعت بعد البلوغ، كما هو مقتضى الروايات. قال الرازي: اتفق أكثر المحققين على فساد هذا القول على هذا الاحتمال[١]. وذكر لذلك أدلة:

١ ـ إن القول بربوبية النجم كفر بالإجماع، والكفر غير جائز على الأنبياء، للإجماع أيضا.

٢ ـ إن إبراهيم كان قد عرف ربه، بدليل قوله ـ قبل هذه الواقعة ـ لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٣ ـ وهذا الكلام لأبيه آزر، وفيه من الخشونة واللفظ الموحش ما هو ظاهر. يدل على أنه سبق لإبراهيم عليه السلام، أن دعا أباه مراراً، وبرفق، لأن من دعا غيره إلى الله تعالى يقدم الرفق أولاً، لا شك في ذلك.

٤ ـ إن هذه الواقعة حدثت بعد أن أطلعه الباري تعالى على الملكوت، فكيف يعتقد شيئا لا ينبغي.

٥ ـ إن دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة لا تخفى على الخليل في عقله وعلمه.

٦ ـ قد قال تعالى في صفة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]، وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليما عن الكفر. ولذلك يقول ابن كثير: «كيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ...﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا...﴾ وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣][٢].

٧ ـ إن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم لقومه، دليله أنه تعالى لما ذكر القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، ولم يقل على نفسه.

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٣.

٨ ـ وقد قال أصحاب الرأي الأول إن قصة إبراهيم مع الكواكب حدثت وهو في الغار يتأمل. ولو صح ذلك فلم قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وليس في الغار أحد. وقال تعالى أيضا: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾، ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، فهذا يدل على وقوع المخالطة والمجادلة بين إبراهيم وقومه[1]...

ولله در الفخر الرازي، فإن له قدرة عجيبة على توليد الصور والاحتمالات والأدلة.

الاحتمال الثاني: أن ما قاله إبراهيم كان قبل البلوغ. وقد قبل الرازي هذا الاحتمال، على شرط أن يكون ذلك عند القرب من البلوغ، قال: «تقريره أنه تعالى كان قد خص إبراهيم بالعقل الكامل والقريحة الصافية، فخطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتفكر فرأى النجم، فقال ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فلما شاهد حركته قال ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾. ثم إنه تعالى أكمل بلوغه في أثناء هذا البحث فقال في الحال ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، فهذا الاحتمال لا بأس به، وإن كان الاحتمال الأول أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة، على أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد والله أعلم»[2].

ولم يظهر لي لم اشترط هذا القرب وما الداعي إليه، وربما لأنه رأى أن اعتقاد ألوهية الكواكب في زمن الطفولة.. بعيد، لحديث النبي ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة. أو شرط ذلك دفعا لطول اعتقاد ما لا ينبغي، فكأن ذلك كان شيئا عابرا في طفولة الخليل عليه السلام.

خاتمة:

وهذا الاختلاف بين المفسرين واقع في الزمن قبل نبوة إبراهيم، أما بعدها فما اعتقد الخليل شيئا في الكواكب، وهذا بصريح القرآن وباتفاق أهل الإسلام. فحتى لو قلنا بالرأي الأول: إن إبراهيم اعتقد في البداية ـ قبل التكليف، أو في مهلة النظر ـ ألوهية النجوم، فليس في هذا متمسك للمنجمين، يستدلون به على عقيدتهم في الكواكب. لأن ذلك كان من إبراهيم عليه السلام في الصبا، أو في أول طلب

---

(١) راجع مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٠ إلى ٥٢.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٥٤.

الهداية، وكان عذره عدم العلم، أما بعد ذلك فلا شك أنه أنكر ألوهية الكواكب وتدبيرها للكون، فقد كان عليه السلام حنيفا، وما كان من المشركين.

إذن لا يستدل بالخطأ على تقرير أمر مختلف فيه. وبحسب هذا المنطق التنجيمي، يمكن أيضا أن نستدل على جواز القتل الخطأ بفعل موسى لما لكز المصري، وعلى جواز ترك الناس بلا دعوة ومن دون الإقامة الكاملة للحجة بفعل يونس، وعلى جواز التشفع في الكافر بفعل نوح، وعلى جواز التبني بفعله ﷺ إياه قبل النبوة. وهذا كله لا يستقيم، فلا دلالة في الآية لأهل التنجيم، على جميع الآراء.

ثالثا ـ قصة إبراهيم ناظرا في النجوم.

وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾

القصة:

وفيها روايات كثيرة، وخصوصا عن ابن عباس وتلامذته من علماء التفسير، وحاصلها كما لخصها البغوي أن إبراهيم عليه السلام «كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لها القرابين، ويصنعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم، زعموا للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه. فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج غدا معنا إلى عيدنا؟ فنظر إلى النجوم، فقال إني سقيم، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرون من الطاعون فرارا عظيما... ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم، فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها»[(١)].

وفي أسانيد روايات القصة كلام، لكن الذي يصح من القصة بلا إشكال، فنحتفظ به هنا، هو ما يلي:

١ ـ إن قوم إبراهيم عليه السلام أرادوه معهم على شيء.

٢ ـ فأفهمهم أن به سقما.

---

(١) معالم التنزيل، ٧/ ٤٤ ـ ٤٥. والبغوي هو الفقيه المحدث الحسين بن مسعود، المعروف بالفراء (٥١٠هـ) أصله من خراسان. له تآليف مطبوعة، عن الأعلام، للزركلي، ٢/ ٢٨٤.

٣ ـ وأنهم لذلك تركوه.

٤ ـ ثم بعد ذلك مباشرة اختلى بأصنامهم فكسرها.

احتجاج المنجمين بالقصة:

وقد استدل المنجمون ـ ممن ينتسب إلى الإسلام ـ بهذه القصة على صحة التنجيم. وقالوا إن إبراهيم عليه السلام استنبط بنظره في النجوم أن به مرضا، أو سيحل به قريبا[١].

تفاسير الآية:

وسنرى الآن في تفاسير العلماء لهذه القصة هل للمنجمين سند صحيح في دعواهم هذه أم لا. وفي ذلك سنستعين بما رواه البخاري ـ وغيره ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عز وجل: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني»[٢].

والإشكال في الآية ـ والذي أكده الحديث ـ هو من وجهين متمايزين:

الأول: في دعوى إبراهيم عليه السلام السقم والمرض، بينما ظاهر النصوص يقتضي أنه كان صحيحا معافى.

الثاني: في ربطه تلك الدعوى بالنظر في النجوم.

ولننظر الآن في تفاصيل ذين الإشكالين:

الإشكال الأول: في مرضه عليه السلام

---

(١) انظر: رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥. مفتاح دار السعادة، ص ٥١٦، ٥١٧. السر الرباني في علوم الفلك والروحاني، ص ١٣٨.

(٢) هذا الفظ البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، حديث ٣٣٥٨. والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ٢١، حديث ٣١٧٨.

وأكثر تأويلات أهل العلم - في هذه المسألة - تدور حول قولين: إما أن إبراهيم عنى السقم حقيقة، أو عرض به.

القول بأنه عنى السقم حقيقة: وفيه وجوه:

١ - ذكر بعض المفسرين أن قوله: إني سقيم، معناه: إني سقيم القلب، مريضه، بسبب كفركم وشرككم، فشبه غمه وحزنه بالمرض، كما قال تعالى لنبيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ الكهف: ٦[١]. ولا يخفى أن الأسى والحزن له على البدن مثل أثر المرض العضوي.

٢ - قال أبو السعود: «قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل، فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة، فإذا هي قد حضرت، فقال إني سقيم، وكان صادقا في ذلك فجعله عذرا في تخلفه عن عيدهم»[٢]. ورده ابن حجر بقوله: «هو بعيد لأنه لو كان كذلك لم يكن كذبا لا تصريحا ولا تعريضا»[٣]. يعني: وحديث النبي ﷺ وصفه بالكذب.

٣ - قوله: إني سقيم، أي إنني مريض الآن، ولا يمكنني الخروج معكم إلى معيدكم. فالمقصود هنا هو المرض حقيقة[٤]، أي البدني. قال القاسمي: «ترخص عليه السلام بذلك ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شركهم، مما تجوزه المصلحة»[٥].

وهذا القول هو ظاهر الآية والحديث معا، لأن قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ يحمل على الحاضر، كما أن وصف هذا القول في الحديث بالكذب يفيد أنه لم يكن مريضا في

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٤٨/٢٦. إرشاد العقل السليم، ٢٧٢/٤. نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبرهان البقاعي، ٢٥٤/١٦. محاسن التأويل، ٥٠٤٧/١٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٢٧٢/٤. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ٦٢/١٥. مفاتيح الغيب، ١٤٨/٢٦. وأبو السعود هو محمد بن مصطفى العمادي، مفسر وشاعر، أصله تركي. توفي عام ٩٨٢هـ. الأعلام، ٢٨٨/٧.

(٣) فتح الباري، ٤٠/٧.

(٤) انظر: معالم التنزيل، ٤٥/٧. محاسن التأويل، ٥٠٤٧/١٤. التحرير والتنوير، ١٤٢/٢٣.

(٥) محاسن التأويل، ٥٠٤٧/١٤. القاسمي هو جمال الدين بن محمد، مولده ووفاته بدمشق (١٣٣٢ هـ - ١٩١٤م)، عالم ومصلح اجتماعي، ترك كثيرا من الكتب. الأعلام، ١٣١/٢.

الواقع.

وروي عن بعض السلف أن المرض الذي ادعاه إبراهيم عليه السلام هو الطاعون. قالوا وكان ذلك أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، فهربوا عنه وتركوه لوحده... [١] وظاهر الآية يفيد أن النبي الكريم أشار لهم إلى مرض لم يعينه، لكنهم ربما فهموا أن ذلك المرض يعدي وقد يصيبهم، فلذلك تولوا عنه مدبرين، أي فارين منه. وقال بعضهم: بل تولوا عنه مدبرين لكفرهم واحتقارهم لأمره[٢]. قلت أو كانوا في عجلة من أمرهم.

القول بالتعريض:

وفيه آراء:

١ - قال الطبري: «.. وقال آخرون: إن قوله إني سقيم، كلمة فيها معراض، ومعناها أن كل من كان في عقبة الموت فهو سقيم، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر[٣]». وقال الضحاك: قوله: سقيم، أي سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت. وعلق على ذلك القرطبي فقال: وهذا تورية وتعريض، كما قال للملك - لما سأله عن زوجته سارة - هي أختي، يعني أخوة الدين[٤].

٢ - الرأي الثاني: قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تعريض، بمعنى «أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة، إما في بدنه، وإما في قلبه، وكل ذلك سقم»[٥].

٣ - وقال مفسرون آخرون: قوله إني سقيم، أي سأسقم، واسم الفاعل يجيء كثيرا

---

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٠ - ٤١. الكشاف، ٣/ ٣٤٤. معالم التنزيل، ٧/ ٤٥. مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ١٣ / ٢٤٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

(٣) جامع البيان، ٢٣/ ٤١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٩.

(٦) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨. فتح الباري، ٧/ ٤٠، حديث الكذبات الثلاثة.

(٧) الكشاف، ٣/ ٣٤٤. والزمخشري هو أبو القاسم محمود بن عمر، من خوارزم، إمام في التفسير البلاغي واللغوي، توفي ٥٣٨هـ. الأعلام، ٨/ ٥٥.

(٨) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣. إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٧٢. وأبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، مفسر وفقيه حنفي، وله في ذلك مصنفات جليلة (٧١٠هـ). الأعلام، ٤/ ١٩٢.

بمعنى المستقبل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾، الزمر ٣٠ [١]. فحمله بعضهم على مستقبل بعيد نسبيا، مثل مرض الموت. والزمخشري يحمله على المستقبل القريب، ولذلك قال: إني سقيم، أي مشارف للسقم[٢]. وتبعه على ذلك النسفي وأبو السعود[٣].

قال القرطبي: «المعنى إني سقيم فيما أستقبل، فتوهموا هم أنه سقيم الساعة. وهذا من معاريض الكلام»[٤].

تفسير الحديث:

وقد سلك العلماء في نظرهم في الحديث طرقا مختلفة، بحسب حملهم لقول إبراهيم عليه السلام على الحقيقة أو التعريض:

الأول - أخذ الحديث على ظاهره. وهذا قول جماعة من العلماء. وحكاه ابن عطية[٥].

ولذلك رد هؤلاء المذهب الذي يقول إن إبراهيم عرض وما كذب. قال الطبري: «والخبر عن رسول الله ﷺ بخلاف هذا القول، وقول رسول الله ﷺ هو الحق دون غيره»[٦].

وقال المازري: «أما الأنبياء عليهم السلام فمعصومون من الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله سبحانه قل ذلك أو جل لأن المعجزة تدل على صدقهم في ذلك.

وأما ما لا يتعلق بالبلاغ ويعد من الصغائر كالكذبة الواحدة في شيء من أمور الدنيا فيجري ذلك على الخلاف في عصمتهم من الصغائر...

وقد وصف ﷺ أن اثنتين من كذبات إبراهيم عليه السلام كانتا في ذات الله سبحانه، والكذب إنما يترك لله، فإذا كان إنما يفعل لله انقلب حكمه في بعض المواضع على حسب ما ورد في الشريعة، والقصد بهذا التقييد منه ﷺ نفي مذمة الكذب عنه لجلالة قدره في الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٦٣.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/٢٤٣. وانظر جامع البيان، ٢٣/٤٠ - ٤١. أبو محمد عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية (٥٤٢هـ). من أهل غرناطة، تولى القضاء، وغزا مع المرابطين. عن الأعلام، ٤/٥٣.

(٣) جامع البيان، ٢٣/٤١.

وقد تأول بعض الناس كلماته هؤلاء حتى تخرج عن كونها كذبا، ولا معنى لأن يتحاشى العلماء مما لم يتحاش منه النبي ﷺ؛ ولكن قد يقال: إن المراد تسميتها كذبا على ظاهرها عندكم في مقتضى إطلاقكم عند استعمالكم اللفظ على حقيقته، ألا تراه يحكي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لسارة: «أخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام»، ومن سمى المسلمة أختا له قاصدا أخوة الإسلام فليس بكاذب، لكنه ﷺ إنما أطلق عليه لفظة الكذب لما قلناه من أن الأخت في الحقيقة المشاركة في النسب، وأما المشاركة في الدين فأخت على المجاز، فأراد أنها كذبة على مقتضى حقيقة اللفظة في اللغة، وعلى أن قوله: «إنها أختي» قد يكون في ذات الله إذا أراد بها كف الظلم وصيانة الحريم، لكن لما كان له فيها منفعة ميزها ﷺ عن الأوليين اللتين لا منفعة له فيهما. هذا الذي يظهر لي في تأويل هذا الحديث»[١].

الثاني: تأويل الحديث بأنه لا يعني الكذب حقيقة، فهو تجوز في الكلام. وبهذا قال الزمخشري والقرطبي والنسفي[٢]. وحكاه ابن عطية مذهبا ونصره[٣]. قال القاضي عياض - وهو ممن يرى هذا الرأي -: معنى الحديث «أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب، وإن كان حقا في الباطن، إلا هذه الكلمات»[٤]. وقال ابن حجر في الحديث: «أما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا، لكنه إذا حقق لم يكن كذبا، لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض»[٥]. فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عد هذا ذنبا[٦].

واختلفت أساليب العلماء في كيفية التأويل، فابن العربي مثلا يقول: «الكذب

(١) المعلم بشرح فوائد مسلم، ٣/ ١٣١.

(٢) الكشاف، ٣/ ٣٤٤. الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٣. مدارك التنزيل، ٤/ ٢٤.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٤٣.

(٤) الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى، ٢/ ١٤١. لصاحبه القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، من أهل سبتة، توفي بمراكش ٥٤٤هـ، محدث ولغوي كبير، ومن أجل علماء المغرب. الأعلام، ٥/ ٢٨٢.

(٥) فتح الباري، ٧/ ٤٠. كتاب أحاديث الأنبياء.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٣.

هو الخبر عن الشيء بخلاف مخبره، كان بقصد أو بغير قصد، مأذونا فيه أو غير مأذون، ولم يحرم لعينه ولا قبح لذاته، لأنه قد يوجد الكذب في الشريعة واجبا كتخليص المسلم من الظالم، وقد يوجد مستحبا ككذب يدفع الضرر عن الكاذب في أحد القولين وفي القول الآخر أنه واجب، وقد يكون مباحا ككذب الرجل لأهله.. والأنبياء معصومون عن المعاصي، وخصوصا الكذب، وخصوص الخصوص في تبليغ الشرائع، فإذا كان في التبليغ لم يجز بقصد وبغير قصد. وأما الناس فإذا جوزنا لهم الكذب فلا يجوز إلا بالتعريض، لا بالقصد إليه صريحا كما بيناه في كتاب الأدب آنفا في تفصيل القول في المواطن التي يجوز فيها الكذب. فأما إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه فلا قصد الكذب ولا جرى في خبره كذب، لأنه قال إني سقيم، وما أعظم سقمه بما كان يرى من الكفر والباطل، وقال بل فعله كبيرهم هذا، حجة لله ودليلا على توحيده وإبطال قول المؤتفكة بأن الأصنام آلهة، ولذلك رجع الكفار إلى أنفسهم بالملامة، فقالوا إنكم أنتم الظالمون في اعتقادكم أنهم ينفعون أو يضرون. وقال هذه أختي في زوجه سارة إذ قال لها ليس على الأرض مسلم غيري وغيرك فأنت أختي في الإسلام، لدفع الظالم عن ارتكاب الفاحشة والاستطالة على أهله، ولكنه عاتب نفسه على ذلك إذ رأى أنه كان له أن يعدو هذه الكلمات إلى غيرها وأن مرتبته في الاصطفاء والخلة كانت أعظم من أن يلجأ إلى الاعتذار لهم والملاينة ولم يصدمهم بما يكرهون ويصرح لهم بالمعروف في ما ينكرون فاستحيى من ذلك وهو العلي القادر القائم الحجة البريء الساحة من كل وهم ودرك»[1].

بينما يقول الطاهر ابن عاشور: «قد ظهر من نظم الآية أن قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لم يكن مرضا، ولذلك جاء الحديث الصحيح (ثم ذكر حديث الكذبات الثلاث)...ودفع الإشكال: أن تسمية هذا الكلام كذبا منظور فيه إلى ما يفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام، وما هو بالكذب الصراح بل هو من المعاريض، أي أنني مثل السقيم في التخلف عن الخروج، أو في التألم من كفرهم، وأن قوله «هي أختي» أراد أخوة الإيمان، وأنه أراد التهكم في قوله «بل فعله كبيرهم هذا» لظهور قرينة أن

(١) عارضة الأحوذي، ١٢/ ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤٣. وراجع كلاما آخر لابن عقيل الحنبلي في: فتح الباري، ٧/ ٤٠.

مراده التغليط.

وهذه الأجوبة لا تدفع إشكالا يتوجه على تسمية النبي ﷺ هذا الكلام بأنه كذبات. وجوابه عندي: أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ، ولا المجاز، ولا التهكم، فكان ذلك عند قومه كذبا، وأن الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثا من عصي فيضرب به ضربة واحدة ليبر قسمه، إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام»[١].

الثالث ـ رد الحديث: وقد كاد الرازي يقول بهذا الطريق، قال: «قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة، ورووا فيه حديثا عن النبي ﷺ أنه قال (ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات). قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل، لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز، فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى»[٢]. ثم استدرك الرازي على نفسه حين رأى للتأويل موضعا، فقال: «ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب؟»[٣].

ولا بد من سلوك أحد الطريقين الأوليين: إما إجراء الخبر على ظاهره، أو تأويله بمعنى قريب. أما رد الحديث من أصله فلا ينبغي، مع رواية الأئمة له في الصحاح، ومع إمكان تأويله.

الإشكال الثاني: وجه الربط بين دعوى المرض والنظر في النجوم.

وحله يتوقف على تفسير جملة: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾، ما معناها، وهل المقصود النظر فعلا في كواكب السماء وأجرامها، أو كل ذلك مجاز من الكلام. وكلا المعنيين مذهب:

أ ـ على القول بأن المقصود بالنجوم الحقيقة:

وهذا ظاهر النص القرآني، وبه قال الجمهور، بحسب ما حكاه ابن عطية[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٩.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٩.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٤٣.

(٤) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣. وانظر المحرر الوجيز، ٢٣/ ١٤١.

ثم اختلفوا لأي شيء نظر إبراهيم في الكواكب والنجوم على قولين:

١ ـ إن إبراهيم نظر في النجوم عرضا، على سبيل التفكر فقط، وليدبر حجة يتخلص بها من قومه.

قال النسفي: «أي نظر في النجوم راميا ببصره إلى السماء متفكرا في نفسه كيف يحتال»[١].

٢ ـ إن إبراهيم عليه السلام أوهمهم أنه ينظر إلى النجوم حقيقة.

وهذا ظاهر تفسيري الطبري[٢] والبقاعي[٣]. وحكاه القرطبي[٤]. قال القاسمي: «(فنظر في النجوم) أي ليريهم على أنه يستدل بها على شيء، لأنهم كانوا منجمين»[٥]. وقال النسفي ـ وهو أحد وجهين عنده ـ: «أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه سقيم»[٦]. وهذا يقتضي النظر في الكواكب نفسها لمعرفة الطالع وغيره. لكن الزمخشري اختار العموم، والمعنى عنده أن الخليل نظر «في علم النجوم، أو في كتابها، أو في أحكامها. .وكان القوم نجامين. فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم أنه سقيم»[٧]. وكذلك ذكر الرازي أن «قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو، وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون

---

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) في تفسيره: نظم الدرر، ١٦/ ٢٥٤. إبراهيم بن عمر الخرباوي البقاعي، أديب ومفسر ومحدث. عاش بدمشق والقاهرة، وتوفي سنة ٨٨٥هـ. له: الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل. رسالة في مسألة ليس في الإمكان أبدع مما كان. ديوان شعر.. وأهم كتبه تفسيره هذا. عن معجم المؤلفين، ١/ ٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢.

(٤) محاسن التأويل، ١٤/ ٥٠٤٦.

(٥) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٣.

(٦) الكشاف، ٣/ ٣٤٤.

(٧) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٦٢. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.

حتى إذا قال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سكنوا إلى قوله»[١].

ورأي الطبري أوفق بظاهر الآية، أعني أنه نظر في النجوم، لا في كتبها.

ب ـ على القول بأن المقصود بالنجوم المجاز:

١ ـ نجم هنا بمعنى ظهر، والنجوم مصدر، أي نظر فيما نجم له من الرأي[٢]، أو المعنى تفكر فيما نجم من كلامهم، لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ليدبر حجة[٣]. قال الرازي: «نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أي متفرقة، ومنه نجوم الكتابة. والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾»[٤].

٢ ـ يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم[٥]، ولو لم يكن ناظرا إليها حقيقة أثناء تفكيره، فالآية جرت «مجرى المثل في التعبير عن التفكير، لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر، فلا يكون المراد أنه نظر في النجوم وهي طالعة ليلا، بل المراد أنه نظر للسماء التي هي قرار النجوم، وذكر النجوم جرى على المعروف من كلامهم»[٦].

لا دلالة في الآية على اشتغال إبراهيم بالتنجيم:

ولعله من الواضح أن الإشكال في الآية لا يرد إلا على القول الثاني من المذهب الأول، أي إذا قلنا إن إبراهيم عليه السلام نظر في النجوم والكواكب بعينها، أو في كتبها وأحكامها. قال أبو السعود: «ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام إلى معيدهم ليتركوه، فإن القوم كانوا نجامين، فأوهمهم أنه قد استدل بأمارة في علم النجوم على أنه سقيم[٧]». فإبراهيم لم ينظر في النجوم ليقصد الاستدلال بها

---

(١) المحرر الوجيز، ١٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ، ١٥/ ٦٢. التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.
(٤) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١٤١.
(٥) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٧٢.

على طريقة أهل التنجيم، وإنما أوهمهم بذلك فقط، وليتخلص منهم ومن إلحاحهم عليه للأمر الذي أرادوه عليه. قال أبو القاسم عيسى: «إنما قال هذا ليدفع قومه عن نفسه، ألا ترى أنه عز وجل قال بعد: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١﴾، فبين تبارك وتعالى أنه إنما قال ذلك ليدفعهم به لما كان عزم عليه من أمر الأصنام. وليس يحتاج أحد إلى معرفة أصحيح هو أم سقيم من النجوم، لأن ذلك يوجد حسا ويعلم ضرورة ولا يحتاج فيه إلى استدلال وبحث»[1].

وسيرة النبي الكريم مع قومه تدل على عكس ما يروجه هؤلاء، قال ابن القيم: «متى بعث الله رسولا يعاني التنجيم والنرنجات والطلسمات والأوفاق والتداخين والبخورات ومعرفة القرانات والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس والحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة؟ وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم وهل بعثت الرسل إلا بالإنكار على هؤلاء؟...

وهل كان لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عدو مثل هؤلاء المنجمين الصابئين، وحران كانت دار مملكتهم، والخليل أعدى عدو لهم، وهم المشركون حقا، والأصنام التي كانوا يعبدونها كانت صورا وتماثيل للكواكب، وكانوا يتخذون لها هياكل، وهي بيوت العبادات، لكل كوكب منها هيكل فيه أصنام تناسبه؟»[2].

ويشير الحديث إلى أن إبراهيم عليه السلام حين كان يمتحن بشيء شديد، فيريد التخلص منه، يلجأ إلى الحيلة ويتلطف بالأسلوب.. فهو سمى زوجته أختا، وعنى أنها أخته في الدين، وكانت تلك طريقته في تجنب بغي الملك الظالم.. وكذلك نظره في النجوم مجرد حيلة استعملها لكي يستفرد بالأصنام فيحطمها. وهذا كله من إبراهيم عليه السلام ليس سببه الضعف أو الهوان، وهو أحد أولي العزم من الرسل، ودليله أنه ثبت على دعوته ودينه حين هدد برميه في النار، بل حتى بعد رميه فيها.

ولذلك قال العلامة ابن عاشور: «لم ينطق إبراهيم بأن النجوم دلته على أنه سقيم، ولكنه جعل قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مقارنا لنظره في النجوم، أوهم قومه أنه عرف

---

(١) رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦. والآية من الصافات، ٩٠ ـ ٩١.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٧.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣/١٤٢ ـ ١٤٣.

ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم. . . وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص، ومن يزعم ذلك فقد ضل دينا، واختل نظرا وتخمينا. وقد دونوا كذبا كثيرا في ذلك وسموه علم أحكام الفلك أو النجوم»[1]. وقال ابن القيم: «ليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم، ثم قال لهم: إني سقيم. فمن ظن من هذا أن علم أحكام النجوم من علم الأنبياء، وأنهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الأنبياء ونسبهم إلى ما لا يليق، وهو من جنس من نسبهم إلى الكهانة والسحر، وزعم أن تلقيهم الغيب من جنس تلقي غيرهم»[2].

فليس في الآية إلا أنه نظر في النجوم نظرا مجردا، ولا تدل بحال على أن إبراهيم عليه السلام الذي بعث بالتوحيد ورد الأمر كله لله، ونبذ عبادة الكواكب. . .كان يمارس التنجيم أو يرى أن للنجوم أثرا على حوادث الأرض.

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٥١٦ ـ ٥١٧.

الفصل الخامس
نظرة الإسلام إلى عالم الفلك وبعض ظواهره

حديث القرآن عن منافع النجوم ووظائفها:

في الكتاب العظيم كلام متكرر عن النجوم، وهو يشير باستمرار إلى كونها من آيات الله العظام، في خلقها وكبرها، وسيرها وانتظام أمرها...

والنجوم، بعض خلق الله تعالى، ذكرها في كتابه، وامتن بها على عباده، وأشار إلى جملة من فوائدها، ونبه على الحكمة في خلقها.

وقد فهم قتادة رحمه الله تعالى، وهو تابعي جليل يغلب عليه الاشتغال بالتفسير الذي أخذه عن عبد الله بن عباس حبر الأمة... فهم هذه الحكمة، فبينها في كلام جليل تناقله العلماء وردده المفسرون في كتبهم، حتى لا يكاد يخلو منه كتاب في التفسير[(١)]. قال: «إنما خلق الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوما للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد أخطأ حظه، وقال برأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن أناسا جهلة بأمر الله تعالى قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا...»[(٢)].

---

(١) رواه الطبري مختصرا في جامع البيان، ٢٩/٣، سورة الملك. و ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز، ١٦/٦٢، في السورة نفسها. وابن كثير في تفسيره، ٢/٢٠٢، الأنعام آية ٩٧؛ ٣/٤٦١، النمل ٦٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، ١٨/١٣٨، الملك. والبقاعي في نظم الدرر، ٧/٢٠٣. أما قتادة بن دعامة الدوسي فتابعي كبير في التفسير والحديث والعربية، وكان ضريرا. توفي سنة ١١٨هـ، الأعلام، ٦/٢٧.

(٢) تمام الخبر بعد قليل. وقد رواه الطبري في تفسيره، ٢٩/٣. والخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٨٧.

ولنفصل الآن الكلام في هذه الفوائد والحكم من خلق النجوم:

١ ـ خلق الله تعالى النجوم رجوما للشياطين:

قال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ الآية الخامسة. وقد قيل في تفسير كون الكواكب رجوما للشياطين: إنا جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون[١]. لكن في الأحاديث الصحيحة أن الشياطين ترمى بشهب ـ هي كواكب أو شعل منها ـ لما تحاول الصعود إلى السماء وتلقف أخبار المستقبل. وهذا نص القرآن أيضا في مواضع متعددة[٢]. وكل هذا سبق لي أن فصلته في كتابي عن الكهانة فلا أعيده هنا.

٢ ـ الوظيفة الجمالية للنجوم:

وقد نص عليها القرآن في مواضع: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝﴾ ق، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ الحجر ١٦. ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝﴾ الصافات ٦. والمعنى: «زينا السماء بتزيين الكواكب، أي بحسن الكواكب»[٣]، فالكواكب جميلة في نفسها، وتضفي على السماء جمالا آخر. يقول سيد قطب ـ ولا أفضل من الأديب يشرح مثل هذا الأمر ـ: «ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء. فكل شيء فيه بقدر، وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة؛ وهو في مجموعه جميل.

والسماء، وتناثر الكواكب فيها، أجمل مشهد تقع عليه العين. ولا تمل طول النظر إليه. وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره؛ وكأنه عين محبة تخالسك النظر؛ فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت؛ وإذا أنت التفت

---

(١) الكشاف، ٤/١٣٦. مفاتيح الغيب، ٣٠/٦١.

(٢) منها: الحجر، آيات ١٦ إلى ١٨. الصافات، ٦ إلى ١٠. فصلت ١٢. سورة الجن.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٤٤. وقراءة الجمهور بجر الكلمتين على الإضافة.

عنها أبرقت ولمعت! وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآنا بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبدا!»[١].

وهذه اللفتة إلى جمال السماء «تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون. فليست الضخامة وحدها، وليست الدقة وحدها، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعا، وينشأ من تناسقها جميعا»[٢].

وبينما يدعونا سيد قطب فقط إلى التفرج على السماء، وخصوصا بالليل، فإن الفخر الرازي - على عادته رحمه الله تعالى - لا بد أن يبين كيف تكون الكواكب زينة للسماء، فذكر في ذلك وجوها: الأول أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها، وضوء الكواكب هو جمالها وجمال السماء الذي ينعكس فيها. الثاني: يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها. الثالث: يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوع الكواكب وغروبها. الرابع: إن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر[٣].

وكل هذه الوجوه واردة، بل توجد غيرها، فإن في منظر السماء في صفاء الليل جمالا أخاذا لا تجد له مثيلا في صور الجمال التي نعرف، والعلم يكتشف كل يوم من عجائب السماوات وأفلاكها ما يدهش العقل ويملأ القلب جلالا وروعة. ولكنها العادة - هذا السلاح الخطير - التي تجعل الإنسان لا يتحرك لجمال السماء وزينة الكواكب.

٣ - الاهتداء بالنجوم:

قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ الأنعام ٩٧ .

يقول الطبري: المعنى «والله الذي جعل لكم أيها الناس النجوم أدلة في البر

(١) في ظلال القرآن، ٧/٤٧ - ٤٨. الصافات ٦.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/١٩٦. الحجر ١٥.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٦/١٢١، الصافات ٦.

والبحر إذا ضللتم الطريق أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها»[١]. وقال القاضي ابن عطية: «هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة. وجعل هنا بمعنى خلق. . و ﴿فِي ظُلُمَٰتِ﴾، هي هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس»[٢]. فهذا معنى الآية، لا أن النجوم يهتدى بها في علم الغيب، كما يعتقد المنجمون[٣]. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا الاهتداء بالنجوم علم يحتاج إلى معرفة بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها[٤]. فهذا الاهتداء علم أو يتوقف على علم.

وقد امتن الباري جل وعلا على الناس بأن جعل لهم في الأرض والسماء ما يعرفون به طريقهم إذا احتاروا وضلوا، فقال مبتدئا بذكر نعمة البحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ النحل، ١٤ إلى ١٦.

وجملة ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، وهي الجبال. قال الرازي: «والتقدير: وألقى في الأرض سبلا. ومعناه أنه تعالى أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم. . . واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلا معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده، فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، وهي أيضا معطوفة على قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، والتقدير: وألقى في الأرض رواسي وألقى فيها أنهارا وسبلا وألقى فيها علامات»[٥].

ثم اختلف أهل التفسير في المقصود بالعلامات، فقال ابن الكلبي هي الجبال،

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٧٤. وانظر معالم التنزيل، ٣/ ١٧١.

(٢) المحرر الوجيز، ٦/ ١١٦.

(٣) فتح المجيد، ص ٣٠٥.

(٤) في ظلال القرآن، ٣/ ٣٢٢.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١١.

وقال إبراهيم النخعي ومجاهد: هي النجوم. وعند ابن عباس رضي الله عنه: العلامات معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية الليل[١]. قال ابن عطية: «والصواب إذا قدرنا الكلام غير معلق بما قبله أن اللفظة تعم هذا وغيره، وذلك أن كل ما دل على شيء وأعلم به فهو علامة. وأحسن الأقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنه، لأنه عموم في المعنى، فتأمله»[٢]. ولذلك قال الزمخشري: العلامات «معالم الطرق، وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل، وغير ذلك»[٣].

وإنما يكون الانتفاع بمثل هذه العلامات في النهار، أما في الليل فالغالب أنه لا ينتفع بها، ولذلك ذكر الله تعالى النجم وقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. قال ابن عاشور: «هذه منة بالاهتداء في الليل، لأن السبيل والعلامات إنما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلا؛ فمواقع النجوم علامات لاهتداء الناس السائرين ليلا تعرف بها السماوات، وأخص من يهتدي بها البحارة لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة، فهم مضطرون إلى السير ليلا، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ تقديما يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾»[٤].

والمراد بالنجم عند الجمهور: الجنس[٥]. وقال الفراء: المقصود هو الجدي والفرقدان. وقيل: النجم هنا هو القطب[٦]. وقيل الثريا، وقيل غير ذلك[٧]. وصحح ابن عطية مذهب الجمهور[٨].

والظاهر الإطلاق، فإن النجوم كثيرة، وما يهتدى به منها كثير، ولا يزال

---

(١) راجع: المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧٠. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٦١.
(٢) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧٠.
(٣) الكشاف، ٢/ ٤٠٤.
(٤) التحرير والتنوير، ١٤/ ١٢٢.
(٥) انظر الكشاف، ٢/ ٤٠٤.
(٦) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧١. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٦١. إرشاد العقل السليم، ٣/ ١٦٧. التحرير والتنوير، ١٤/ ١٢٢.
(٧) أحكام القرآن، لابن العربي، ٣/ ١٢٨. مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١١.
(٨) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٧١.

الإنسان يكتشف كل يوم نجما جديدا قد يعينه على شيء، فهو يهديه. أما استفادة الناس من هذه النجوم في الاهتداء فأمر جد متفاوت، لذلك يقول ابن العربي بعد أن حكى الأقوال المتقدمة: «فأما جميع النجوم فلا يهتدي بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والمفرق بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخرين. وأما الثريا فلا يهتدي بها إلا من لا يهتدي بجميع النجوم. وإنما الهدي لكل أحد بالجدي والفرقدان، لأنهما من النجوم المنحصرة المطلع، الظاهرة السمت، الثابتة في المكان»[1].

وكذلك فإن الاهتداء بالنجوم يكون في البر والبحر، كما في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. قال الرازي: ومن المفسرين «من قال قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مختص بالبحر، لأنه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم. ومنهم من قال: بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر. وهذا القول أولى، لأنه أعم في كونه نعمة، ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معا»[2].

وظاهر الآية يفيد أن الاهتداء بالنجوم يكون في الأسفار، وهو قول الجمهور. وقيل يهتدى بها في تحديد القبلة[3]. وسياق الآية يقوي القول الأول، لكن لا يبعد أن يشمل عموم اللفظ القولين معا، فلا تعارض بينهما.

وقد قيل إن الآية امتنان على قريش، فقد «كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا»[4]. والصحيح العموم، فإن الحاجة إلى الاهتداء في الطريق والاستفادة بالنجوم والعلامات... أمر عام في البشرية، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ولذلك يقول سيد قطب: «﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾... ومتاهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم. كانوا كذلك وما يزالون. تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة.

---

(١) أحكام القرآن، ٣/١٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/١١ ـ ١٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/٦١.

(٤) الكشاف، ٢/٤٠٥.

وتبقى القاعدة ثابتة: قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام في ظلمات البر والبحر. سواء في ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر. ويبقى النص القرآني الجامع يخاطب البشرية في مدارجها الأولى بهذه الحقيقة، فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله»[١].

وها هو الإنسان الذي لم يعد يسافر فقط في بر الأرض وبحرها، بل أيضا في الفضاء وعبر الكواكب.. يستهدي بالنجوم ويستعين بها. وربما ليس بعيدا ذلك اليوم الذي سيسافر فيه الإنسان إلى خارج مجموعتنا الشمسية، حين يأذن الله تعالى بذلك، وسيجد في طريقه أن النجوم هي من يرسم له الطريق، ذهابا وإيابا.

ولما كانت هذه المنة من أعظم المنن على البشر وأجلها، قال تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

منافع النجوم غير منحصرة:

وصنيع بعض المفسرين بحصر هذه الفوائد في ثلاثة.. ظاهر لا يؤخذ به حرفيا. وقد تقدم أن أول من قصر فوائد النجوم على الثلاثة المذكورة هو قتادة، ثم تبعه على ذلك مفسرون كثر، فقال ابن عطية ـ بعد ذكره للمنافع الثلاثة ـ: «الواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه من قول أهل التأثير باطل واختلاق على الله وكفر به»[٢].

وفي ظني لم يقصد قتادة الحصر الحقيقي، بل كان مراده الرد على المنجمين الذين يتصورون للنجوم وظائف ما أنزل الله بها من سلطان، فنبه على أن في القرآن الكريم ذكرا لفوائد النجوم ـ وهي ثلاثة فيما انتهى إليه علمه ـ، وليس بينها ما يدعيه أصحاب التنجيم. وكلام قتادة يشعر بهذا الذي قلته، ولذلك أنقله للقارئ بطوله: «إن الله ـ تعالى ـ إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها نهتدي بها، وجعلها رجوما للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد أخطأ حظه، وقال رأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناسا جهلة

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ٣٢١. الأنعام ٩٧. أو يكون الامتنان أولا على قريش، لأنهم المخاطبون بالوحي في البداية، ثم يكون على الناس جميعا لعموم اللفظ.

(٢) المحرر الوجيز، ٦/ ١١٦. الأنعام ٩٧.

بأمر الله ـ تعالى ـ قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من النجوم نجم إلا يولد به الطويل والقصير، والأحمر والأبيض، والحسن والذميم. وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله ـ تعالى ـ أنه ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

ولعمري لو أن أحدا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله ـ تعالى ـ بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، فأكل منها رغدا حيث شاء، ونهاه عن شجرة واحدة، فما زال به البلاء حتى وقع بما نهي عنه، ولو كان أحد يعلم الغيب لعلمه الجن حين مات نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ . . . »[١]

وهذه الجمل ـ كما قال ابن كثير ـ كلام جليل متين صحيح[٢]. وكذا قال محمد بن كعب القرظي المفسر: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا، ويتخذون النجوم علة[٣].

ولذلك حين تعرض الرازي لشرح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ ذكر أن منافع النجوم كثيرة، منها ـ غير الثلاثة التي تقدمت ـ أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء. . وهي مسؤولة أيضا عن تفاوت في أحوال الفصول الأربعة.[٤]. ثم كما «يمكن أن يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر، فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه»[٥]. قال الرازي: «وذلك لأن هذه الكواكب نظرا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين، وسير معين، تدل على أن صانعها قادر. ونظرا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسببا لانتفاعهم بها، تدل على أن صانعها عالم»[٦].

---

(١) هذا لفظ الخطيب أورده في «القول في علم النجوم»، ص ١٨٥ ـ ١٨٦. وله تتمة لم أذكرها، لأنها استطراد لانحتاجه هنا.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٦١. النمل ٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٣٨. الملك آيات ٧ إلى ١١.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦١. الملك.لا أناقش النص من حيث صحته العلمية، بل غرضي أن أثبت أن بعض المفسرين رأوا في النجوم غير الفوائد الثلاثة التي ذكرها قتادة.

(٥) مفاتيح الغيب، ١٣/ ١٠٧. الأنعام ٩٧.

(٦) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٠، الملك.

والاهتداء بالنجوم اهتداء «في الظلمات الحسية الواقعية، وفي ظلمات العقل والضمير. والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم»(١).

ولبعض الكواكب، خصوصا الشمس والقمر، وظيفة أخرى هي حساب الزمن على أساس دوراتها وحركاتها، كما قال ابن أبي الرجال في منافع النجوم:

منها علامات بفضل الباري … يهدى بها في الليل والنهار

والشمس والبدر له حسبان … تحصى بها السنون والأزمان(٢)

والقرآن حين يذكر للنجم وظيفة أو فائدة، فليس للحصر، بل بحسب ما يقتضيه السياق. قال أبو السعود - في قول الباري: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ - : «التقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم، لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط، بل على طريقة إفراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر حسبما يقتضيه المقام»(٣).

ولذلك يقول جمال الدين القاسمي، عالم الشام ومحدثها في زمنه: «قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه. .أقول: مراده اعتقاد مناف للعقد الصحيح لا اعتقاد حكم وأسرار غير الثلاث فيها، إذ فوائد المكونات غير محصورة، وذكر حكمة في مكون لا ينفي ما عداها، فافهم!»(٤).

عظمة النجوم، وقسم الله بها:

يقول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ غافر ٥٧ .

قال ابن القيم في الآية: «لا ريب أن خلق السماوات والأرض من أعظم الأدلة

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ٣٢٢. الأنعام ٩٧.

(٢) منظومة في التنجيم، مخطوط، ص ٢٣١. ولعل هذا البيت من الحق القليل في هذا النظم.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٢١ - ١٢٢.

(٤) محاسن التأويل ، ٦/ ٢٤٣٢، الأنعام ٩٧.

على وجود فاطرهما وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية... والله سبحانه إنما يدعو عباده إلى النظر والفكر في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها وبديع عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع مجال الفكر والنظر في أرجائها»[١].

ولذلك ذكر الله سبحانه النجوم والكواكب في مواضع متعددة، وأقسم بها. قال تعالى في سورة التكوير: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾، آيات ١٥ إلى ١٩ . والخنس الجوار الكنس هي النجوم في أحد قولين[٢]. والمعنى أنها تخنس بالنهار وتختفي، وتظهر بالليل. وقيل هي الكواكب السبعة[٣]. وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى، وسماها القرآن خنسا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق، ثم تخنس، أي تتأخر، وكنوسها استتارها في مغربها. ولذلك تسمى هذه الكواكب بالمتحيرة، فهي تسير مستقيمة وراجعة[٤].

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾[٥]، وفي سورة الواقعة: ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ آيات ٧٥ إلى ٧٨ .

وقد ذكر المفسرون في معنى المواقع أقوالا[٦]:

١ ـ المواقع هي المشارق والمغارب، أي أماكن طلوع الكواكب وغروبها، فإن عندها سقوط النجوم.

٢ ـ مواقع النجوم بروجها ومنازلها، وهي مواضعها في السماء.

٣ ـ مواقعها في اتباع الشياطين.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ، ٤/٥٦٦.

(٣) القول في علم النجوم، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٠.

(٥) راجع في تفسير الآية: الجامع لأحكام القرآن ، ١٧/ ٥٥ إلى ٥٧. مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٦) مفاتيح الغيب،٢٩/١٨٩. الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ١٤٥. المفهم، ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢. حديث النوء. مفتاح دار السعادة، ص ٥١٢. فتح المجيد، ص ٣١٥

٤ ـ هو انكدارها وانتثارها يوم القيامة.

٥ ـ المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما، أي أجزاء إلى السماء الدنيا، ومنها إلى النبي ﷺ.

٦ ـ الأنواء.

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقع، والموقع المفعل من وقع يقع موقعا، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك»[١].

وهذا أيضا رأي الزمخشري، وذكر القول الثاني ـ البروج والمنازل ـ احتمالا. قال: «﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها، ولعل الله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة، أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾، أو أراد بمواقعها منازلها ومسايرها. وله تعالى في ذلك من الدليل على عظمة القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف»[٢].

وقد تابعه النسفي على القول الأول[٣]، أي المواقع هي المغارب، ونسبه النووي إلى الجمهور[٤]. فالظاهر إذن أن معنى المواقع: مغارب النجوم، أو بروجها ومنازلها.

ثم يقول تعالى ذكره: وإن هذا القسم الذي أقسمت لقسم ـ لو تعلمون ما هو وما قدره ـ عظيم. وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عظمه[٥].

---

(١) جامع البيان، ٢٧/ ١٠٥.

(٢) الكشاف، ٤/ ٥٨.

(٣) مدارك التنزيل، ٤/ ٢٢٠.

(٤) المنهاج، شرح صحيح مسلم، ٢/ ٥٤، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

(٥) جامع البيان، ٢٧/ ١٠٥.قوله تعالى (لا أقسم): للمفسرين في تأويله طريقان:

وجواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾، كأنه قال: فلا أقسم بمواقع النجوم، إن هذا القرآن لقرآن كريم[1]. واستظهر الرازي أن المقسم عليه هو أمر التوحيد والحشر[2].

ويكفي لإدراك عظمة القسم مشاهدة السماء، وخصوصا بالليل، لكن لا ريب أن العلم يساعد أكثر على هذا الإدراك، ولذلك لم يكن المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل الذي يدركونه بعيونهم، فأما «نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به، نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون. وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم.

وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة، المحدودة المناظير، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا، مجموعة واحدة ـ هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم!

ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه. هذه كلها تسبح في الفلك الغامض؛ ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب

= الأول: وهو قول الأكثر، لا: صلة، وهي مزيدة ومؤكدة. والمعنى: فأقسم، بدليل قوله في الآية نفسها: (وإنه لقسم)، وبدليل قراءة الحسن البصري وغيره: فلأقسم، بمعنى فلأنا أقسم بذلك. راجع الكشاف، ٤/٥٨. الجامع لأحكام القرآن، ١٧/١٤٤.

الثاني: لا نافية، والمعنى لا أقسم على هذا الأمر لوضوحه وظهوره، فهو أوضح من أن يحتاج إلى قسم أو تأكيد. انظر مفاتيح الغيب، ٢٩/١٨٧.

(١) جامع البيان، ٢٧/١٠٥. وانظر الجامع لأحكام القرآن، ١٧/١٤٥. وفي فتح المجيد، صفحة ٣١٦: «المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن ـ من وجوه.. إن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة. وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس. والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول».

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/١٩١.

آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة. وهو احتمال بعيد، وبعيد جدا، إن لم يكن مستحيلا .

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته، قد وضع هناك بحكمة وتقدير. وهو منسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب، لتتوازن هذه الخلائق كلها في هذا الفضاء الهائل.

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم، وهو أكبر كثيراً جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة. وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم!»[١] .

وقد حدثني صديق لي باحث في علم الإحياء ـ البيولوجيا ـ أنه يوجد فرق هام وواضح بين علماء الفلك وعلماء البيولوجيا، فالأكثرية الساحقة للفلكيين تؤمن بالله سبحانه، والإلحاد فيهم نادر. بينما اللادينيون في علماء البيولوجيا الغربيين كثر. وهو فسر ذلك بأن علماء الفلك يدرسون النجوم والأفلاك، ويستعملون المراصد، والزمان والمكان الفلكيان هائلان، فيرون آثار عظمة الخالق فتمتلأ قلوبهم إجلالاً له، ولذلك قلما يوجد فيهم ملحد. بينما البيولوجي يتعامل مع مادة محدودة في الزمان والمكان، وهي بين يديه يدرسها ويقلبها كيف يشاء، وهذا يعطيه إحساساً بالسيطرة على المادة والتحكم فيها، ولذلك يسقط في الإلحاد أو اللادينية أو ما شابه ذلك. فسبحان القائل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وكما أقسم الله تعالى بالنجوم ومواقعها على العموم، فإنه سبحانه يقسم أحيانا بنجم واحد، أو مخصوص، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، أول سورة الطارق. والطارق وصف مشتق من الطروق، وهو المجيء ليلا، فكل ما أتاك ليلا سواء كان كوكبا أو غيره فهو طارق[٢]. قال ابن عاشور: «وأبهم الموصوف بالطارق ابتداء، ثم زيد إبهاما مشوبا بتعظيم أمره بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾. ثم بين بأنه ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ ليحصل من ذلك مزيد

(١) في ظلال القرآن، ٧/٧٠٦.
(٢) مفاتيح الغيب، ٣١/١٢٧. التحرير والتنوير، ٣٠/٢٥٨.

تقرر للمراد بالمقسم به، وهو أنه من جنس النجوم شبه طلوع النجم ليلاً بطروق المسافر الطارق بيتا بجامع كونه ظهورا في الليل»[١].

والثقب خرق شيء ملتئم، وهو هنا مستعار لظهور النور في خلال ظلمة الليل[٢]. ولذلك قال ابن عباس: الثاقب المضيء. واعتبر بعضهم أن النجم المقصود هو الشهاب الذي يرسل إلى

الشياطين[٣]، لأن «الشهاب ينقض فيلوح كأنه يجري في السماء، كما يسير السائر إذا أدركه الليل»[٤]. وقيل هو النجم الذي يظهر عقب غروب الشمس، واسمه الشاهد. وقيل هو الثريا، أو زحل. وقيل أيضا هو النجم مطلقا، لأن النجوم كلها ثاقب[٥].

القسم بالنجوم ليس سببا لتعظيمها بل دليل على جلال خالقها:

قال ابن تيمية في قسم الباري بالنجوم: «هو كإقسامه بغير ذلك من مخلوقاته، كما أقسم بالليل والنهار، والشمس والقمر، وغير ذلك: يقتضي تعظيم قدر المقسم به، والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة، والمنفعة للناس، والإنعام عليهم، وغير ذلك؛ ولا يوجب ذلك أن تتعلق القلوب به، أو يظن أنه هو المسعد المنحس، كما لا يظن ذلك في ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، وفي ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾، وفي ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾، وأمثال ذلك»[٦].

وقال ابن القيم في آية ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ واستدلال المنجم بها: «إن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب وهو قول الأكثرين فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع، فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده، كما أنه وحده المتفرد بخلقها وإبداعها، وما تضمنته من الآيات والعجائب فالإقسام بها

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/٢٥٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٣٠/٢٥٩.
(٣) تفسير ابن كثير، ٤/٥٨٩.
(٤) التحرير والتنوير، ٣٠/٢٦٠.
(٥) التحرير والتنوير، ٣٠/٢٥٩ ـ ٢٦٠. مفاتيح الغيب، ٣١/١٢٧. مفتاح دار السعادة، ص ٥١٣.
(٦) الفتاوى، ٣٥/١٧٧.

أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية ونوعي المعطلة»[١].

فهذا القسم كقسم الله تعالى بالضحى والفجر والليالي العشر والشفع والوتر واليوم الموعود والنفس والمرسلات والعاصفات والنازعات. وما نبصره وما لا نبصره من كل غائب عنا وحاضر مما فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته وحكمته وتنوع خلقه ودلالته على عظمته وكبريائه[٢]:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلا دلالة فيها على ما يدعيه المنجمون من أفعال الكواكب وآثارها على الناس.

البروج والمنازل:

وقد وصف القرآن السماء بأنها ذات أبراج، وذكرها الله سبحانه في مقام تفخيم شأنها والامتنان بها على عباده، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ الحجر ١٦. وأقسم بها الباري فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾. أول سورة البروج.

وفي تفسير البروج أقوال:

١ ـ البروج هي النجوم العظام، وقيل النجوم مطلقا، سميت بروجا لظهورها وارتفاعها، لأن أصل البروج في اللغة هو الظهور[٣]. والعرب تسمي البناء المرتفع برجا، قال ابن القيم: وهذا قول أكثر السلف[٤].

٢ ـ البروج هي هذه الاثنا عشر برجا المشهورة، أولها الحمل، وآخرها الحوت[٥]. وهذا حكاه الخطيب عن عبد الله بن عباس[٦]. وقال ابن القيم هو قول كثير من

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص٥١٣.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٠.

(٣) مفاتح الغيب، ٣١/١١٤، سورة البروج. تفسير ابن كثير، ٤/٥٨١، البروج. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/٨، سورة الحجر آية ١٦.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٥.

(٥) مفاتيح الغيب، ٣١/ ١١٤. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/٨.

(٦) القول في علم النجوم، ص ١٤٠.

المتأخرين من أهل التفسير[١]. وقيل هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها[٢].

قال الرازي: «وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة، وذلك لأن سير الشمس فيها، ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس، فيدل ذلك على أن لها صانعا حكيما»[٣].

٣ ـ البروج منازل القمر، أقسم بها الباري لما في سير القمر وحركته من الآثار العجيبة[٤]. ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزلها كل شهر، فإذا سار فيها واحداً واحداً فعاد إلى وضعه الأول، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ يس: ٣٩[٥].

فهذه المنازل هي المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر، وأماراتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف، وضع لها العرب أسماء خاصة، فأول ليلة من ليالي الهلال للشرطان، ثم العواء، فالسماك الأعزل. .وهذه المنازل منقسمة على البروج الاثني عشر التي تحل فيها الشمس في فصول السنة، فلكل برج منها منزلتان وثلث، فالأبراج غير المنازل. وإنما سميت ليالي الشهر القمري بالمنازل، لأنها سموت يلوح للناس القمر كل ليلة في سمت منها، كأنه ينزل بها. فهذا مجاز بالمشابهة[٦]. وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يونس ٥ .

المطر في حديث النوء.

في حديث لزيد بن خالد الجهني، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٥١٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٥/١٩٦، وهو رأي المؤلف.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣١/١١٤.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣١/١١٤.

(٥) راجع منازل القمر وأسماءها بتفصيل في: القول في علم النجوم، ص١١٣ إلى١٣٩. وهذا التفسير حكاه الخطيب عن ابن عباس.

(٦) التحرير والتنوير، ١١/٩٥.

بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب[(١)].

وقوله (إثر سماء): أي عقب سقوط مطر، والعرب تسمي المطر سماء، لأنه منها نزل، وكل جهة علو تسمى سماء. وقوله (فلما انصرف النبي) معناه: انصرف من صلاته أو من مكانه، والأول أظهر[(٢)].

وحديث النوء من أصح الأحاديث القدسية التي خرجها الحفاظ. وفيه اختلاف قليل في لفظة النوء، أعني من جهة المعنى.

النوء مفرد أنواء، وأصله في اللغة النهوض بثقل، يقال ناء بكذا أي نهض به متثاقلا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، القصص ٧٦، أي لتثقلهم عند النهوض بها[(٣)]. ثم ذهب الناس في تفسيره في الحديث إلى قولين:

١ ـ النوء كوكب، والأنواء ثمانية وعشرون نجما معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها. قالوا: وفي كل ثلاث عشرة ليلة يسقط منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر مقابله في المشرق من ساعته. وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط النجم الساقط ناء الطالع أي نهض، وذلك النهوض هو النوء[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، حديث ٨٤٦. وفي كتاب الاستسقاء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، حديث ١٠٣٨. وفي كتاب المغازي، باب ٣٥، حديث ٤١٤٧. وفي كتاب التوحيد. ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث ١٢٥. وأبو داود في الطب. والنسائي في الصلاة والاستسقاء. وأحمد في مواضع. ورواه أيضا مالك في الموطأ، باب الاستمطار بالنجوم.. وغيرهم كثير، وفي مواضع كثيرة، فإنه من الأحاديث المعروفة.

(٢) انظر: معالم السنن شرح سنن أبي داود، للخطابي، ٤/ ٢١٣. المفهم، ١/ ٢٥٨. الكواكب الدراري، شرح صحيح البخاري، للكرماني٥/ ١٩٤. فتح الباري، ١/ ٢١٩. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧. المسوى شرح الموطأ، للدهلوي، ٢/ ٤٢٣. عون المعبود شرح أبي داود، للطيب آبادي، ١٠/ ٤٠١. دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، لابن علان، ٤/ ٥٦١. فتح المجيد ٣١٣.

(٣) المفهم، للقرطبي، ١/ ٢٦٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، مادة نوء، ٤/ ١٩٠. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، ٢/ ٥٣. الكواكب الدراري، ٥/ ١٩٥. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧. دليل الفالحين، ٤/ ٥٦٢.

وقيل أراد بالنوء الغروب. وهو من الأضداد. قال أبو عبيد: لم نسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع[١]. يعني في الحديث. فيقال للأنجم الساقطة في الغرب الأنواء، وللطالعة في الشرق البوارح[٢].

٢ - النوء منزلة، والأنواء هي منازل القمر الثمانية والعشرين[٣]. قال الخطابي: «كانوا يزعمون أن القمر إذا نزل بعض تلك الكواكب مطروا، فأبطل النبي قولهم، وجعل سقوط المطر من فعل الله سبحانه دون فعل غيره»[٤].

ولذلك قال ابن الصلاح: النوء في أصله ليس نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوءا إذا سقط وغاب، وقيل أي نهض وطلع[٥].

وعلى هذا فالنوء وقت وزمان. ولا تخالف كبيرا بين الحديثين، لأن القول الأول نظر إلى النجم الساقط، والآخر نظر إلى زمان السقوط الذي تحدده المنزلة الجديدة التي انتقل إليها الكوكب.

والمقصود أن أهل الجاهلية كان من عادتهم أن يضيفوا المطر إلى الكوكب، ولا ينسبونه إلى الله سبحانه، وهو المنعم عليهم بالغيث والماء، بل قد يظنون أن النجم هو الذي يمطرهم ويسقيهم، على وجه الحقيقة؛ فكانوا إذا سقط نجم وطلع آخر قالوا لا بد أن يكون عند ذلك مطر أو ريح. فإذا أمطروا قالوا بنوء كذا، أي المطر كان من أجل أن الكوكب ناء، وأنه هو الذي أهاجه، بل هو الذي أوجده واخترعه وأنزله. فكان عندهم مثلا نجم الدبران، وهو كوكب أحمر صغير منير،

---

(١) النهاية، ٤/ ١٩٠. المنهاج، ٢/ ٥٣. والظاهر أن أبا عبيد هنا هو القاضي علي بن الحسين (٣١٩هـ)، له تصانيف. الأعلام، ٥/ ٨٧.

(٢) المنهاج، للنووي، ٢/ ٥٣.

(٣) معالم السنن، ٤/ ٢١٤. النهاية في غريب الحديث، ٤/ ١٩٠. المسوى، ٢/ ٤٢٣. فتح المجيد، ص ٣٠٩.

(٤) معالم السنن، ٤/ ٢١٤، كتاب الطب. أحمد بن إبراهيم الخطابي البستي، برز في فقه الحديث. توفي سنة ٣٨٨هـ. عن معجم المؤلفين، ٢/ ٦١.

(٥) ذكره عنه: النووي في المنهاج، ٢/ ٥٣. والعيني في عمدة القاري، ٦/ ١٣٧. وصديق خان القنوجي في السراج الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٨/ ٣٨٤. والشيخ ابن علان في دليل الفالحين، ٤/ ٥٦١. وابن الصلاح هو عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، الكردي. عاش بالشام (٦٤٣هـ)، محدث جليل، اشتهر بمقدمته في مصطلح الحديث. الأعلام، ٤/ ٣٦٩.

غير محمود، أما نجم الشعرى فحسن وممطر. فلذلك أمرهم الله عز وجل أن يضيفوا المطر إليه ويفردوه بالشكر، لأنه هو من خلقه وأنزله، سبحانه[(١)].

وبهذا فسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، الواقعة ٨٢. أي ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: يقول شكركم، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، ونجم كذا وكذا[(٢)]. وإلى هذا جنح البخاري[(٣)]. وقيل التقدير تجعلون شكر رزقكم[(٤)].

وفائدة الحديث بالنسبة إلى ما نحن فيه، هو أنه ينفي عن الكواكب التأثيرات المزعومة لأهل التنجيم.

الدين وظاهرة الكسوف.

إن التنجيم يرصد كل ما أمكن له من حركات الأفلاك وتغيراتها وأوضاعها. ولذلك لا عجب إن كان رأى أن ظاهرة نادرة ككسوف الشمس - أو خسوف القمر -[(٥)]، لها دلالات جمة وآثار على الأرض والناس كثيرة.

ومن وجوه عظمة دين الإسلام أنه بين للناس أن هذه الظاهرة - وإن كانت لا تحدث إلا على الندور في الزمان - ظاهرة طبيعية، وهي - مثل كل شيء في الكون - من أمر الله تعالى وحده، ولذلك فلا علاقة لها بحياة البشر وقضاياهم.

وقد قدر الله سبحانه - لبيان هذه الأمور - وقوع كسوف للشمس في عهد النبي ﷺ، في السنة العاشرة للهجرة[(٦)]. وكان فرصة أيضا لتعليمنا صلاة خاصة، هي صلاة الكسوف.

---

(١) راجع: المفهم، ١/ ٢٦٠. الكواكب الدراري، ٥/ ١٩٥ (كتاب الأذان)؛ ٦/ ١٢٤ (كتاب الاستسقاء). فتح الباري، ١/ ٢٢٠. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧.

(٢) فتح المجيد، ص ٣٠٩. وهذا رأي الأكثر، لأن في رواية لمسلم أن سبب نزول الآية هو قول الناس مطرنا بنوء كذا، في مطر أمطروه.

(٣) لأنه قال: باب قول الله تعالى، (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)، ثم ذكر حديث النوء، وفقه البخاري وآراؤه في تراجمه، كما هو معلوم.

(٤) المفهم، ١/ ٢٦١. المنهاج، ٢/ ٥٤.

(٥) راجع في التصور السائد قديما للكسوف، وهو على العموم سليم: المواقف وشرحها، ٢/ ٤٦١ إلى ٤٦٣. مفتاح دار السعادة، ص ٥٢٧ فما بعدها.

(٦) أثبت الحساب الفلكي اليوم أنه فعلا حدث كسوف في منطقة الحجاز، في الزمن الذي أخبر به الحديث.

روى الأئمة أن الشمس كسفت على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»[١].

وفي رواية ابن عمر أن النبي ﷺ قال: إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا[٢].

وإبراهيم - ابن النبي ﷺ - ولد لسنة ثمان للهجرة، من أمه مارية القبطية. وكان موته تزامن مع حدوث الكسوف، فظن الناس أن ذلك لعلاقة بين الأمرين[٣].

وفي هذا الحديث إبطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأرض[٤]. قال الخطابي: «كانوا في الجاهلية يزعمون أن كسوف الشمس والقمر يوجب حدوث تغييرات في العالم، من موت وضرر ونقص، ونحو ذلك من الأمور، على ما يذهب إليه أهل التنجيم من إعطائها الأحكام وزعمهم أن هذه الأجسام السفلية مربوطة بالنجوم، وأن لها فعلا وتأثيرا فيها، فأعلمهم النبي ﷺ أن الذي كانوا يتوهمونه من ذلك باطل»[٥].

أما الحديث الذي يجعل لكسوف الشمس آثارا في الأرض وفي الحياة البشرية، بحسب الشهر الذي وقع فيه هذا الكسوف، فحديث موضوع[٦].

الكسوف من آيات الله:

ثم بين النبي الكريم أن الشمس والقمر آيتان، فهما «علامتان لقرب القيامة أو لعذاب الله أو لكونهما مسخرتين بقدرة الله تعالى وتحت حكمه»[٧]. قال القرطبي -

---

(١) هذا لفظ البخاري في الصحيح عن المغيرة بن شعبة، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، وهو الباب الأول، حديث ١٠٤٣. وفي الباب نفسه روايات أخرى عن أبي بكرة وأبي مسعود وابن عمر. وقد تقدم تخريجه.

(٢) والأكثر في اللغة أن يقال الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، انظر النهاية في غريب الحديث، ٤/ ٢١.

(٣) انظر حول اتحاد القصتين: فتح الباري، ٣/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) فتح الباري، ٣/ ٢٢٤.

(٥) أعلام السنن شرح صحيح البخاري، للخطابي، ١/ ٣٥٧.

(٦) راجع: اللآلئ المصنوعة في الأخبار الموضوعة، للسيوطي، ١/ ٨٤.

(٧) الكواكب الدراري، ٦/ ١٢٨.

أبو العباس - : « أي دليلان على وجود الحق سبحانه وقهره وكمال الإلهية، وقد خصهما بالذكر لما وقع للناس من أنهما يخسفان لموت عظيم. وهذا إنما صدر عمن لا علم عنده ممن ضعف عقله واختل فهمه. فرد النبي ﷺ عليهم جهالتهم. وتضمن ذلك الرد على من قال بتأثيرات النجوم»[١]. وقال النووي: «قال العلماء: والحكمة في هذا الكلام أن بعض الجاهلية الضلال كانوا يعظمون الشمس والقمر، فبين أنهما آيتان مخلوقتان لله تعالى لا صنع لهما، بل هما كسائر المخلوقات يطرأ عليهما النقص والتغير كغيرهما. وكان بعض الضلال من المنجمين وغيرهم يقول لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو نحو ذلك، فبين أن هذا باطل لا يغتر بأقوالهم لاسيما وقد صادف موت إبراهيم رضي الله عنه»[٢].

(لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)، قال الكرماني: «إن قلت ما فائدة هذه اللفظة، إذ لم يقل أحد بأن الانكساف للحياة، لاسيما هنا، إذ السياق إنما هو في موت إبراهيم... قلت: فائدته دفع توهم من يقول قد لا يكون الموت سببا للانكساف، ويكون نقيضه سببا له، فعمم النفي، أي ليس سببه لا الموت ولا الحياة، بل سببه قدرة الله تعالى فقط»[٣]. ونقل أيضا عن بعض العلماء كلا ما آخر: «وقال أبو الطيب: إن قال قائل أليس رؤية الأهلة وحدوث الحر والبرد وكل ما أجرى الله العادة بحدوثه على وتيرة واحدة آيات، فما معنى التخصيص بهما أنهما آيتان من آيات الله. فالجواب أنها كلها آيات لله ودلالة على قدرته غير أنه ﷺ إنما خص أشرفهما بأنهما آيتان، لإخباره لهم عن ربه بأن القيامة تقوم وهما منكسفان، فأمرهم بالتوبة والصلاة ونحوهما خوفا من أن يكون الكسوف لقيام الساعة. قال المهلب: وكان هذا قبل أن يعلمه الله بأشراط الساعة ومقدماتها»[٤].

---

(١) المفهم، ٢/٥٥٢. والقرطبي هو أبو العباس أحمد بن عمر، محدث مالكي رحل إلى مصر وتوفي بالإسكندرية (٦٥٦هـ). وهو شيخ القرطبي المفسر. الأعلام، ١/١٧٩.

(٢) المنهاج، ٦/١٧٨.

(٣) الكواكب الدراري، ٦/١٢٨، باب الصلاة في كسوف الشمس. وكذلك قال ابن حجر في فتح الباري، ٣/٢٢٦. والكرماني هو محمد بن يوسف البغدادي. شرح المواقف للإيجي، وله حاشية على تفسير البيضاوي. توفي سنة ٧٨٦هـ. عن معجم المؤلفين، ١٢/١٢٩.

(٤) الكواكب الدراري، ٦/١٣١. والغالب أن يكون المقصود بأبي الطيب: الطبري، الفقيه طاهر بن عبد الله. سمع الحديث، وتولى القضاء. وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ. وهو من كبار الشافعية. شرح مختصر المزني، وكتب في طبقات الشافعية. معجم المؤلفين، ٥/٣٧.

=

الكسوف والغيب:

اعتبر علماء الفلك أن الكسوف ظاهرة عادية يمكن توقعها والتنبؤ بها، وذلك بالاستناد على حسابات فلكية معروفة لديهم.

وقد انزعج بعض علمائنا ـ من قديم ـ من هذا القول، ورأوا أن الكسوف ليس ظاهرة عادية أو طبيعية، كحركات القمر ـ مثلا ـ في المنازل المعروفة، أو الشمس في الأبراج الاثني عشر. .ثم إن حدوث الكسوف غيب لا سبيل إلى معرفته مقدما.

كلام ابن العربي:

وهو نموذج لرأي هذه الطائفة الأولى: «كسوف الشمس والقمر أمر يخلقه الله خلاف العادة لما يشاء من معنى فتكون آية. وقالت طائفة هو أمر معقول من جهة الحساب، فأما كسوف الشمس فإن القمر يحول بينها وبين النظر، وأما كسوف القمر فإن الشمس تخلع نورها عليه، فإذا وقع في ظل الأرض لم يكن له نور، وبحسب ما تكون المقابلة ويكون الدخول في ظل الأرض يكون الكسوف من كل أو بعض، وهذا أمر يدل عليه الحساب ويصدق فيه البرهان. قلنا :

كذبتم وبيت الله لا تعرفونها متى حاص حجراها وظل فؤادها

قد قلتم بالبرهان إن الشمس أضعاف القمر في الجرمية بالعقد، فكيف يحجب الصغير الكبير إذا قابله ولا يأخذ منه عشره. وجواب ثان وذلك أن الشمس إذا كانت تغطيه بنورها فكيف يحجب نورها ونوره من نورها، هذا خباط. وجواب ثالث إذا كان نور القمر قليلاً ونور الشمس كثيرًا فكيف يظْلم الكثير بالقليل لاسيما وهو من جنسه أو من بعضه وهو جواب رابع. جواب خامس قلتم إن الشمس أكبر من الأرض بسبعين ضعفاً أو نحوها، وقلتم إن القمر أكبر منها بأقل من ذلك فكيف يقع الأعظم في ظل الأصغر، وكيف يحجب الأرض نور الشمس وهي في زاوية منها. جواب سادس وذلك أنه إن كان كما قالوا إن الشمس تخلع عن القمر نورها فإذا كسفته رأيناه مظلما فهذا يدل على أنه جرم مظلم والنور عرض يعلوه، وعمدتهم أن القمر والشمس نوران محضان لا خلط فيهما، والعيان على قولهم يكذبه برؤية

= أما المهلب، فهو أبو القاسم بن أبي صفرة الأندلسي، أحد الشراح المتقدمين لصحيح البخاري، محدث وفقيه من أهل ألمرية، توفي سنة ٤٣٥هـ. معجم المؤلفين، ٣١/١٣.

جرمه أسود عند الكسوف. جواب سابع وهو الذي يستقيم وذلك أن الشمس لها فلك ومجرى والقمر له فلك ومجرى، ولا خلاف أن واحدا لا يعدو مجراه كل يوم إلى مثله من العام، فيجتمعان ويتقابلان، ولو كان الكسوف لوقوعه في ظل الأرض في وقت لكان ذلك الوقت محدودا معلوماً، لأن المجرى بينهما محدودا معلوما فلما كان يأتي في الأوقات المختلفة والجري واحد والحسبان واحد، علم قطعا فساد قولهم هذا، وأنت ترى القمر مثلثا ومنصفا وهو مع الشمس في الأفق الأعلى والأرض تحتهما، فعلم قطعا أن هذا تخليط لا يقدر له قدر ولا يقبل لقائله عذر. فإن قيل ولم يصدقون في استخراجه قلنا قال الله تعالى ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ وهؤلاء الذين يصدقون في استخراج الغيب من الكهان في ذلك حجة له في التبري من البهتان»[١].

ومال إلى هذا الرأي - أعني رد قول أهل الهيئة - جماعة، منهم: أبو العباس القرطبي، وابن حجر[٢]. وأضاف الحافظ أن في بعض الروايات الصحيحة - كما سيأتي - عن النبي ﷺ أن الله تعالى يخوف بالكسوف والخسوف عباده. قال:

وهذا «فيه رد على من يزعم من أهل الهيئة أن الكسوف أمر عادي لا يتأخر ولا يتقدم، إذ لو كان كما يقولون لم يكن في ذلك تخويف ويصير بمنزلة الجزر والمد في البحر، وقد رد ذلك عليهم ابن العربي وغير واحد من أهل العلم بما في حديث أبي موسى الآتي حيث قال: (فقام فزعا يخشى أن تكون الساعة) قالوا: فلو كان الكسوف بالحساب لم يقع الفزع، ولو كان بالحساب لم يكن للأمر بالعتق والصدقة والصلاة والذكر معنى، فإن ظاهر الأحاديث أن ذلك يفيد التخويف، وأن كل ما ذكر من أنواع الطاعة يرجى أن يدفع به ما يخشى من أثر ذلك الكسوف»[٣].

(١) عارضة الأحوذي، ٣/٣٧ إلى ٤١، كتاب الجمعة، باب ٤٤، حديث ٥٦٠. انظر صورة الكسوف التي ألحقتها بهذا المبحث فهي كفيلة بالرد على كثير من اعتراضات ابن العربي، وإنما ذكرتها لعلاقتها بما بقي من هذا المبحث، وليس لأحد أن يتمسك بها اليوم، بعد أن وصل العلم إلى ما وصل إليه من الكشف والتقدم. وإذا اختار أحد أن يقول إن الكسوف ظاهرة غير طبيعية فليبحث عن أدلة أخرى.

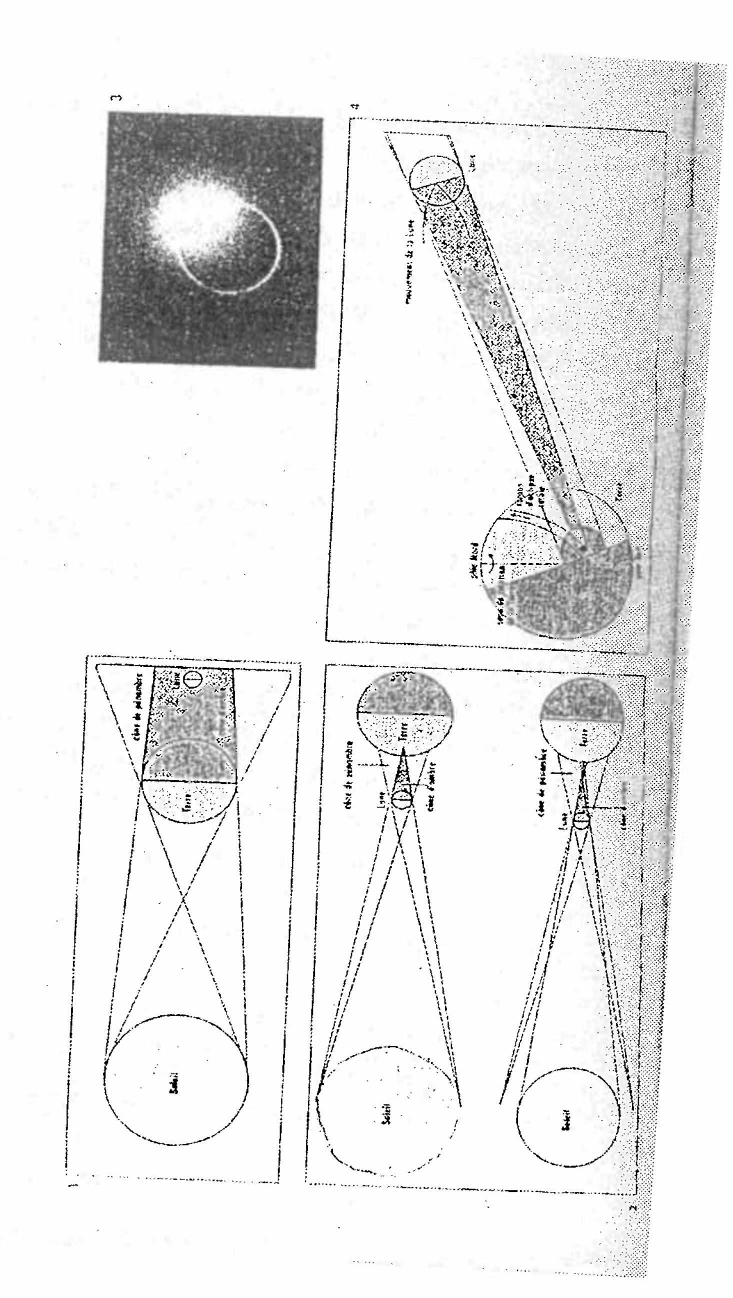
(٢) المفهم، ٢/٥٥٢. فتح الباري، ٣/٢٣٦.

(٣) فتح الباري، ٣/٢٣٦.

رأي ابن تيمية وابن دقيق العيد:

لكن علماء آخرين لم يروا - ألبتة - إشكالاً فيما يقرره علم الهيئة، منهم ابن تيمية، قال: «الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة، كما لطلوع الهلال وقت مقدر، وذلك ما أجرى الله عادته بالليل والنهار، والشتاء والصيف، وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر. . .وكما أن العادة التي أجراها الله تعالى أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين من الشهر، أو ليلة إحدى وثلاثين. . .فكذلك أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار، وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار، ووقت إبداره هي الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها: ليلة الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. فالقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي. . .وللشمس والقمر ليالي معتادة، من عرفها عرف الكسوف والخسوف، كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية أو التي قبلها. لكن العلم بالعادة في الهلال علم عام، يشترك فيه جميع الناس. وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحاسب بذلك من باب الغيب. . . إذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك فلا يكادون يخطئون. . .»[١].

(١) الفتاوى، ٢٤/ ٢٥٤ إلى ٢٥٨.



حـور الكسـوف
(عن موسـوعة pha)

ولابن دقيق العيد كلام يتوافق مع هذا، قال: «قد ذكر أصحاب الحساب لكسوف الشمس والقمر أسبابا عادية، وربما يعتقد أن ذلك ينافي قوله عليه السلام يخوف الله بهما عباده. وهذا الاعتقاد فاسد لأن لله تعالى أفعالا على حسب الأسباب العادية وأفعالا خارجة عن تلك الأسباب. فإن قدرته تعالى حاكمة على كل سبب ومسبب، فيقتطع ما شاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض. فإذا كان ذلك كذلك فأصحاب المراقبة لله تعالى ولأفعاله الذين عقدوا أبصار قلوبهم بوحدانيته وعموم قدرته على خرق العادة واقتطاع المسببات عن أسبابها إذا وقع شيء غريب حدث عندهم الخوف لقوة اعتقادهم في فعل الله تعالى ما يشاء، وذلك لا يمنع أن يكون ثمة أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء الله تعالى خرقها. ولهذا كان النبي ﷺ عند اشتداد هبوب الريح يتغير ويدخل ويخرج خشية أن تكون كريح عاد وإن كان هبوب الريح موجودا في العادة. والمقصود بهذا الكلام أن تعلم أن ما ذكره أهل الحساب من سبب الكسوف لا ينافي كون ذلك مخوفا لعباد الله تعالى، وإنما قال النبي ﷺ هذا الكلام لأن الكسوف كان عند موت ابنه إبراهيم، فقيل إنها كسفت لموت إبراهيم فرد النبي ﷺ ذلك»[١].

الكسوف والتنجيم:

وهذا الفرق بين التوقع الفلكي القائم على الحساب وبين التنجيم مما يخفى على كثير من العامة، خصوصا في القديم، قال ابن تيمية: «من هنا صار بعض العامة إذا رأى المنجم قد أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل يظن أن خبره عن الحوادث من هذا النوع»[٢]. فالتنبؤ بالكسوف عمل قائم على الحساب الرياضي والفلكي، والتنبؤ به لا يعني صحة التنبؤات التنجيمية التي لا أساس لها[٣].

فالكسوف أمر الله سبحانه وآية من آياته التي لا يحصيها سواه، كالمطر والنبات

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ٢/١٣٧ ـ ١٣٨، وهو أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي، شهر بابن دقيق العيد. عالم مشارك في أنواع من العلوم. درس الفقهين المالكي والشافعي، فينسب إليهما معا. ولي قضاء مصر. من كتبه: الاقتراح في علم الحديث. شرح مختصر ابن الحاجب الفقهي، لم يكمل. ديوان خطب.. معجم المؤلفين ١١/٧٠.

(٢) الفتاوى، ٣٥/١٧٥.

(٣) (ملخص رسالة ابن سينا في إبطال التنجيم). A.F. Mehren: Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p15.

والجبال.. وسائر المخلوقات آيات لله تدل عليه وعلى جلاله.. والشمس والقمر آيتان لا ربّان ولا إلهان، ولا ينفعان ولا يضران[١].. قال ابن القيم: «هؤلاء الأحكاميين يموهون على الجهال بأمر الكسوف، ويوهمونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف، فيصدق بذلك الأغمار والرعاع، ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما، وذلك أمر قد أجرى الله تعالى العادة المطردة به، كما أجراها في الإبدار والسرار والهلال، فمن علم ما ذكرناه في هذا الفصل علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وسببه. وأما أنه يقتضي من التأثيرات في الخير والشر والسعد والنحس والإماتة والإحياء، وكذا وكذا مما يحكم به المنجمون، فقول على الله وعلى خلقه بما لا يعلمون»[٢].

ولذلك قال النبي ﷺ: لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. ولهذا أحد معنيين:

الأول: إن موت الميت وحياته لا يكون سببا في انكسافهما، كما اعتقد ذلك بعض العرب، فأخبر النبي الكريم أن موت الإنسان أو حياته لا يؤثر في كسوف الشمس والقمر ألبتة.

الثاني: لا يحصل عند انكسافهما موت ولا حياة، ولا يتسببان فيه[٣].

وأي ذلك كان يبطل التنجيم، لأنه يرد أهم أسسه: وجود علاقة بين أوضاع الكواكب وحوادث الأرض الإنسانية.

التخويف بالكسوف ووجهه:

لما أمر النبي ﷺ بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر، احتاج العلماء إلى تعليل هذا القران بين الأمرين، فقال الخطابي: «أمر عند كسوفهما أن يفزع إلى الصلاة والسجود لله الذي يستحق العبادة والسجود دونهما، إبطالا لقول الجهال الذين يعبدونها وإفسادا لمذاهبهم في عبادتهما، والله أعلم. وقد يحتمل أن يكون المعنى في الأمر بالصلاة عند الكسوف الفزع إلى الله عز وجل، والتضرع له في دفع

(١) مفتاح دار السعادة، ٥٢٦ ـ ٥٢٧.
(٢) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٣٠.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٢٧.

الضرر والآفات التي تتوهمها الأنفس، وتتحدث بها الخواطر، تحقيقا لإضافة الحوادث كلها إلى الله تعالى، ونفيا لها عن الشمس والقمر وإبطالا لأحكامها»[١].

لكن في بعض طرق الحديث أن حالة من الفزع والقلق تملكت النبي الكريم، ولذلك فإن التخويف بالكسوف أمر ثابت، وهو ما صرح به النبي ﷺ حين قال: يخوف بها، أو بهما - أي الشمس والقمر -، عباده. وقد أخذ البخاري هذه الأحاديث في الكسوف وبوبها هكذا: (باب قول النبي ﷺ: يخوف الله عباده بالكسوف. قاله أبو موسى عن النبي ﷺ)[٢]. هكذا بصيغة الجزم.

وقد فسر العلماء هذا التخويف بطريقين تبعا لاختلافهم السابق في أمر الكسوف ما هو:

١ - فعلى رأي ابن العربي ومن ذهب مذهبه وجه التخويف أن «الشمس والقمر إذا أدركه التغير مع علو شأنه وارتفاع مكانه فكل شيء دونه أولى بذلك منه أو مثله، وفي الذي يصيبه من التغيير اليسير الآن علامة وإنذار بما يصيبه من الإفساد الكلي»[٣].

وقال القرطبي: «كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة الله وتمام قهره واستغنائه وعدم مبالاته، وذلك كله يوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وخص هنا خسوفهما بالتخويف، لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان. والنادر العظيم مخوف موجع بخلاف ما يكثر وقوعه، فإنه لا يحصل منه ذلك غالبا»[٤].

ويجوز أيضا أن يكون وجه التخويف بالكسوف احتمال أن يكون مقدمة لأشراط الساعة. وهذا الوجه يصلح أيضا لأصحاب الرأي الثاني، كما ستراه الآن.

---

(١) أعلام السنن، ١/ ٣٧٦.

(٢) هو الباب السادس في كتاب الكسوف من الجامع الصحيح، وحديث أبي موسى الأشعري وصله ابن حجر في الفتح، ٣/ ٢٣٥.

(٣) عارضة الأحوذي، ٣/ ٤١.

(٤) المفهم، ٢/ ٥٥٣. الآية ٢٨ من سورة فاطر. ومعنى: عدم مبالاته، كقوله تعالى: (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، ولا يخاف عقباها). آخر سورة الشمس.

٢ ـ أما على مذهب من يرى أن الكسوف ظاهرة عادية، قابلة للحساب والتوقع، فقد فسر التخويف بوجوه، منها: يخوف الله سبحانه بها عباده الذين لا يعقلون من العوام[1].

ومنها أن الله تعالى يجوز أن يقدر كسوفا عاديا، ويكون مع ذلك من أشراط الساعة، فخاف النبي ﷺ أن يكون الكسوف الحادث هو هذا. قال الخطابي: الشمس والقمر «آيتان من آيات الله الدالة على قرب زمان الساعة، وأمارتان من أماراتها وأشراطها المتقدمة لها، كما قد قال مخبرا عن خسوفهما في يوم القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وقد يكون ذلك أيضا أنه كان يخوف بها الناس ليفزعوا إلى التوبة والاستغفار من الزلل والخطايا، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. ويؤكد ذلك حديث أبي بكرة»[2]. وقال أبو العباس: «نقول يحصل بهما تخويف العقلاء من وجوه متعددة. أوضحها أن ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام ﷺ فزعا يخشى أن تقوم الساعة. وكيف لا، وقد قال الله عز وجل: ﴿﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾. قال أهل التفسير: جمع بينهما في إذهاب نورهما»[3].

ويرى ابن تيمية أن احتمال وجود ضرر على الناس عند الكسوف أمر وارد، إلا أنه لا يقع بالضرورة عند كل كسوف: «(ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده). وهذا بيان منه ﷺ أنهما سبب لنزول عذاب بالناس، فإن الله إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه، وعصوا رسله، وإنما يخاف الناس مما يضرهم، فلولا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، وأمر النبي ﷺ بما يزيل الخوف، أمر بالصلاة والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق، حتى يكشف ما بالناس، وصلى بالمسلمين في الكسوف صلاة طويلة»[4]. وقال: «فإذا كان

---

(١) عارضة الأحوذي، ٣/٤١.

(٢) أعلام السنن، ١/٣٧٦. الآيات من سورة القيامة، ٧ إلى ٩. والأخرى من الإسراء ٥٩.

(٣) المفهم، ٢/٥٥٣.

(٤) الفتاوى، ٢٤/٢٥٩. والآية ٥٩ من سورة الإسراء.

الكسوف له أجل مسمى لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببا لما يقضيه من عذاب وغيره لمن يعذب الله في ذلك الوقت، أو لغيره ممن ينزل الله به ذلك، كما أن تعذيب الله لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت في الوقت المناسب، وهو آخر الشتاء، كما قد ذكر ذلك أهل التفسير وقصص الأنبياء. وكان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة ـ وهو السحاب الذي يخال فيه المطر ـ أقبل وأدبر، وتغير وجهه، فقالت له عائشة: إن الناس إذا رأوا مخيلة استبشروا؟ فقال: يا عائشة! وما يؤمنني؟ قد رأى قوم عاد العذاب عارضا مستقبل أوديتهم، فقالوا ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وكذلك الأوقات التي ينزل الله فيها الرحمة، كالعشر الآخرة من رمضان، والأول من ذي الحجة، وكجوف الليل؛ وغير ذلك هي أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر وينزل فيها من الرحمة ما لا ينزل في غيرها»[1].

إذن يمكن «أن الله سبحانه يحدث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم، ويجعل الكسوف سببا لذلك. ولهذا أمر النبي(عند الكسوف بالفزع إلى ذكر الله والصلاة والعتاقة والصدقة والصيام، لأن هذه الأشياء تدفع موجب الكسف الذي جعله الله سببا لما جعله، فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر بدفع موجبه بهذه العبادات»[2].

رواية التجلي:

وفي أحاديث الكسوف رواية للنعمان بن بشير رضي الله عنه تكشف عن أشياء تصاحب هذه الظاهرة أو تتسبب فيها، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، وإن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له[3].

---

(١) الفتاوى، ٣٥/١٧٦. والحديث من رواية عائشة، اختصره هناك ابن تيمية. وهو عند البخاري في كتاب التفسير ، السورة رقم ٤٦. ورواه مسلم في باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، من كتاب الاستسقاء. ذكره مسلم بروايتين. ورواه أحمد في مسند عائشة في مواضع. والآيات من سورة الإسراء ٥٩. الأحقاف ٢٤.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٠.

(٣) رواه أحمد والنسائي في الكسوف وابن ماجه في كتاب الإقامة. وصححه الحاكم وابن خزيمة، كما في فتح الباري، ٣/٢٣٧، كتاب الكسوف، حديثا ١٠٤٩، ١٠٥٠.

وأهل العلم في هذا الخبر على رأيين:

الأول: رده وعدم تصحيحه. وذلك لأحد سببين:

١- إما لمخالفته للأصول، وهذا رأي أبي حامد الغزالي، قال: إن هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب ناقلها، وإنما المروي ما ذكرنا، يعني الذي ليس فيه هذه الزيادة. قال: ولو كان صحيحا لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية لا تصادم أصلا من أصول الشريعة، وكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تتبين في الوضوح إلى هذا الحد[١]. وهو يعني بالأمور القطعية ما يثبته علم الفلك وحسابه في تفسير الكسوف، وكذا المعاينة، فإننا نرى القمر يتوسط ما بين الأرض والشمس، ولذلك رد ابن حجر التفسير الفلكي للكسوف بهذه الزيادة، من طريق النعمان بن بشير[٢].

٢- وإما لكونه مدرجا من كلام الراوي. قال ابن القيم: ليس الأمر في هذه الزيادة كما قال أبو حامد، فإن إسنادها لا مطعن فيه، ورواتها كلهم ثقات حفاظ، لكن لعل هذه اللفظة مدرجة في الحديث من كلام بعض الرواة، ولهذا لا توجد في سائر أحاديث الكسوف، فقد رواها عن النبي ﷺ بضعة عشر صحابيا، ولم يذكر أحد منهم هذه الزيادة. فمن هنا نخاف أن تكون أدرجت في الحديث إدراجا، وليست من لفظ رسول الله ﷺ[٣].

الثاني: قبوله وتصحيحه. وأيده ابن حجر بما رواه عن طاوس أنه نظر إلى الشمس وقد انكسفت. وقال: هي أخوف لله منا. فبكى حتى كاد أن يموت[٤]. وقال ابن تيمية: «قد طعن في هذا الحديث أبو حامد ونحوه، وردوا ذلك، لا من جهة علم الحديث، فإنهم قليلو المعرفة به.. ولكن من جهة كونهم اعتقدوا أن سبب

---

(١) نقله ابن حجر في فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. وابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٤. والغزالي هو محمد بن محمد الطوسي، المتكلم الفقيه المتصوف، أصله من خراسان، توفي عام ٥٠٥هـ. انظر: الأعلام، ٧/ ٢٤٧.

(٢) فتح الباري، ٣/ ٢٣٧.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٤.

(٤) فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. وطاوس هو ابن كيسان اليمني، الفارسي الأصل. من أجل التابعين، توفي سنة ١٠٦هـ. راجع سير أعلام النبلاء، ٥/ ٣٨.

الكسوف إذا كان ـ مثلا ـ كون القمر إذا حاذاها منع نورها أن يصل إلى الأرض، لم يجز أن يعلل ذلك بالتجلي»[١].

وقال ابن بزيزة عن الغزالي: «هذا عجب منه، كيف يسلم دعوى الفلاسفة ويزعم أنها لا تصادم الشريعة مع أنها مبنية على أن العالم كري الشكل، وظاهر الشرع يعطي خلاف ذلك. والثابت من قواعد الشريعة أن الكسوف أثر الإرادة القديمة وفعل الفاعل المختار، فيخلق في هذين الجرمين النور متى شاء والظلمة متى شاء من غير توقف على سبب أو ربط باقتران. والحديث الذي رده الغزالي قد أثبته غير واحد من أهل العلم»[٢].

وهؤلاء الذين أثبتوا هذه الزيادة احتاجوا إلى تفسيرها:

فقال ابن بزيزة: الحديث ثابت من جهة المعنى أيضا، يعني إضافة إلى ثبوته من حيث السند، وذلك لأن النورية والإضاءة من عالم الجمال الحسي، فإذا تجلت صفة الجلال انطمست الأنوار لهيبته. ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[٣]. فالمعنى أن تجلي الله تعالى بنوره يطمس نور الكوكب فيظلم.

رأيي في موضوع الكسوف:

١ ـ مسألة دلالته على التنجيم: فأما هذه فالحديث فيها واضح وصريح، فلا تعلق للمنجمين به، بل هو حجة عليهم.

٢ ـ ظاهرة الكسوف: وهذه ظاهرة طبيعية وعادية، تخضع للحساب والتوقع، تماما كما قال ابن دقيق العيد وابن تيمية وتلميذه ابن القيم.. وقد تقدم علم الفلك كثيرا في القرون الأخيرة، واكتشف أشياء لا حد لها مما يخص الكواكب

---

(١) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٦ ـ ١٧٧. أي إذا حاذى القمر الشمس، منع نور الشمس أن يصل إلى الأرض.

(٢) فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. ومقصوده بدعوى الفلاسفة تفسيرهم للكسوف بناء على مقررات علم الفلك.
وابن بزيزة هو: أبو محمد عبد العزيز بن إبراهيم القرشي، التونسي. فقيه ومفسر. توفي سنة ٦٦٢هـ. من تآليفه: شرح التلقين للمازري. شرح الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي. الإسعاد في شرح الإرشاد. تفسير القرآن. عن معجم المؤلفين، ٥/ ٢٣٩.

(٣) عن فتح الباري، ٣/ ٢٣٧. والآية من سورة الأعراف، ١٤٣. ولابن القيم تفسير آخر فيه بعض التكلف إن شئت راجعه في مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.

والأجرام السماوية، حتى إن المعرفة الفلكية في العصر الوسيط لا تعد شيئا بجانب ما عندنا منها الآن.

ولهذا لا يجوز اليوم إنكار التفسير الفلكي للكسوف، وقول الشيخ ابن باز - رحمه الله تعالى - : «لا يلزم أن يصيب أهل الحساب في كل ما يقولون، بل قد يخطئون في حسابهم، فلا ينبغي أن يصدقوا ولا أن يكذبوا»[1]... هذا بحسب علمه. أما الثابت اليوم في علم الفلك فهو أن قسما هاما من حساباته وتوقعاته صحيحة وصادقة بنسبة ١٠٠٪، ولذلك ينبغي تصديقهم فيها، لا التوقف في شأنها.

٣ - مسألة التخويف بالكسوف: وكون الكسوف ظاهرة طبيعية لا ينفي أن الله تعالى يخوف به عباده، وأن أشياء تصاحب الظاهرة يمكن أن تكون سببا للرهبة فعلا.

ولذلك قال بعض العلماء - كما تقدم - إن النبي ﷺ ما خوف من الكسوف، وما انزعج هو نفسه منه، إلا لأن هذا الوضع السماوي يمكن أن يحمل ضررا أو عذابا. وهنا - بخصوص كيفية هذا الضرر - رأيان أو احتمالان بحسب ما نعتقد في قضية السببية:

أ - فإذا قلنا بسببية حقيقية للأشياء، يكون للكسوف - أي للوضع الخاص المتركب من الشمس والقمر والأرض - تأثيره. وهذا من باب العلية المجعولة. أعني كما يكون للشمس فعل التسخين، وللقمر فعل المد والجزر، وللنار فعل الإحراق، وللماء فعل الإرواء، ولسائر الأشياء آثارها المشاهدة. وهو بحسب القرائن - في الأحاديث - تأثير ضار.

ب - وإذا قلنا بسببية عادية، كان المعنى أن الله تعالى يخلق ضرراً أو عذاباً، حين يكون الكسوف، من غير علاقة بين الأمرين سوى القران العادي فقط.

والتخويف يحصل بظواهر استثنائية، وحتى بالظواهر الطبيعية، فالإعصار والرياح الشديدة والزلازل وهيجان البحر. كل ذلك معتاد، وهو مخوف فعلاً[2].

---

(١) ذكره بهامش فتح الباري، ٣/٢٣٧، رغم أنه يرى في الموضوع رأي ابن تيمية وابن القيم. وعبد العزيز بن باز من كبار علماء السعودية في العقدين الأخيرين، وشغل مناصب متنوعة في التعليم العالي والإفتاء. له رسائل وفتاوى منشورة. كان ابن باز رحمه الله ذا فضل ودين وعلم، توفي سنة ١٩٩٩م.

(٢) اقرأ الوصف الدقيق والرهيب لتقلب الجو في أعالي بحار إيسلندا، فإذا البحر غير البحر، والسماء غير السماء.. في رواية بيير لوطي: صياد إيسلندا. وهي من أفضل الروايات العالمية لأدب البحر. فهذا الوصف يملأ قلب القارئ بالرهبة حتى وهو راقد في فراشه يقرأ.

إذن كل ما في الأمر أننا لم نصل بعد إلى معرفة هذا الضرر وتحديده. وربما سينجح العلم في الكشف عن بعضه، في مقبلات الأيام.

٤ ـ رواية التجلي: إن مقتضى قواعد الحديث قبول زيادة الثقة، قالوا من علم حجة على من لم يعلم. لكن انفراد هذا الطريق ـ إلى ابن بشير ـ بهذه الزيادة من دون سائر الطرق الأخرى التي جاوزت العشرة.. يوجب شيئا من التردد في قبولها. ولمثل هذا تردد العلماء في قبول الحديث الفرد الغريب الذي لا يعرف إلا من وجه واحد، ولو صح سنداً[١]. فلعل تخوف ابن القيم في محله هنا.

لكنني ـ مع ميلي للتوقف في أمر هذه الزيادة ـ أقول بأن للكسوف جانباً غيبياً ثابتاً. ففي الكون سببيات ظاهرة وأخرى خفية تعمل بالتوازي، وبشكل لا يمكن لنا أن ندركه، فكأن للعالم ظاهرا وباطنا. وما يجري تحت أنظارنا له وجه آخر، في عالم آخر. وقد رأينا في موضوع السببية ـ في الكتاب الذي خصصته له ـ مدى غموضه وتعقده.

لهذا لا أرى أي تناقض على الإطلاق بين ذين الأمرين: الكسوف ظاهرة عادية حسابية، ولا يمكن أن نكابر العلم في قواعده الثابتة واستنتاجاته الصائبة. وكل من درس العلوم البحتة ولو لفترة قصيرة من حياته ـ كما فعل كاتب هذه السطور ـ يحصل له ما يسميه علماؤنا بالعلم «الضروري» ببعض مقررات العلوم، ومنها التفسير الفلكي للكسوف.

وكذلك لا يمكن أن نكابر النصوص الشرعية الواضحة، التي تكشف عن أشياء تقع في الظواهر المادية، لا يمكن للعقل البشري ولا للحساب ولا للتجربة أن يصل إليها.

ولذلك قال ابن تيمية إن التجلي المذكور في الحديث لا ينافي السبب المذكور في الهيئة[٢]. فوجود ناحية غيبية في الكسوف أمر ثابت بظاهر الأحاديث

---

(١) وهذه الزيادة هي من الغريب متنا وإسنادا، وهو ـ كما قال ابن الصلاح ـ الحديث الذي تفرد برواية متنه راو واحد. وأكثر الغرائب لا تصح، ولذا كان الإمام أحمد يقول: لاتكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنها مناكير، وعامتها عن الضعفاء. كذا بمقدمة ابن الصلاح، بتعليق البلقيني، ص ٣٩٥. وانظر فيه تقسيم ابن الصلاح زيادة الثقة إلى ثلاثة أقسام، وتردده في الثالث. ص ١٨٦ ـ ١٨٧. وقارن ذلك ببحثه في الخبر الشاذ، ص ١٧٣ فما بعدها.

(٢) الفتاوي، ٣٥/١٧٧.

الصحيحة، وفيها فزع النبي ﷺ لما وقع الكسوف، وأمره بالصلاة والصدقة والذكر، وإخباره عن ربه تعالى أنه يرهب عباده بهذه الظاهرة.

هل يستطيع أحد أن ينفي احتمال أن تكون للشمس والقمر صلاة خاصة وسجود خاص، في وضع خاص، وزمن خاص، هو حالة الكسوف. وما المانع أن يتجلى الله سبحانه للكوكبين في ذلك الزمان، كما يدنو ربنا عز وجل من أهل الموقف عشية عرفة، وكما ينزل سبحانه ـ أو تنزل رحمته، على الخلاف المعروف ـ إلى السماء الدنيا آخر الليل، وكما تجلى جل وعلا للجبل فصار ترابا؟ ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1].

(١) اقتباس من آية البقرة ، ٣٢.

الفصل السادس

في نقد التنجيم

انتقد العلماء والمفكرون التنجيم من نواح عدة، فبعضهم نقد أسسه وأصوله، وبعضهم نقد اختلاف قواعده وتناقضات مقرراته، وآخرون نقدوه من حيث غلبة الخطأ في تنبؤاته. . . وهكذا.

وأكثر هذه الانتقادات في محلها، كما سيرى ذلك القارئ الكريم، لذلك سأعرض لها هنا بشيء من الاختصار[1]. لكن أهم ما يعاب على التنجيم هو أنه فن لا دليل عليه ولا سبيل إلى تصحيحه:

مشكلة غياب الدليل في التنجيم:

وأنت إذا قرأت أي كتاب في هذا الفن، لن تجد فيه الاستدلال على قواعده وأصوله، وإنما يلقى إليك الكلام مجردا عن الاحتجاج، فتقرأ عن الكواكب وأمزجتها، والأبراج وطبائعها، وعن المنازل والطوالع والتقابل. . وغير ذلك من قواعد التنجيم. لكنك لا تجد إثباتا لهذا كله، ولا لبعضه. فلو سألت لم كان برج الحمل يتبع الشمس لا الزهرة، أو لم كان التربيع - في تقابل الكوكبين - علامة شر لا خير، أو لم جعلتم برج الحمل مذكرا وبرج الثور مؤنثا، لا العكس. . أنت إذا سألت عن هذا وشبهه لن تجد جوابا.

يكاد «الدليل» الوحيد الذي ينبني عليه التنجيم، هو شكل من القياس المتسرع والانتقال الخاطئ من ملاحظة بعض الآثار الفيزيائية لبعض الكواكب والنجوم، إلى القول بأن لهذه الأفلاك آثارا أخرى، هذه المرة على الإنسان وحياته، النفسية والاجتماعية والعملية. . . وقد بينت هذا في أول الفصل الرابع، وأزيده هنا بيانا:

---

(١) لن أناقش في هذا الفصل مذهب ألوهية النجوم، لسببين: الأول أنه واضح التهافت. والثاني أنه غير واسع الانتشار اليوم، كما في الماضي.

حجة بطليموس:

هذا بطليموس مثلا ـ في مقدمة كتابه تيترابيبلوس ـ يتكلم عن آثار القمر على الجماد والحي، فيبين أن مستوى الأنهار، وحركات المد والجزر في البحار، ونمو النبات وتفتح البذور. . .كل ذلك من آثار القمر. وبعض الكواكب تحدث ـ بمرورها في مواضع معينة ـ حرارة أو برودة، في الأرض. لكن ـ يقول بطليموس ـ إن أقوى الكواكب والنجوم أثرا هو الشمس. ولغيرها تأثير أيضا، إنما بدرجة أقل[١]. والمشكلة أن أي إنسان بإمكانه أن يدرك آثار الشمس ـ بل حتى القمر ـ على حياتنا، ولكن قلة فقط منهم تدرك آثار الكواكب الآخرى[٢].

هذا الكلام يقبل عموما، لكن بطليموس يقول عقبه، فجأة وبسرعة: ما المانع إذن أن يتمكن الذي يعرف جيدا خصائص الكواكب وأحوالها من إدراك آثارها على حياة الإنسان وخلقه وخلقه ومزاجه. . .وسائر شؤونه. وما دام لهذه الكواكب الآثار المتقدمة فكيف لا تكون لها آثار مشابهة على حياتنا؟[٣].

وقد أخذ المنجمون ـ بعد بطليموس ـ هذا الكلام، وصيروه دليلا على ممارستهم هذه[٤]، فهو تقريبا «حجتهم» الوحيدة، وجاء المعاصرون ـ من أهل التنجيم ـ فأضافوا أشياء إلى هذا الدليل، أشياء أملاها التقدم العلمي الحديث، قالوا : إن الكواكب ترتبط بالأرض بعلاقات قوية من الجاذبية الفيزيائية، وإن طريقة تأثيرها في الحياة الإنسانية هو إرسالها لأشعة تخترق الفضاء وتصل إلى أعماق الإنسان[٥].

والظاهر أن هذا المنطق هو نفسه الذي أوحى إلى الكلدان بما وصلوا إليه من التنجيم. لقد لاحظوا أن بعض المجموعات النجمية حين ترجع إلى نقطة معينة في السماء، فإن الفصول أيضا تعود، مع ما يصاحبها من تيارات هوائية متميزة، ومن تساقط أوراق الشجر. .ونحو ذلك. وكذلك لاحظوا أن تغيرات المد والجزر تسير بالموازاة مع تنقل القمر في منازله، وكذلك فإن حيض النساء يتكرر مرة في كل شهر

---

(١) Tétrabible , p7.

(٢) Tétrabible , p8.

(٣) Tétrabible , p8 ـ ٩.

(٤) انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٥) Quelques sciences captivantes, p 201.

قمري. لكن الكلدان، وبسبب من ضعف معارفهم، لم يستطيعوا أن يميزوا متى يكون لوضع الكوكب أثر مباشر، ومتى يكون له أثر غير مباشر، وما هي الآثار الحقيقية، وتلك التي هي وليدة «الاتفاق»، أو وليدة تخمين خاطئ..[١].

هذا هو «الدليل» الذي يساق لإثبات التنجيم، وهو يخص الأساس العام الذي يقوم عليه هذا الفن، أعني أن للكواكب آثارا على حياة الناس. فإذا انتقلنا إلى قواعد التنجيم التفصيلية، فإننا نجد غيابا كاملا للاستدلال والإثبات. فبطليموس حين وصف المشترى والزهرة بأنهما خيرين، بسبب غلبة الحرارة والرطوبة عليهما، بخلاف الكوكبين الشريرين: زحل والمريخ... فإنما فعل ذلك، «لأن القدماء فرضوا علينا أن نعتقد ذلك»[٢].

فهذه هي الحجة: إن المعرفة التنجيمية أصلها مجهول، لكن قيمتها وسلطتها المعرفية فوق الجدال، كما أنها موغلة في القدم[٣].

اعتراف المنجمين بأن التنجيم لا يقوم على دليل:

كذلك قال الكوشيار بن ياسر الديلمي: إن التنجيم لا سبيل للبرهان عليه[٤].

واستمر هذا الأمر إلى اليوم، لقد عجز المنجمون - باعتراف توكر وميرتينس - عن إثبات أسس التنجيم وقواعده، وعن تقديم تفسير عقلاني وواضح لها، بعيدا عن التحكمات الباردة والفروض الصرفة[٥].

والمنجمون واعون بأن إقامة الدليل على التأثير الذي يزعمونه للكواكب، هو أساس مصداقية التنجيم. ويقول بعضهم سنثبت ذلك ونستدل له، لنصل - كما يرى توكر - إلى ما يسمى بالتنجيم العلمي. لكنهم لا يقدمون شيئا يمكن أن نطلق عليه فعلا اسم الدليل[٦].

---

(١) Quelques sciences captivantes, p 189.

(٢) Tétrabible, p 20.

(٣) Principes d'astrologie scientifique, p9.

(٤) في مقدمة كتابه «المجمل في الأحكام». نقله ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٤٦٦. والكوشيار هو أبو الحسن، فلكي توفي حوالي سنة ٣٥٠هـ. انظر الأعلام، للزركلي، ٦/٩٨.

(٥) راجـــع: Mertens: L'occultisme du zodiaque, p66 - 67 Tucker: Les principes d'astrologie scientifique,p53

(٦) قدم توكر «نظرية» لتفسير هذا التأثير للكواكب، لكنها متهافتة لا تثبت شيئا، انظر: Les principes =

مناقشة دليل بطليموس:

إن دليل بطليموس صحيح باعتباره دليلا للإمكان، لكنه خاطئ إذا اعتبر دليلا للوقوع. فقوله للكواكب آثار مؤكدة على الأرض، كالنور والمد والجزر، و ـ اليوم ـ الجاذبية... فما المانع أن تكون لها آثار أخرى في الحياة البشرية... هذا دليل الإمكان، وهو من هذه الجهة سليم، فلا يستحيل عقلا ولا شرعا أن يخلق الله تعالى العالم على وجه يكون فيه للنجوم تأثيرات على الناس، كما لسائر الأسباب تأثيرات في مسبباتها.

لكن المشكلة في دليل الوقوع، أو الحدوث، أين هو؟ وكيف نعرف أن هذه الآثار المزعومة موجودة بالفعل.

إن الخطأ الأساسي للتنجيم ـ كما يقول كوديرك ـ هو مبالغته في استغلال مسألة الآثار الواقعية الفيزيائية للشمس والقمر على الأرض... وانتقاله من هذه الآثار المحققة إلى بناء عالم خيالي من العلاقات والصلات بين النجوم والبشر[1].

وما بين القول بأثر الكواكب على الأرض في الجاذبية والمد والجزر... ونحو ذلك، والقول بأثرها في طبيعة الإنسان ومزاجه وحياته وموته وزواجه وعمله... ما بين القولين بعد ما بين المشرق والمغرب.

ولذلك يقول ابن القيم: «هب أن بعض الآثار المشاهدة مسبب عن تأثير بعض الكواكب والعلويات، كما يشاهد من تأثير الشمس والقمر في الحيوان والنبات وغيرهما، فمن أين لكم أن جميع أجزاء العالم السفلي صادر عن تأثير الكواكب والروحانيات»[2].

وقد لاحظ نقاد من القدماء ـ منهم شيشرون[3] ـ هذا الانتقال السريع من تسجيل الآثار الفيزيائية ـ للشمس بالخصوص ـ إلى تقرير آثار عامة على حياة الإنسان.. ولذلك يقول ابن سينا ـ في رسالته في إبطال التنجيم ـ إن التنجيم وليد

= d'astrologie..p53à57 . أما ميرتينس فقد أحالتنا على ما سمته بالتنجيم الكوني، وهو باطنية صرفة. انظر: L'occultisme du zodiaque, p 66 et après

(١) انظر: L'astrologie, p 57 à 59

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٥.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٤.

محض لخيال المنجمين، أو هم أخذوه عن القدماء، وهؤلاء ليس في كتبهم أي أدلة حول أحكامهم في أفعال الكواكب وخصائصها. ويلح ابن سينا كثيرا في نقده على هذه الناحية بالضبط، أعني فقدان التنجيم لعنصر الاستدلال، وابتنائه على التقليد والتسليم للأسلاف[١].

ويقول الخطيب عن بعض من نقد التنجيم: «علم النجوم لا يثبت في القياس، ولا يصح عند الاحتجاج، وأصله: أوضاع مستحسنة، وأمور اصطلاحية، قال: وإلا فبأي قياس أوجب قسمة البروج الاثني عشر على الكواكب السبعة، وكيف صار لكل واحد من الكواكب الخمسة بيتان بيتان، وللنيرين بيت بيت، وبأية حجة وجب أن يكون الجدي والدلو بيتي زحل دون سائر البيوت الاثني عشر، ولم صار القوس والحوت بيتي المشترى دون غيرهما»[٢].

ومن قواعدهم التي لا دليل عليها: تقسيمهم الأيام إلى سعود ونحوس. وقولهم إن برودة الأرض من فعل زحل، وسخونتها أثر المريخ. وكذا ربطهم بين العناصر الأربعة والأبراج، وتقسيمهم لهذه إلى ليلية ونهارية، ذكور وإناث، وكلامهم في المنازل وخصائصها.. ونحو ذلك مما تخيلوه وتوهموه، كما قال ابن سينا[٣].

ولذلك يقول عيسى أبو القاسم: إن ما يقوله أهل التنجيم لا دليل عليه من طريق الحس، ولا من كتاب الله، ولا من سنة رسوله، ولا ضرورة تدعو إلى القول به، ولا هو أولي في المعقول... وهذه هي الطرق التي تثبت بها الموجودات وتعلم بها حقائق الأشياء[٤].

فدليل بطليموس إذن تحكم فاسد، لا يثبت شيئا من دعاوي التنجيم[٥]. لكن المنجمين ـ وهم الذين شعروا بضعف احتجاج بطليموس ـ قالوا إن التنجيم ثبت بالتجربة:

---

(١) راجع: A.F. Mehren: Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 8,11,14

(٢) القول في علم النجوم، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 8 à 15.

(٤) رسالته في التنجيم التي نقلها ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٤٦٩.

(٥) راجع: رسالة عيسى، ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩، ٤٧٢. مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧. كشف الظنون، ٢/١٩٣١.

هل التنجيم ثمرة تجارب متطاولة في الزمان؟

قالوا إن قواعد التنجيم قررتها تجارب كثيرة على مدى آلاف السنين، تجارب قائمة على الملاحظة والاستنتاج، وتسجيل مختلف أنواع القرانات والتقابلات بين الكواكب وسائر أوضاعها، وملاحظة الطقس واختلافه، ودراسة آثار ذلك على الناس، على اختلاف أعراقهم، ثم تسجيل هذا كله وضبطه... وإن هذا العمل الذي كان يوميا سمح بالمقارنة بين هذه الحسابات، والوصول إلى القوانين النجومية التي بين أيدينا اليوم[١].

والرد على هذا الكلام من وجوه:

١ ـ يقال لهم: ما الفرق بين من قال الدليل على بطلان أحكام النجوم، أنا امتحنا مواليد صححنا طوالعها ومسائل تفقدنا أحوالها فوجدناها جميعا باطلة، ولم يصح الحكم في شيء منها. فكما تدعون استنادكم إلى تجارب ـ ماضية أو حاضرة ـ لتصحيح التنجيم، كذلك لغيركم أن يستند أيضا إلى تجارب يزعم أنها أبطلت ـ أو تبطل ـ فنكم هذا[٢].

ثم ليس صحيحاً أن ظاهرة بشرية كالتنجيم، لمجرد قدمها وكثرة من آمن بها في الأمم تعتبر صحيحة[٣].

٢ ـ إن هذه التجارب المزعومة لا أثر لها في التاريخ إطلاقاً. لا في الآثار القائمة، ولا في الوثائق، ولا في الكتب الشرقية أو اليونانية[٤]... وعمل بمثل هذا الحجم لا يمكن أن يندثر ولا يترك أي آثار أو علامات عليه. وقد رأينا أن أقدم طالع فلكي نعرفه يعود إلى سنة ٤١٩ قبل الميلاد.

٣ ـ لا يمكن التعويل على التجربة في شأن مثل التنجيم. وذلك لأن وضعاً محدداً للأفلاك في اقتراناتها وعلاقاتها بعضها مع بعض، وحركاتها واتجاهاتها... لا يتكرر بذاته إلا في كل مدة تصل إلى آلاف من السنين، والاعتماد على التجارب هنا أمر متعذر[٥].

---

(١) انظر: رسالة عيسى، ص ٥٠٥. مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٠ L'astrologie, p 59.

(٢) رسالة عيسى في التنجيم، ص ٥٠٥.

(٣) راجع: مفتاح دار السعادة ص ٥٤٨.

(٤) انظر: L'astrologie, p 59 - 60

(٥) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٥٤.

يقول ابن حزم: «التجربة لا تصح إلا بتكرر كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس إلى الإقرار به، كاضطرارنا إلى الإقرار بأن الإنسان إن بقي ثلاث ساعات تحت الماء مات، وإن أدخل يده في النار احترق. ولا يمكن هذا في القضاء بالنجوم، لأن النصب الدالة عندهم على الكائنات لا تعود إلا في عشرات الآلاف من السنين لا سبيل إلى أن تصح فيها ولا إلى أن تبقى دورة تراعي تكرار تلك الأدوار، وهذا برهان مقطوع به على بطلان دعواهم في صحة القضاء بدلائل النجوم»[١].

ويقول ابن خلدون في المنجمين: «المتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة، وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم.»[٢]

فمثلا كان طالع البشرية طيلة ألفي عام التي مضت هو برج الحوت، ومنذ سنة ٢٠٠٠م أصبح طالعها هو برج الدلو[٣]، فانظر كم يلزم من ألوف السنين لكي تعود الإنسانية إلى برج الحوت.

نتائج التنجيم أبداً تخمينية:

ولذلك ميز بطليموس بين علم الهيئة والفلك، ونتائجه يقينية، لصحة مقدماته، وبين التنجيم الذي اعتبره من العلوم المبنية على التخمين والتقريب؛ فلذلك نتائجها ظنية واحتمالية فقط[٤]. فهذا أعلى ما قد يوجد في التنجيم، ولا مطمع في الوصول إلى نتائج مؤكدة يطمأن إلى مثلها، قال ابن خلدون: «إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة كان أقصى ما يمكن استنتاجه تخمين وحدس، فلا علم ولا يقين»[٥].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/١٤٩.

(٢) المقدمة ، ص ٤٠٥.

(٣) Michaël Delmar: Verseau (horoscope 1995), p11. La fausse science, p109.

(٤) راجع: Tétrabible, p 5,12

(٥) المقدمة، ص ٤٠٦. وانظر في هذه المسألة: القول في علم النجوم، ص ٢١٩. مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

إجماع الفلكيين على رد التنجيم:

يقول كوديرك: إن آلاف علماء الفلك في العالم، الذين يعرفون السماء أكثر من غيرهم والذين يحرصون على اكتشاف الجديد، لا يؤمنون إطلاقا بالتنجيم. ويبالغ كوديرك في تقرير هذه الحقيقة حتى يقول: لا يوجد اليوم فلكي واحد، صغير أو كبير، يؤمن بالتنجيم[١].

إن هذا «الإجماع السكوتي» هام وواضح، لدرجة أنه يزعج المنجمين كثيراً، ولا يذكرون لدحضه غير كبلر، وهو إن اشتغل بالتنجيم، فعلى سبيل الاسترزاق والعيش، لا إيمانا به.

وقد عرضت كثير من البحوث ـ التي استهدفت إثبات التنجيم ـ أمام المؤسسة الأمريكية للجمعيات العلمية لإقرارها، لكنها لم تجد فيها شيئا يستحق صفة العلم.

وعرضت أخرى أمام اللجنة البلجيكية لدراسة «الظواهر التي تعرف بأنها «غير عادية»، فردتها جميعا[٢].

وهذه بعض نتائج وتصريحات مؤتمر أحد أهم الجمعيات الدولية لعلم الفلك[٣]:

١ ـ إن التنجيم خليط من الطيرة والشعوذة والتجارة، ولا حقيقة له.

٢ ـ ورغم اعترافنا بوجود بعض المشتغلين بالتنجيم لا يدعون التنبؤ بالمستقبل، ويقتصرون على القول إن أثر الكواكب هو من جملة آثار كثيرة تحدد حياة الإنسان، كالبيئة والإراثة، وليس بالضرورة هو الأثر الحاسم من بينها... رغم ذلك نقول إن هؤلاء لم يقدموا الدليل العلمي الكافي على صحة هذا التنجيم المتواضع.

٣ ـ إن التنجيم هو مجموعة قواعد لم تنبن على أي دليل[٤].

---

(١) L'astrologie, p 52 هذا الكلام من كوديرك شديد، لكن مما يشفع له فيه أنه هو نفسه فلكي، فلعله يدري ما يقول.

(٢) L'astrologie, p 77 - 78

(٣) الجمعية هي : . Astronomische Gesllschaft والمؤتمر المذكور انعقد سنة ١٩٤٩، ببون، عاصمة ألمانيا الغربية سابقا.

(٤) انظر : .L'astrologie, p 53,76

والخلاصة أن التنجيم نسق يؤخذ كله باعتباره مجموعة قواعد مسلمة، لا تناقش، أو يترك جملة. ولا دخل للاستدلال في هذا الموضوع بتاتا.

كثرة اختلاف المنجمين:

يسهل على أي واحد أن يلاحظ هذا الاختلاف، بمجرد أن يقارن بين كتابين أو أكثر في التنجيم، لمؤلفين مختلفين، وهو اختلاف قديم، ولا يزال مستمراً. يقول أبو القاسم عيسى: «اختلف رؤساؤهم... في الحدود وغيرها، وتضادوا في المواضع التي يأخذون منها دليلهم..»[١].

وهذا الخلاف يتجاوز المسائل الجزئية، فيطال حتى المفاهيم الأساسية للتنجيم، كمفهوم المنازل[٢]. ولذلك فإن ما قدمته للقارئ في « فصل مبادئ التنجيم» هو مجرد صورة تقريبية لفن غير واضح المعالم، ولا محدد الأصول والقواعد..بحيث لو أنك قارنت ما عرضته في هذا الفصل مع كتاب آخر في التنجيم، لوجدت اختلافاً كثيراً. وليس ذلك من عندي، بل هو بسبب كثرة اختلاف أهل التنجيم، حتى إنني - في وصف خصائص المنازل مثلا - كنت أحيانا أضطر إلى اختيار خصائص دون أخرى تحكماً فقط واتباعاً لما يقوله منجم دون آخر.

ويبلغ الأمر إلى أن يصير لكل منجم تنجيمه الخاص، فيستقل بقواعد وآراء وبتفسيرات وتأويلات، يخالف بذلك كله غيره من المنجمين. ولذلك حين تقدم المعلومات الضرورية لوضع طالع فلكي، لعدد من المنجمين، فلا عجب أن تتلقى أجوبة مختلفة بقدر عدد هؤلاء. ثم إن جانباً كبيراً من التنجيم متروك لخيال المنجم وتخمينه، بحيث يغلب على هذا الفن التحكم، والقضاء بالاستناد إلى محض البداء[٣].

يقول ابن القيم: «اختلفوا اختلافاً شديداً في الواحدة من مسائل هذا العلم، فإن أقوالهم في حدود الكواكب كثيرة مختلفة، وليس مع أحد منهم شبهة ولا خيال، فضلا عن حجة واستدلال. ثم إن كثيرا منهم ربما أخذوا واحداً من تلك

---

(١) رسالته في التنجيم التي أوردها ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص ٤٧١.

(٢) L'astrologie, p22. Principes d'astrologie scientifique, p 146 - 147

(٣) L'astrologie, p 68.

الأقوال من غير بصيرة، بل بمجرد التشهي . . . أقوالهم متناقضة، فإن منهم من يقول كون زحل في بيت المال دليل الفقر، ومنهم من يقول يدل على وجدان كنز. وهذا العلم مع أنه تقليد محض، فليس أيضا تقليداً منتظماً، لأن لكل قوم فيه مذهباً، ولكل طائفة فيه مقالة، فللبابليين فيه مذهب، وللفرس مذهب آخر، وللهند مذهب، وللصين مذهب رابع. والأقوال إذا تعارضت وتعذر الترجيح كان دليلاً على فسادها وبطلانها»[١].

على أن الاختلاف في الشيء من الأمور ـ عندي ـ لا يدل بمجرده على فساده وبطلانه، ولهذا لا أميل إلى استعمال هذا الدليل، أي الاحتجاج على فساد مذهب ـ أو عقيدة أو فكرة ـ باختلاف أصحابه. ولو طردنا هذا الاستدلال لبطل كل شيء، فإن الذي اتفق عليه البشر قليل إلى جانب ما اختلفوا فيه. وما من أهل بلد أو دين أو مذهب إلا واختلفوا: اليهود والنصارى والمسلمون. . .جميعهم اختلفوا. خصوصاً وأن المنجمين اليوم صححوا كثيراً من أخطاء أسلافهم وتجاوزوها. وإنما هذا الدليل قد ينفع إذا بينا أن هذا الاختلاف أتى من حيث إن التنجيم لا يشتمل على قواعد واضحة ومحكمة، وعلى منهج سليم لاستنباط المعرفة. لكن هذا شيء يرجع إلى النقد الأول، أعني مشكلة غياب الدليل في هذا الفن. ولذلك قلت إن هذه المشكلة هي أهم نواقص التنجيم وأخطرها.

إذن الأولى ألا نجعل من اختلاف المنجمين دليلاً مستقلاً على فساد مهنتهم، بل أثراً ونتيجة لفقدان التنجيم لأصول العلم، ولو في حدودها الدنيا. فيكون دليلاً تبعيًا، لا بالأصالة. والله تعالى أعلم.

عجز التنجيم عن تفسير كيفية تأثير الكوكب:

وقالوا في ذلك كلاما مختلفاً ومجملاً، فقيل إن الكواكب تفعل بطبائعها، وقيل ليس ذلك فعلاً لها، لكنها تدل عليه بطبائعها. وقيل تفعل في البعض بالعرض، وفي البعض الآخر بالذات. وقيل بل هي مختارة تفعل بإرادتها لا بطبعها، إلا أن الكوكب السعد منها لا يختار إلا الخير، والنحس لا يختار إلا الشر[٢].

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٩. وانظر في بعض مسائل الخلاف: القول في علم النجوم، ص ٢٢٢ فما بعدها.

(٢) رسالة عيسى بن علي في التنجيم، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

وقال آخرون ـ وهم الأقرب إلى التوحيد ـ الكواكب دالة على السعد والنحس، بعض أجرامها وبعض أجزائها يدل على الخير، وبعضها يدل على الشر، وهذا الارتباط بين الخير والشر والسعد والنحس هو ارتباط المدلولات بأدلتها، لا ارتباط المعلولات بعللها[1]. فهؤلاء أضافوا التأثير إلى الباري تعالى، وجعلوا حركات الكواكب علامات فقط. وهذا مذهب وإن لم يقم عليه دليل، إلا أنه واضح في نفسه..

أما غيرهم، فسائر ما قدموه من كيفيات تأثير النجوم، لا دليل عليه أولا، ولا يبين لنا شيئا ثانياً. إذ كيف تؤثر الكواكب بطبائعها، أو بإراداتها، أو بذواتها أو أعراضها...؟

وقد حاول الكندي أن يفسر هذا التأثير، فقدم نظرية أصيلة، هي نظرية الإشعاعات، فكل نجم يرسل أشعة خاصة به، وتلاقي أشعة الكواكب يعطي أحوالاً متعددة. وكل شيء في الكون يرسل أشعة، بما في ذلك دماغ الإنسان، وصوته...[2].

والمنجمون المعاصرون أخذوا هذه الفكرة وما في معناها، وقالوا إن لكل كوكب حقلاً خاصاً من الموجات الفيزيائية Ondes التي تمتد حتى الأرض، فتؤثر على الإنسان.

وهذا حديث عام وغير دقيق. وإنما الثابت بالعلم الحديث من آثار الكواكب على الأرض ما يلي:

أ ـ أثر الجاذبية:

١ ـ تفاعل الأرض والكون كله هو الذي يحدد كتلة الأرض وكتلة أجزائها.

٢ ـ تفاعل الأرض والشمس هو الذي يضبط حركة الأرض حول الشمس، وما لذلك من آثار حول اختلاف الفصول والليل والنهار.

٣ ـ تفاعل القمر والشمس مسؤول عن مد البحار وجزرها، وذلك محسوب بدقة منذ زمن نيوتن ولابلاص.

---

(١) رسالة عيسى بن علي في التنجيم، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

(٢) Encyclopaedia Universalis, article astrologie, 3/289.

ب ـ آثار الأشعة والنور:

١ ـ الأشعة التي يعكسها القمر ضعيفة. ولم يثبت في علم الأرصاد الجوية أن لتنقل القمر في المنازل أثرا على طقس الأرض.

٢ ـ أشعة الشمس هي مصدر الطاقة الأولى على الأرض. وهي التي تتسبب في حركة الكتل الهوائية، وحركة الماء في المحيطات، وذلك بتغييرها لدرجات الحرارة.

٣ ـ تغيرات سطح الشمس، بظهور البقع الشمسية واختفائها لها دور في تبدلات الطقس، وفي ظهور بعض الأعاصير، وتوجيه التيارات البحرية.

٤ ـ ليس للكواكب الأخرى ـ في مجموعتنا الشمسية ـ أي أشعة معتبرة، خصوصاً أنها بعيدة جداً عنا[(١)].

٥ ـ أما أشعة النجوم التي تقع خارج مجموعتنا الشمسية فضعيفة جدا، بحيث ليس لها أي اعتبار (أضعف ألف مرة من نور القمر).

هذه هي الآثار الوحيدة التي أثبت العلم وجودها، وبين حدودها، ودرسها، وعدا ذلك مجرد أوهام وتخمينات.

فالحاصل إذن أنه ليس لأهل التنجيم تفسير ولا تعليل لكيفية تأثير النجوم[(٢)].

طبائع الأبراج، وحقيقتها:

يظهر لي ـ من خلال دراستي لموضوع التنجيم ـ أن أحد أهم الأسباب في انتشاره بين الناس، وميل الكثير منهم إلى تصديقه والاعتقاد بصدق بعض أسسه ـ على الأقل ـ، هو مسألة طبائع الأبراج وخصائصها.

وأنت إذا أخذت كتاباً في التنجيم، فيه حديث مفصل عن الطبائع، فستشعر في ـ الغالب ـ بأن قسطاً من الصواب يوجد في هذا الحديث. فهذا مجرب، ورأيت هذا الشعور عند كثيرين ممن قرأوا عن أبراجهم.

وسأتناول في حديثي الآن ناحيتين في هذا الموضوع: الأولى تخص تصنيف

---

(١) L'astrologie, p 62 - 63 ـ والنور الخاص بهذه الكواكب هو أشعة تحت الحمراء، وهي ضعيفة بمئات المرات مقارنة مع أشعة الشمس من النوع نفسه.

(٢) انظر: L'occultisme devant la science, p 104 - 105

التنجيم لطبائع الناس بحسب أبراجهم. والثانية أحاول فيها أن أفسر هذا الشعور الذي أشرت إليه.

هل يصح كلام التنجيم في الطبائع؟

كان يظهر لي - في بداية اتصالي بالموضوع - أن بيد المنجمين - لو أرادوا تأكيد علمهم وإخراس منتقديهم - طريقة سهلة لذلك: فهم لو قاموا بدراسة استقرائية لبضع مئات - أو آلاف - من الناس، من العوام أو من الشخصيات التاريخية والمعاصرة المشهورة، فبحثوا في صفاتهم وأمزجتهم وأخلاقهم وصحتهم... وما أمكنهم معرفته من شؤون حياتهم. .لو فعلوا ذلك، وبينوا الخصائص المشتركة لكل مجموعة على حدة، وأن الذي يجمع بينها هو اتحاد البرج... لكان ذلك دليلاً قوياً يستنصرون به على من خالفهم.

هكذا بدا لي الأمر في الوهلة الأولى، قبل أن أعرف أن أسلوب الإحصاء والاستقراء لا يخدم التنجيم بقدر ما ينفي دعاويه حول الطبائع والاستعدادات العقلية والنفسية، والميول المهنية والفنية. .لكل برج على حدة[1].

يعتبر التنجيم أن من أهم خصائص مولود برج الميزان هو استعداداته الفنية العالية، وقد قام الباحث فرانسوورث بدراسة تواريخ ازدياد أكثر من ألفي فنان وموسيقار ورسام، فوجد أن هؤلاء ينتمون إلى كل الأبراج، وولدوا في أزمنة متفاوتة على مدار السنة كلها، بل وجد الباحث أن عدد مواليد برج الميزان بين هؤلاء الفنانين هو أقل من المتوسط العام المفروض أن يكون له[2].

ومن جهته قام بوك[3] بدراسة تواريخ ازدياد العلماء الأمريكيين، وذلك بالاعتماد على الوثائق المسجلة للمعلومات الأساسية عن هؤلاء العلماء، وهي محفوظة في مركز خاص، فلاحظ أن توزيع هذه التواريخ عشوائي، ولا ينفرد برج من الأبراج الموصوفة بالعلم والمعرفة بعدد أكبر من الولادات.

---

(١) راجع مثالا مفصلا لهذا الطريق في: L'astrologie, p 83 à 89.

(٢) L'astrologie, p 80 - ٨١ والباحث هو Fransworth.

(٣) Bart J. Bok فلكي سابق بجامعة هارفرد، وكان يشغل منصب رئيس لجنة الدراسات للتجمع الأمريكي للجمعيات العلمية.

أما التغيرات في عدد ولادات هؤلاء العلماء بحسب فصول السنة فهي مثيلة لتغيرات عامة الناس[1]. وكان ينبغي مثلا أن يكون أكثر العلماء من برج الجوزاء، وأن يكون أكثر البحارة من الأبراج المائية، وعلماء الدين من برج المشترى... ونحو ذلك.

تفسير الشعور بصدق بعض كلام المنجمين في الطبائع:

وهذا الانطباع العام يحتمل عندي ثلاثة أسباب:

١ ـ إما أن القارئ يلاحظ في السلسلة الطويلة من الخصائص والطبائع ما يظن أنه من أخلاقه ومزاجه، أي أن القارئ ـ وربما بدون شعور منه ـ يمارس عملية انتقاء ضمن ما يقدم له باعتباره خصائص لبرجه.

٢ ـ وإما لأن الطبائع الموصوفة في الأبراج عامةٌ، بحيث يمكن صدقها على حالات مختلفة، كوصف مولود برج ما بالقلق، فالقارئ يمكن أن يقتنع بهذا النعت، لأنه لا يخلو الإنسان العادي من قلق، خصوصاً في عصرنا هذا، الذي يوصف بعصر القلق والاضطراب النفسي. وكذلك وصف برج ما بالذكاء، فكل أحد مقتنع بأنه ذكي، وربما أكثر من غيره، فإذا وجد في التنجيم ما يشبع غروره هذا اعتبر ذلك شهادة يعتز بمثلها، ولا تجد أحداً يرد الوصف التنجيمي للطبائع لأنه يقتضي ذكاءه بينما هو مقتنع بأنه غبي. وكذلك الوصف بالطيبوبة، فعادة ما يرى المرء نفسه طيبا غير شرير... وهكذا.

٣ ـ وإما أن القارئ يقتنع بما يقرأ، أي يقنع نفسه بتحديدات التنجيم لصفاته، عن طريق أسلوب الإيحاء الذاتي Autosuggestion.

الجبرية في التنجيم:

إحدى أهم مسلمات التنجيم أن النجوم هي المتصرفة الوحيدة في حياتنا، فهي التي تتحكم في كل شيء من المهد إلى اللحد، وهي التي تحدد أمزجتنا وطبائعنا، وتؤثر في علاقاتنا الاجتماعية، وتوجه شؤون العاطفة والمال والصحة...

وهذه الجبرية المطلقة ـ باعتراف بعض المنجمين أنفسهم ـ هي المشكلة

---

(١) انظر: L'astrologie, p 81,82.

الأساسية للتنجيم[١]. ومنهم من حاول التفصي عنها، فقال: نحن من يجعل الكواكب سعوداً أو نحوساً، وذلك بسبب نواقصنا وجهلنا، ومن حقق في نفسه الكمال والحكمة، صار حرًّا تام الحرية[٢]. وقال آخرون إن النجوم لا تجبرنا على ما نعمله، لكنها تحدث في نفوسنا ميلاً لذلك[٣].

ولهذا يقول ابن سينا: لنفترض أن التنجيم علم صحيح، فيم يفيد إذا كان كل شيء يخضع لتأثير النجوم، كما يصرح بذلك المنجمون؟[٤]

وقد تردد هذا النقد إلى عصرنا هذا[٥]. لكن المنجمين يتناقضون مع أنفسهم، فبينما يخبروننا بأن الكواكب قد قدرت كل شيء في حياتنا، وبأن مصائرنا معروفة سلفاً منذ زمن الولادة، إذا بهم يقترحون علينا أن نزورهم ونستشيرهم في مشاكلنا. ألا يعني هذا ـ كما يقول كوديرك ـ أن المستقبل غير محدد سلفا، وأن تأثير النجوم غير ثابت، ما دام المنجم يقترح تغيير مجرى الأشياء، لقاء مبلغ من المال يقدم بين يدي الاستشارة؟[٦]

وقد استنبط بعض العلماء دليلاً طريفاً على إبطال التنجيم من مبدأ الجبرية هذا. يقول ابن حزم: «المشاهدة توجب أننا قادرون على مخالفة أحكامهم متى أخبرونا بها، فلو كانت حقاً وحتماً ما قدر أحد على خلافها، وإذا أمكن خلافها فليست حقا، فصح أنها تخرص كالطرق بالحصى والضرب بالحب، والنظر في الكف والزجر[٧]...». فيمكن دائما تكذيب المنجم، وذلك إذا اختار الإنسان أن يعمل بضد ما يقتضيه طالع النجوم، فهنا أين دلالتها على الغيب، وأين أثرها في توجيه الإنسان والتحكم في حياته.

---

(١) Principes d'astrologie scientifique, p 182.. وراجع في هذا الكتاب الصفحات: ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٨١ إلى ١٨٤.

(٢) L'occultisme du zodiaque, p 63. وانظر في هذا الكتاب ص، ٦٠، ٦١.

(٣) Encyclopédie des arts divinatoires, p 34.

(٤) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 22.

(٥) انظر مثلا: Couderc: l'astrologie, p 65

(٦) L'astrologie, p 72.

(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ١٥٠.

يقول ابن القيم: «لو أن رجلا جلس في دار لها بابان شرقي وغربي فسأل المنجم وقال من أيهما يقتضي الطالع خروجي؟ فإذا قال له المنجم من الشرقي أمكنه تكذيبه والخروج من الغربي وبالعكس. وكذلك السفر في يوم واحد وابتداء البناء وغيره في يوم يعينه له المنجم باقتضاء الطالع له من غير تقدم عنه ولا تأخر، فإنه يمكنه تكذيبه في ذلك أجمع»[١].

وأين دور البيئة والوراثة؟

وبسبب هذا التصور الجبري فإن التنجيم ينفي عمليًا أي دور للوراثة في تشكيل الإنسان، وشخصيته ومزاجه، واستعداداته البدنية، وقدراته الفكرية، وطبيعة صحته ونوع أمراضه. . .وقد انتبه لهذا مفكرون من القدماء، فإن شيشرون يقول: «كيف عزب عن علم المنجمين الأثر الذي تخلفه نطفة الآباء في الأبناء، فالأطفال يأخذون عن آبائهم ملامحهم وعاداتهم»[٢].

واليوم، بفضل ظهور علم الوراثة وتطوره الكبير، فإننا نعرف أشياء كثيرة عن الجينات، وعما تحمله من خصائص الإنسان بدءًا من لون الشعر، وانتهاءًا بالطبع النفسي.

هناك ـ إذن ـ تناقض واضح بين التنجيم وعلم الوراثة[٣].

وكذلك فإن التنجيم ينفي دور البيئة في تشكيل ملامح الفرد، وكما قال شيشرون، فإن «مولد المرء يتأثر بالبيئة المحلية أكثر مما يتأثر بحالة القمر»[٤].

إن علم النفس يعتبر أن السنوات الخمس الأولى هي الأخطر في تشكيل شخصية الإنسان، وضبط ملامحها. وهذا التشكل ثمرة عوامل بيولوجية، من جهة، وعوامل نفسية واجتماعية من البيئة المحيطة بالفرد، خصوصا من الوسط الأسري. . .من جهة أخرى[٥]. ولا محل هنا للكواكب.

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٣.
(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٧.
(٣) L'astrologie, p 66 - 67
(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٧.
(٥) D. Lagache : La psychanalyse, p 37 - 38 (التحليل النفسي).

من نقد ابن سينا للتنجيم:

يرى ابن سينا أنه توجد علوم خاطئة ولا أساس لها من الصحة، وينبغي على العالم أن يترفع عن الاشتغال بها، بل حتى عن دحضها ونقدها. لكن كان لابن سينا صديق شوش التنجيم عقله، فكتب له رسالة في إبطال التنجيم[١].

وقد سبق أن أوردت بعض ما في هذه الرسالة من وجوه النقد السينوي. ثم رأيت أن أذكر الباقي هنا استكمالا للموضوع: يعتقد ابن سينا أن كل ما في التنجيم محض خيال وأوهام، ولا حقيقة له، ولا أدلة عليه[٢]. ولا معنى لنسبة الخير والشر إلى الكوكب، لأنه لا وجود للشر المطلق، فهو مجرد مفهوم نسبي، وإلا فكل ما يظن أنه شر هو في الحقيقة يحمل خيرًا[٣]. والأجرام السماوية بسيطة غير مركبة، فمكوناتها لا تختلف فيما بينها، حتى تختلف طبائعها وآثارها[٤].

لكن في نقد ابن سينا شيئا يختلف عن نقد غيره من العلماء كابن القيم والباقلاني[٥].. ونحوهما.. فابن سينا يرى ـ كأكثر الفلاسفة ـ أن الأفلاك كائنات عاقلة ومختارة، فلها عقول وأرواح توجهها، وإرادات بها تكون فاعلة (وفق الفكرة الفلسفية التقليدية: الباري ؟ العقول ؟ الأفلاك ؟الأرض). ولذلك لا شك أن للكواكب آثارًا على الأرض.

لكننا ـ يقول ابن سينا ـ لا نعرف طبيعة هذه العقول والأفلاك، ولا حجمها، ولا أفعالها، ولا أي شيء عنها. .بل رأينا أن أشعة الشمس الواحدة، تذيب الشمع، وتصلب الملح.. وهذا معناه أن آثار الكواكب تختلف أيضا باختلاف القابلات الأرضية. كيف السبيل إذن ـ والعقل الإنساني محدود ـ إلى استنباط هذه الآثار شديدة التنوع والاختلاف، والتي تنسب إلى الأفلاك[٦]. فكأن ابن سينا يسلم

---

(١) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 6.

(٢) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 18.

(٣) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p9 - 10

(٤) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 12.

(٥) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إمام أهل الكلام، و تولى القضاء، توفي ببغداد سنة ٤٠٣هـ. الأعلام، ٧/٤٦.

(٦) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 19,20 . راجع في فلسفة ابن سينا في موضوع الأفلاك والعقول ونحو ذلك: لباب الإشارات والتنبيهات، ص ١٠٣ إلى ١١٠.

تأثير الكواكب، لكنه يقول ليس بمقدورنا معرفة هذا التأثير ما هو. وهذا كله من آثار الأرسطية ونظرية الفيض، وكلاهما أرضية خصبة لظهور التنجيم، كما رأينا في فصل التاريخ.

ثم يقول ابن سينا: حتى لو سلمنا للمنجمين دعاويهم، فلا سبيل إلى التنبؤ الصحيح والسليم، لأن الأشياء في هذا العالم في تغير دائم، ولا تكاد تستقر على حال، وذلك بسبب تركبها من العناصر الأربعة، التي هي دائمة التحول، من بعضها إلى بعض. فمن يضمن لنا أن الشيء الذي وقع تحت تأثير كوكب ما سيظل كذلك، حتى بعد تغيره وتحول عناصره وخصائصه، بينما يفترض التنجيم الثبات في الأشياء[١].

وبهذا ترى أن للنقد الفلسفي للتنجيم منطلقات وأسباباً خاصة، فيختلف بعض الشيء عن نقد المتكلمين مثلاً[٢]. لكن توجد ردود وانتقادات مشتركة، مثل غياب الدليل في التنجيم، وطابعه الجبري، وعدم تحقق نبوءاته في الواقع. .ونحو ذلك مما سبق قبل قليل.

في سوء أحوال كثير من أصحاب التنجيم:

من قديم تساءل بعض الكتاب لم لا يعرف المنجمون مستقبل حياتهم الخاصة، ولا يقدرون أن يتنبئوا بمصائرهم، بل يسرقون أحيانا، ويقتلون. . .ولا يستطيعون لذلك دفعا[٣]. ونظم بعضهم في ذلك شعراً، فقال:

من لم يكن عالما ماذا يحل به لم يدر من غيره ما بعد يكتسب.
إن الذي ابتدع الأشياء دبرها في الخلق لا فلك يدري ولا قطب[٤]

قال النقاد: قد وجدنا بالتجربة أن المنجمين ومن عمل بنصائحهم، ليسوا أفضل حالا من غيرهم؛ بل من عمل بكلامهم في السعود والنحوس، وفي الإقبال على عمل أو تركه. .تجده دائماً في حالة سيئة من التخبط والقلق[٥].

---

(١) Vues d'Avicenne sur l'astrologie , p 21 - 22

(٢) راجع مثلا :التمهيد، للباقلاني، ص ٦٢ فما بعدها.

(٣) Quelques sciences captivantes, p 205.

(٤) من قصيدة لمحمد بن حبيب الضبي، والبيتان نقلهما الخطيب في القول في علم النجوم، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٥) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥١.

ويقول ابن القيم مستشهدا على ذلك: «وانظر ما كان أقوى تعلق بني برمك بالنجوم، حتى في ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم، وكيف كانت نكبتهم الشنيعة. وانظر حال أبي علي بن مقلة الوزير، وتعظيمه لأحكام النجوم ومراعاته لها أشد المراعاة، ودخوله دارا بناها بطالع زعم الكذابون المفترون أنه طالع سعد لا يرى به في الدار مكروها، فقطعت يده ونكب في آثاره أقبح نكبة نكبها وزير قبله. وقتلى المنجمين أكثر من أن يحصيهم إلا الله عز وجل»[١].

إشكالات في التنجيم معلقة إلى غير أجل:

ومنها على سبيل الاختصار:

اتحاد الطالع واختلاف الآثار:

وهذا من أهم ما انتقد على التنجيم، كيف يكون الطالع واحداً ومشتركاً ومع ذلك تختلف آثاره في الأرض؟ وفي كل يوم يوجد ناس سعداء فرحون وآخرون أشقياء حزينون[٢].

ولذلك يقول ابن القيم: «عند حدوث.. الطالع حدثت أنواع من الحيوانات وأنواع من النبات وأنواع من الجمادات، فلو كان ذلك الطالع يوجب آثاراً مخصوصة لوجب اشتراك كل الأشياء التي حدثت في عالمنا هذا في ذلك الوقت في تلك الآثار، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن القول بتأثير الطالع باطل»[٣].

وكثير من أحوال الناس سكان الأقاليم المتنوعة تختلف رغم استوائهم في أوقات الولادة[٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص٤٦٣. وبنوبرمك عائلة أصلها فارسي، كانوا وزراء لهارون الرشيد، عرفوا في حكمه العز والصولة، ثم انقلبت أحوالهم. وهي مشهورة في التاريخ، فراجع كتب التواريخ إن شئت. وقصتهم يضرب بها المثل في تغير أحوال الدنيا.

(٢) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 15.

(٣) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٥٠.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، ٥/ ١٥٠.

مثال الحرب والكوارث:

نحن نرى ـ كما يقول شيشرون ـ أن معركة واحدة يقتل فيها بشر كثير، فهل ولدوا كلهم في ظروف تنجيمية واحدة[١]. وكذلك الأمر في سائر الكوارث من الفيضان والنار والإعصار والغرق...

ولابن القيم تفصيل جيد في هذه المسألة، قال:

«إنا نشاهد عالماً كثيراً يقتلون في ساعة واحدة في حرب، وخلقاً يغرقون في ساعة واحدة، مع القطع باختلاف طوالعهم واقتضائها عندكم أحوالا مختلفة، ولو كان للطوالع تأثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك. ولا ينفعكم جواب من انتصر لكم بأن الطوالع قد يكون بعضها أقوى من بعض، ولعل طالع الوقت أقوى من طالع الأصل وكان الحكم له، فإن طالع الوقت لعله اقتضى هلاكاً أو غرقاً عاماً وهو أقوى من طالع الأصل، فكان التأثير له. لأنا نقول هذا بعينه يبطل عليكم طالع المولود والأصل، ويحيل القول بتأثيره واعتباره جملة، فإن الطوالع بعده مختلفة كثيرة، وأصل بعضها أو أكثرها أقوى منه فيكون الحكم بموجبه باطلاً إذ لا أمان لكم من اقتضاء الطوالع بعده ضد ما اقتضاه وحينئذ فلا يفيد اعتباره شيئا... ﴿ثُمَّ﴾ إنا نرى الجيشين العظيمين والحزبين المتقابلين يقتتلان ويختصمان وقد أخذ طالع الوقت لكل منهما، ومع هذا فالمنصور والغالب أحدهما مع أن الطالع واحد. ولا ينفعكم في هذا جواب من انتصر لكم بأنه لا مانع من القول بخطأ الأخذ للطالع في الحساب والحكم، فإنه لو أخذ لهما أي طالع كان لم يكن الغالب إلا أحدهما، حتى لو كان الطالع قطعاً لا يتصور فيه الغلط لم يكن بد من كون أحدهما غالباً والآخر مغلوباً. وهذا يبطل مذهب الأحكام بلا ريب»[٢].

مثال التوائم:

لقد شكلت حالة التوائم ـ خصوصا الحقيقيين ـ تحدياً واضحاً للتنجيم. فهما ولدا في نفس اليوم، بل ـ في أحيان كثيرة ـ في نفس الساعة، وليس بينهما إلا زمن

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٨.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥١. طالع الأصل هو الطالع الفلكي الذي ينبني على زمن الولادة، أما طالع الوقت فهو الحساب التنجيمي لأوضاع الفلك في زمن آخر، كأن يقول الملك لمنجمه: خذ لي طالع الوقت الآن، لأعرف هل سأخوض الحرب أم لا، أو سأبني المدينة أم لا..

يسير، مع اشتراكهما في الأبوين. ومع ذلك فحياتهما تختلف، ومستقبلهما ليس واحداً، وهذه ملاحظة قديمة[١]. يقول ديوجانس الرواقي: «إن التوائم يتشابهون في المظهر، ولكنهم يختلفون عادة في مجرى الحياة، وفي الحظ الذي يصادفونه»[٢]. وكذلك كانت هذه الملاحظة إحدى أسباب انصراف أغسطين عن التنجيم بعد أن كان به شغوفا[٣].

وقد رأيت بطليموس ذكر التوائم في كتابه، لكن لا ليرفع هذا الاعتراض على التنجيم، بل ليفسر اختلاف التوائم في عددها وجنسها، وبالاستناد على خصائص الكواكب وآثارها![٤]

هل العبرة بزمن الإخصاب أم بوقت الولادة:

وقد اعتبر قوم الزمن الأول، وقالوا: «الطالع المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة. وذلك لأن عند مسقط النطفة يأخذ ذلك الشخص في التكون والتولد، فأما عند الولادة فالشخص قد تم تكونه وحدوثه، ولا حادث في هذا الوقت إلا انتقاله من مكان إلى مكان آخر. فثبت أنه لو كان للطالع اعتبار لوجب أن يكون المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة»[٥].

ولذلك فطالع الولادة مستعار فقط، والطالع الحقيقي هو عند الإخصاب[٦].

وقال آخرون: هذا قد يصح، لكن لا سبيل لنا إلى معرفة وقت الإخصاب متى كان، فلما تعذر ذلك صرنا إلى الاعتماد على زمن الولادة.

لكن حتى لو أخذنا بطالع الولادة، فإنه من العسير ضبطه، لأن بعض الكواكب تسير بسرعة هائلة، وفي ثوان فقط تكون قد انتقلت من مكان إلى مكان. فمتى

---

(١) انظر: L'astrologie, p 67.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٤ Diogène Laërce. كاتب إغريقي، وأول مؤرخ للفلسفة اليونانية، عاش في القرن الثاني للميلاد، وهو غير ديوجانس الكلبي، الفيلسوف المتوفى سنة ٣٢٧ ق.م.

(٣) Saint - Augustin: Confessions, livre VII, p 173.

(٤) Tétrabible, p 138 - 139

(٥) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٠. وانظر: l'Astrologie, p 66

(٦) مفتاح دار السعادة ، ص ٥٠٩.

يمكن أخذ الطالع، في خروج بعض رأس الجنين، أو في خروجه كله، أم في خروج بعضه ولو طال خروج جميعه..؟

وما زال الإشكال في الزمن المعتبر في الطالع قائما إلى اليوم، عند أصحاب التنجيم.

الكواكب المكتشفة حديثاً:

رأينا أن القدماء قالوا بوجود سبعة كواكب، وهي كلها مشاهدة بالعين المجردة. وعلى أساس أن الكواكب سبعة قام التنجيم. وقد قال ابن القيم ـ منذ حوالي ثمانية قرون ـ : حتى لو سلمنا بآثار الكواكب على الأرض، فإن معرفة جميع المؤثرات الفلكية ممتنعة لوجوه: أحدها أنه لا سبيل إلى معرفة الكواكب إلا بواسطة القوى الباصرة، والمرئي إذا كان صغيراً أو في غاية البعد من الرائي، فإنه يتعذر رؤيته..فلعل في الفلك الأعظم وفي فلك الثوابت كواكب لا نعرفها لأننا لا نراها..[١].

وفعلا فقد اكتشف العلم ـ في العصر الحديث ـ أن في مجموعتنا الشمسية كواكب أخرى لم تكن معروفة من قبل. وهذا ما سبب اضطراباً كبيراً في التنجيم[٢]، لأن وجود كواكب كانت مجهولة في الماضي معناه أن كل حسابات المنجمين وعلومهم خاطئة، بما أنها أغفلت تأثير مجموع الكواكب.

وهذه الكواكب هي: أورانوس وقد اكتشف سنة ١٧٨١. ونبتون، وهو غير مرئي للعين المجردة، اكتشف سنة ١٨٤٦. وبلوتون، أحدثها اكتشافا، سنة ١٩٣٠[٣].

وللمنجمين طرق مختلفة في كيفية التعامل مع هذه المفاجأة غير السعيدة:

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٧.

(٢) L'astrologie, p 15 - 16 Quelques sciences captivantes, p 191.

(٣) الكوكب الأول Uranus، أكبر من الأرض بكثير، وهو السابع في ترتيب الكواكب الدائرة حول الشمس. وقد وصلت إليه المركبة الفضائية الأمريكية «مسافر ٢» سنة ١٩٨٦، وقدمت عنه معلومات كثيرة. أما نبتون Neptune، فهو الثامن في الترتيب، وحجمه أضعاف الأرض، وقد وصلت إليه أيضا مركبة «مسافر٢». أما بلوتون الأبعد، فهو كوكب صغير، حوالي ربع حجم القمر. عن موسوعة . P. Robert

١ ـ الحفاظ على التصنيف القديم. فبابوس ـ مثلا ـ يعتبر أن إضافة تأثير مستقل لهذه الكواكب الجديدة.. خطأ كبير. لأنا لو فعلنا ذلك، لزم أيضا أن نحسب تأثير النجيمات والشهب، وهي كثيرة في الفضاء، وهذا يجعل من التنجيم حسابا جد معقد، ويتعذر أن نضع طالعا فلكيا في هذه الحال.

ما العمل إذن؟ الرأي ـ عند بابوس ـ أن نعتبر كوكبي أورانوس ونبتون جزءا من مجال كوكب زحل، يدعمان تأثيره، كما تحسب النيازك التي تسبح بين المشترى والمريخ على مجال تأثير المشترى. والقدماء قسموا السماء إلى سبع مجالات للتأثير. وبهذا لا تتغير الحسابات[١].

٢ ـ الرأي الآخر إدماج الكواكب الجديدة في التنجيم. فهي الآن عشرة. وقد وضع المنجمون لكل كوكب جديد خصائص وطبائع مستقلة ومنازل وتأثيرات محددة، وأصبحوا يتكلمون عن كوكب أورانوس كما يتكلمون عن المشترى وزحل[٢].

ولا حاجة إلى التنبيه على أننا لا نعرف كيف نسب هؤلاء إلى الكواكب الجديدة ما نسبوه إليها.

٣ ـ ومن المنجمين من يقول: إن آثار كوكب بلوتون ما تزال مجهولة وغير معروفة بدقة، بسبب أن الكوكب اكتشف منذ فترة قصيرة[٣]. فهذا توقف، أو تهرب.

ولست أدري كيف سيصلون إلى تحديد طبائع هذا الكوكب، وماذا يمكن أن يفعله الزمان لصالح هذا الموضوع.

هذا عن كواكب مجموعتنا الشمسية. أما خارجها فالنجوم بالملايين، فلم لا تؤخذ هي أيضا بعين الاعتبار في التأثير على الحياة الإنسانية. وقد لاحظ ابن سينا ـ من قديم ـ أن في الكون نجوما وكواكب وأجراما كثيرة متفاوتة الحجم، غير الكواكب السبعة، والمنجمون أهملوها لغير سبب[٤].

---

(١) Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 246 - 247

(٢) انظر مثلا F. Maisonblanche: Poissons, p 106 - 107، p208 à 215: Belline: Encyclopédie des arts divinatoires, p 38 - 39

(٣) Encyclopédie des arts divinatoires, p 39.

(٤) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 19 - 20

ردود وانتقادات مختلفة:

والبداية بأهمها :

١ ـ ظاهرة مبادرة الاعتدالين :Précession des équinoxes وسبب هذه الظاهرة أن حركة الشمس تتأخر قليلا كل سنة، فأحدث هذا تباينا بين منطقة البروج ونجومها. وقد لاحظ القدماء أن في المنطقة الخامسة من فلك البروج توجد مجموعات من الكواكب، شبهوها بالأسد، ربما لأن ترتيبها كان يشبه نوعا ما هذا الحيوان. ثم اعتبروا أن من ولد تحت هذه الكواكب فإنه يرث صفات الأسد، من الشجاعة، والكبرياء، والسخاء. . .لكن منطقة البروج انتقلت ـ منذ ذلك الزمان إلى اليوم ـ بخانة واحدة، بحيث إن برج الأسد اليوم لم يعد يحتوي على الكواكب الأولى، بل على مجموعة النجوم التي كانت سابقا في برج السرطان. لكن التنجيم إلى اليوم يعتبر أن خصائص برج الأسد تعود إلى مجموعة الكواكب الأولى، رغم أن مولود هذا البرج الآن إنما يولد في ظل نجوم السرطان.

وبهذا يتبين أن التنجيم يضحي الآن بأساسه العام لصالح الحفاظ على الشكل القديم[(١)].

وهكذا الأمر في سائر الأبراج، فبرج الحمل ـ مثلا ـ لم يعد يحتوي على النجوم الخاصة به، كما كان منذ ألفي سنة، بل هو الآن يحتوي على النجوم الخاصة بالحوت[(٢)].

٢ ـ لا يمكن وضع طالع فلكي بالنسبة لبعض الشعوب التي تسكن أقصى شمال الكرة الأرضية، كالألسكيين وكثير من الفنلنديين والنرويجيين والسيبريين. .ونحوهم، وذلك لأن دائرة البرج تتطابق مع الأفق، ولا يمر بأي منزلة من المنازل الاثني عشرة[(٣)].

٣ ـ لو غيرنا نظام التنجيم، فجعلنا خصائص منزلة برج ما لبرج آخر، وقلبنا سائر

---

(١) L'astrologie, p 61 - 62

(٢) راجع : L'astrologie, p 13 - 14

(٣) انظر : L'astrologie, p 66.

الأوضاع التنجيمية، لوجدنا أنه لم يتغير شيء من النتائج والآثار[١]. ولذلك يقول الفارابي: «واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت السعد نحسا والنحس سعدا والحار باردا والبارد حارا والذكر أنثى والأنثى ذكرا، ثم حكمت لكانت أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطئ تارة»[٢].

٤ ـ حتى لو فرضنا أن للأفلاك آثارا في حياتنا عامة، فإنه من المتعذر معرفة هذه الآثار. وذلك لأننا ـ باعتراف أصحاب التنجيم ـ لا نعرف طبائع جميع الكواكب المرئية، بل هم لا يعرفون جميع طبائع الكواكب الثابتة المحسوسة، مع أنها قليلة. ولو فرضنا أن أهل التنجيم حددوا طبائع كل كوكب على حدة، فلا سبيل إلى معرفة نتيجة امتزاج طبائع جميع الكواكب. ولو عرفنا حال هذا الامتزاج أيضا، فما يدرينا أنه كان في حال الأفلاك قبل هذا موانع تمنع من حصول مقتضيات الأشكال الحاصلة في الحال، فيلزم الإحاطة بأوضاع الأفلاك السالفة جميعا[٣].

٥ ـ ومن تخبطاتهم الدالة على فساد صناعتهم ادعاؤهم أن نجم النبي ﷺ كان بالعقرب والمريخ، ونجم أمته كان بالزهرة، بينما جعلوا نجم النصارى بالمشترى، مع قولهم إن المشترى يقتضي العلم والدين، والزهرة تقتضي اللهو واللعب. قال ابن تيمية: «الفلاسفة متفقون كلهم على أنه ما قرع العالم ناموس أعظم من الناموس الذي جاء به محمد ﷺ، وأمته أكمل عقلا ودينا وعلما باتفاق الفلاسفة، حتى فلاسفة اليهود والنصارى، فإنهم لا يرتابون في أن المسلمين أفضل عقلا ودينا... فإذا كان المسلمون... مما يناسب عندهم آثار المشترى، والنصارى أبعد عن ذلك، وأولى باللهو واللعب، وما يناسب عندهم آثار الزهرة: كان ما ذكروه ظاهر الفساد»[٤].

٦ ـ وقد بين تطور علم الفلك أنه لا علاقة بين الكواكب والمعادن، فأغلب الكواكب ـ ومنها الشمس ـ تحتوي على جل الأجسام الأرضية، وفي زحل كتل

---

(١) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 13.

(٢) عن مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٥.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٤) الفتاوى لابن تيمية، ٣٥/١٨٧، ١٨٩.

عظيمة من غازات الأمونياك والميثان . . . وهم ينسبون إليه الرصاص، وإلى الزهرة النحاس، وإلى القمر ـ الذي ليس به غير الصخور ـ الفضة . .[١].

٧ ـ ولا معنى لاستنباط طبائع الكواكب من ألوانها التي تبدو لنا، فإن «الدلالة بمجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جدا، فإن النورة والنوشادر والزرنيخ والزئبق المصعد والكبريت في غاية البياض، مع أن طبائعها في غاية الحرارة. . .»[٢].

ثم هم لم يلتزموا في هذا الاستنباط طريقة واحدة، فقد اعتبروا المريخ حارا لشبهه بالنار، وهذه المشابهة في الشمس أتم، فيلزم أن تكون حرارة الشمس وسخونتها أقوى من حرارة المريخ، وهم تمسكوا بعكس ذلك[٣].

٨ ـ وإذا كان لازما أن نضيف التأثير إلى النجوم عند الميلاد، فمن باب أولى أن نضيفه إلى الظواهر الأقرب والأقوى، كالرياح والأمطار وتقلبات المناخ[٤].

أخطاء التنجيم:

إن ممارسة لا تنبني على أساس علمي صحيح لا بد أن يظهر عوارها فتنكشف حقيقتها. وأخطاء التنجيم كثيرة، حتى ذهب مثلا: كذب المنجمون ولو صدقوا. يحكي شيشرون أن بعض الكلدانيين تنبئوا لقيصر بطول العمر وعلو المجد، وأنه سيموت في منزله. وهو الذي قتل مبكرا بمجلس الشيوخ[٥].

ولعل من أشهر الأخطاء في تاريخنا الإسلامي ما حدث للخليفة العباسي المعتصم حين تجهز لغزو مدينة عمورية، وكانت في يد الرومان، فحكم المنجمون بأن هذا الوقت الذي اختاره الخليفة للغزو وقت نحس لا يصلح بتاتا، ولذلك فلن يعود منه، وإن رجع كان معلولا خائبا . . .لكن المعتصم مضى في خطته، وفتح المدينة سنة ٢٢٣هـ، وكان فتحا عظيما[٦]. . وقد خلد الشاعر أبو تمام هذه المعركة، واعتراض أهل التنجيم عليها، في قصيدته الشهيرة، التي مطلعها: السيف أصدق أنباء من الكتب.

---

(١) L'occultisme devant la science, p 61.

(٢) رسالة عيسى بن علي في التنجيم التي نقلها صاحب مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٠.

(٣) رسالة عيسى بن علي، ص ٤٨٠.

(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٦.

(٥) علم الغيب، ص ١٨٩.

(٦) القول في علم النجوم، ص ٢٠٠.

إليهم فحاربهم وانتصر، وبعدها استرد مصر التي كان القرامطة يتقون بأميرها خمارويه بن طولون. قال ابن القيم: وأمر وزير المكتفي بإحضار رئيس المنجمين وصفعه الصفع الكثير بعد أن وقفه ووبخه على عظيم كذبه وافترائه وتبرأ منه[١].

ومن ذلك أيضا أن جوهر الصقلي لما بنى مدينة القاهرة، أحضر المنجمين، وأمرهم أن يحددوا الساعة المناسبة لوضع أساس المدينة، وأمر البنائين أن لا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعوه، وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة السعيدة. فتم ذلك ووضع أساس المدينة تحت طالع كوكب زحل، وسموها بالقاهرة، إشارة إلى الكوكب القاهر. وأجمع المنجمون يومذاك على أن الدعوة الفاطمية قائمة أبدا. وبعد ١٩٣ سنة جاء صلاح الدين الأيوبي، فأنهى الخلافة الفاطمية، وقضى عليها وعلى دعوتها[٢].

وفي سنة ٣٩٥ هـ اتفق المنجمون أيام الحاكم بأمر الله على أن هذه السنة هي التي ينقضي بها بمصر حكم العبيديين ـ أو الفاطميين ـ ، وأن الطالع يحكم للثائر أبي ركوة الأموي بالنصر المبين وأسر الحاكم. فلما دارت المعركة وانتصر الحاكم، كان من أوائل ما فعل أن أمر بإحضار منجمه الأكبر معروف الفكري، وقتله[٣].

وقد كان المنجم أحيانا يدفع حياته ثمنا لخطئه، ولذلك يقول ابن القيم: «وقتلى المنجمين أكثر من يحصيهم إلا الله عز وجل»[٤].

ومن الأخطاء المشهورة أيضا: ما حدث لكاردان الذي زار إنكلترا سنة ١٥٥٢م خصيصا ليضع للملك إدوارد السادس طالعا فلكيا، فتنبأ له بعمر طويل وعافية، لكن الملك مات مريضا وعمره ستة وخمسون سنة. وتوقع موران مرارا لتلميذه الفيلسوف والعالم كاسندي الموت في زمن محدد، ولكنه لم يصب، كما لم يصب في توقعه بموت الملك لويس الثالث عشر[٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٥٧.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص٤٥٧. جوهر هو القائد العسكري للعبيديين الذي فتح مصر، وأميرهم كان هو المعز.

(٣) مفتاح دار السعادة ، ص٤٥٨. راجع قصة الفكري مع الحاكم في مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٤٦٣.

(٥) Quelques sciences captivantes, p 204 - 205 وانظر أمثلة أخرى في صفحات ٢٠٦ ـ ٢٠٧، وفي: L'astrologie, p 70,96 à 98

وقد ذكر بول أن جميع المنجمين في سنة ١٩٣٨ تنبئوا لأوربا بسلام عميم؛ وحتى حين كانت الحرب قريبة جدا، وعلاماتها واضحة، كما في دجنبر من هذه السنة، قالوا إن الحرب لن تقع[١].

ومن التنبؤات الفاشلة التي حدثت في السنوات القليلة الماضية: تنبؤ المنجم التونسي حسن الشارني بوفاة حكام عرب سنة ١٩٩٨، وهو ما لم يحدث[٢]. ومن تنبؤات هذا الرجل أيضا: وقوع حرب بين الدولة الصهيونية وجيرانها العرب سنة ١٩٩٨ . وتنصيب الأمير البريطاني شارلز ملكا في سنة ١٩٩٨، أو ١٩٩٩، أو ٢٠٠٠[٣]. وتنبؤ عراف كوبي اسمه خوان غاريسيا بموت الرئيس الروسي السابق يلتسن، وهو لا يزال حيا يرزق لحد كتابة هذه السطور. وتنبؤ الأندونيسي بير مادي ساتريو - الذي هجر المحاماة إلى التنجيم - بأن عام ١٩٩٨ سيكون عام كارثة كونية. أما لورين فقد توقعت أن يخلف رئيس شاب الرئيس الأندونيسي السابق سوهارتو، والذي خلفه فعلا هو شيخ كبير لا يستطيع أن يتمشى بدون مساعدة أحد، اسمه: عبد الرحمن وحيد[٤].

حسبنا هذا القدر، لأنه كما قال ابن القيم لو تتبعنا أحكامهم وقضاياهم الكاذبة التي وقع الأمر بخلافها لقام منها عدة أسفار[٥].

ولا شك أن هذه الأخطاء الكثيرة والمتكررة تساهم في إضعاف التنجيم وزعزعة ثقة الناس فيه. لكن أهم عامل منع التنجيم من أن يكون أكثر قوة وانتشارا مما هو عليه في القرون الأخيرة، هو انهيار النسق الفلكي لبطليموس، والذي كان

= موران هو: Jean - Baptiste Morin. أما Pièrre Gassendi (1655) ففيلسوف وعالم فرنسي، رد على ديكارت.

(١) Quelques sciences captivantes, p 213 à 215.

(٢) عن جريدة العلم، عدد ٢٠ أبريل ١٩٩٨.

(٣) جريدة الحياة، ١٠ شتنبر ١٩٩٧، الصفحة الأخيرة. شهرة حسن الشارني جاءت من قبل تنبوئه بموت الأميرة الإنكليزية ديانا. وهو ما كان نشره في الصحيفة الأسبوعية التونسية «الصريح»، (كما في جريدة الحياة). وليس بين يدي نسخة من عدد الصريح لأكون رأيا في الموضوع.

(٤) صحيفة القدس العربي، ليوم ٢١ - ١ - ١٩٩٨.

(٥) مفتاح دار السعادة، ص ٤٦٣.

أساسا لهذا الفن، إضافة إلى تقدم المعارف والعلوم، وما لذلك من أثر في انتشار الوعي العلمي بين الناس[١].

في تعليل إصابة المنجم:

١ ـ اهتم أغسطين الشاب بهذا السؤال: إذا كان التنجيم فنا فاسدا فكيف نفسر وقوع أشياء بحسب نبؤات المنجمين؟

وفي النهاية اقتنع بتفسير صديقه الشيخ: الصدفة وحدها هي التي تفسر إصابة المنجم، ونحن لكثرة ما نقول أشياء وأشياء، لا بد أن نصيب في بعضها، وأنت إذا شغلك أمر ما وفتحت كتاب شعر، فستجد ـ غالبا ـ بيتا شعريا يناسب ما يشغلك. ولذلك لا وجود لفن قادر على توقع المستقبل[٢].

وهذا التفسير جائز، لكنني لا أحب اللجوء إلى دليل الاتفاق مجردا، والقاعدة العامة عندي أن التفسير بالصدفة تفسير من لا تفسير عنده، يلجأ إليه إذا أعيته الحيلة.

لهذا وجدت عند الخطيب البغدادي كلاما أدق في هذه المسألة، قال: «إنما يدخل الشبه على الناس في أمر المنجمين من قبيل أنهم يرون المنجم يصيب في مسألة تقع بين أمرين، كالجنين الذي لا يخلو من أن يكون ذكرا أو أنثى، أو المريض الذي لا يخلو من أن يصح أو يموت، والغائب الذي لا يخلو من أن يقيم بمكان أو يؤوب»[٣].

وهذا أجود، وإن كان هو أيضا تفسيرا بالاتفاق، فالمنجم إذا تنبأ بما في حمل امرأة كانت حظوظ إصابته ٥٠٪، بالحساب الرياضي (إذا استثنينا احتمال التوائم). بل يكفي أن يقول منجم: هذا الجنين ذكر، ويقول منجم آخر: بل هو أنثى. . .ليصدق أحدهما، ويكون هذا دليلا على براعة الصادق وإتقانه للتنجيم!

فالتوقع الذي يكون بين أمرين واضحين، أو مجموعة أمور محددة ومميزة، تكون حظوظه في الإصابة عالية، حتى بالحساب الرياضي.

---

(١) Quelques sciences captivantes, p 208 - 209

(٢) Confessions, livre IV, p 93, et livre VII, p 171.

(٣) القول في علم النجوم، ص ١٩٢.

ثم إن التنجيم لا يمكن أن يثبت بإصابات معدودات، بينما توجد له أخطاء لا تنتهي، ولو كانت أكثر تنبؤات المنجمين تصيب لكان لنا بحث آخر وكلام آخر في الموضوع، لكن كيف ذلك وهم يصيبون في الأقل ويخطئون في الأكثر. يقول الخطيب: «وإن وجد لمن يدعي الأحكام إصابة في شيء، فخطؤه أضعافه، ولا تبلغ إصابته عشر معشاره، وتكون الإصابة اتفاقا كما يظن الظان المنافي للعلم المقارن للجهل الشيء فيكون على ظنه، ويخطئ فيما هو معلوم أكثر عمره، ولا يقال: إن هذه إصابة يعول عليها، ويرجع إليها، بل إذا تكررت منه الإصابة في قوله، وكثر الصدق في لفظه والصحة في حكمه، ولم يخرم منه إلا الأقل حينئذ سلمت له هذه الفضيلة، وشهد له بهذه المعجزة»[1].

وإنما الأمر كما قال الشاعر زبان بن يسار في التطير:

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير وهي الثبور

بل شيء يوافق بعض شيء ... أحايينا وباطله كثير[2]

٢ ـ ويوجد سبب آخر، هو كثرة التنبؤات التي يلقيها المنجمون، فعددها كبير[3]، وهي متنوعة في أشكالها ومواضيعها، ولذلك يمكن أن يصيب بعضها، بل الغريب هو ألا يصدق شيء من هذا العدد الهائل من التنبؤات.

يحكي ابن تيمية عن مجلس ضمه مع بعض منجمي زمانه، قال: «... حتى إني خاطبتهم بدمشق، وحضر عندي رؤساؤهم. وبينت فساد صناعتهم بالأدلة العقلية التي يعترفون بصحتها، وقال رئيس منهم: والله إنا نكذب مئة كذبة، حتى نصدق في كلمة»[4].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «فإن قيل: المنجم قد يصدق؟ قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق في كلمة ويكذب في مئة. وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدرا؛ فيكون فتنة في حق من صدقه»[5].

---

(١) القول في علم النجوم، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) ذكره الخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٩٣.

(٣) Quelques sciences captivantes, p 207.

(٤) الفتاوى، ٣٥/ ١٧٢.

(٥) فتح المجيد، ص ٣٠٦. والشيخ عالم نجدي، وحفيد محمد بن عبد الوهاب، ولذلك يذكر في اسمه كلمة آل الشيخ. له كتب في التوحيد. وت -- وفي سن -- ة (٢٨٥هـ، ١٨٦٩م). عن الأعلام، ٤/ ٧٥.

٣ ـ ومن إصاباتهم ما يكون سببه كهانة[١]، لا التنجيم المجرد، فالذين أخبروا فرعون عن مولود بني إسرائيل الذي يكون هلاكه على يديه. .توصلوا إليه بطريق الكهانة. وقد اعتبر ابن رشد أن التنجيم من باب الزجر والكهانة، وليس من فروع العلم الطبيعي[٢]. والصدق في الكهانة أكثر منه في التنجيم المجرد.

٤ ـ ومما فسر به ابن سينا إصابة المنجم أن الناس طبقات، وكل طبقة تتشابه أحوالها وتتقارب ظروفها في الحياة، فالسلاطين طبقة، والجنود طبقة، والعبيد طبقة، والنساء عالم. . . وهكذا. والمنجمون يتنبؤون لكل طبقة بما يناسبها. وقد صنف أحدهم كتابا في طبقات الناس، وجعل لكل طبقة تنبؤات خاصة تصلح لها، ويقول ابن سينا: إن كثيرا من الناس وجدوا في هذا الكتاب وسيلة ممتازة لطلب العيش[٣].

٥ ـ وعموم الأجوبة سبب آخر، فالمنجم يقول لك: إن عدوك يبحث عن وسيلة للقضاء عليك، فتتعجب من مهارته، وإنما لكل أحد عدو أو خصم[٤].

٦ ـ وتوجد ـ غير ما تقدم ـ أسباب أخرى تفسر موافقات المنجم للواقع، في بعض الأحيان، منها: استفادتهم من بعض المعلومات الفلكية، وتنبؤهم بالاستناد إليها بظواهر طبيعية كالكسوف والمطر. .ونحو ذلك. وهذا يقوي من مصداقيتهم عند الناس، وخصوصا قديما.

٧ ـ وهناك سبب آخر هو بكل بساطة ووضوح الكذب. فقد كان المنجمون يختلقون قصصا عن منجمين سابقين توقعوا أمورا فحدثت. .أو إذا وقعت ظاهرة ما يقولون قد سبق للمنجم فلان أو علان أن تنبأ بها.

وربما حرفوا بعض الحقائق التاريخية ليلائموها مع حساباتهم، كما فعلوا بالنسبة للمصلح الديني مارتن لوثر الذي ولد في ١٠ نوفمبر ١٤٨٣م، فجعلوا بدل ذلك تاريخ ولادته ٢٢ أكتوبر ١٤٨٤م، ليتوافق مع وضع معين للسماء، يكون هو المسؤول عن ظهور مصلح كبير[٥].

---

(١) راجع مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

(٢) تهافت التهافت ، ص ٢٨٥. وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد، يلقب بالحفيد تمييزا له عن ابن رشد الجد. وابن رشد من كبار الفلاسفة في الإسلام. وهو قرطبي وتوفي بمراكش، ٥٩٥هـ. الأعلام، ٦/ ٢١٢.

(٣) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 16.

(٤) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 16.

(٥) L'astrologie, p 97.

ومما جاء فيها في موضوعنا هذا:

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
عجائبا زعموا الأيام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبراج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم يخف ما حل بالأوثان والصلب[(١)]

وقد حاول الكندي ـ وكان يشتغل بالتنجيم ـ أن يعتذر عن أخطاء المنجمين بأن الكتب الأولى المفصلة في هذا الفن ضاعت، ولأنه ما عاد أحد من الناس يفهمها، وما في أيديهم منها مجرد مختصرات مخلة لا تفي بالمقصود[(٢)].

ومن أخطاء المنجمين التي ذكرها ابن القيم أنهم اتفقوا على أن عبيد الله بن زياد سيغلب المختار بن أبي عبيد، فلقيه إبراهيم بن الأشتر وقتل ابن زياد[(٣)].

واتفقوا عند بناء مدينة بغداد سنة ١٤٦هـ أن طالعها يقتضي أن لا يموت بها خليفة، وتأكد ذلك عند بعض الناس لما رأوا الخلفاء: المنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد... ماتوا خارجها، حتى قتل بها الأمين، ثم مات بعده خلفاء كثر فظهر خطؤهم[(٤)].

واتفقوا أيضا في سنة ٢٧٢هـ أنه إن خرج الخليفة المكتفي بالله لمحاربة القرامطة كان هو المغلوب المهزوم، بمقتضى طالع الوقت. لكن المكتفي عزم على الخروج

---

(١) انظر: ديوان أبي تمام، بشرح أبي الصولي المعروف بالخطيب التبريزي، المتوفى سنة ٣٣٥هـ، ١/ص٤٣ فما بعدها.
(٢) انظر: القول في علم النجوم، ص ٢٠٦ إلى ٢٠٨.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٥. عبيد الله كان أميرا على جيش الأمويين، والمختار سياسي طموح لبس ستار الدعوة لآل البيت. وابن الأشتر من قواد المختار. والمعركة كانت سنة ٦٧هـ.
(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

الفصل السابع
الرازي والتنجيم، ورأيي في الموضوع

الفخر الرازي والتنجيم:

وقد نسب إلى الرازي القول بالتنجيم، ولم ينسب ذلك إلى غيره، ممن هو في مثل شأنه وقدره من علماء الإسلام، حتى إنك لتقرأ في دائرة المعارف الإسلامية: «وقد أجمع المتكلمون والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم، ولم يشذ عنهم إلا نفر قليل كالكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرازي»[(١)].

ولم أجد في كتب الرازي التي اطلعت عليها ما يدل على ذلك[(٢)]. ولعل من نسبه إلى التنجيم أخذ ذلك من كتاب «السر المكتوم في مخاطبة النجوم»، فإنه ينسب إلى الرازي. لكن قال ابن السبكي: «لم يصح أنه له، بل قيل: إنه مختلق عليه»[(٣)].

لذا لا أظن أن الرازي يقول بالتنجيم، على الأقل على نحو ما يعتقده المنجمون، كيف والفخر إمام كبير من أئمة المسلمين، تشهد تصانيفه بالدين والإيمان والعلم والعقل... والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ النور ١٢ . وأنا ممن يظن بالرازي وأمثاله كل خير.

بل الذي وجدته من كلام الرازي صريحا قوله: «اعلم أنه لا نزاع بين الأمة في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور، فإنه يكون كافرا على الإطلاق»[(٤)].

---

(١) مقال التنجيم، ٥/ ص٤٩٥.

(٢) لا أثر لهذه الدعوى في: ١ ـ المحصل في أفكار المتقدمين والمتأخرين. ٢ ـ لباب الإشارات والتنبيهات. ٣ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ٤ ـ النفس والروح، وشرح قوامهما. ٥ ـ المطالب العالية. إضافة إلى تفسيره الكبير.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، ٨/ ٨٧.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٣، آية (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان..) البقرة، ١٠٢.

لكن الشيء الذي قال به الرازي مع قلة من المتكلمين ـ خصوصا المتأخرون منهم ـ، هو أن الكواكب أحياء عاقلة، وأنه إن كانت لها آثار على الأرض، فذلك بإقدار الله تعالى لها على ذلك. ولم يقل بأن لها هذه التأثيرات التي يدعيها المنجمون، بالتفصيل والتقعيد السابقين عنهم.

وتفصيل هذا من كتابه «المطالب العالية»، فقد جعل الفصل الأول من المقالة الخامسة في «إقامة الدلالة على أن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة»، وقال: «اعلم: أن أهل الظاهر إذا سمعوا هذا الكلام استبعدوه. وهذا الاستبعاد مستبعد منهم جدا. وذلك لأنهم يروون خبرا عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (إن الشمس عند الغروب، يذهب بها، إلى ما تحت العرش، وعند الطلوع تسجد لله تعالى سجدة، ثم تطلع). ومعلوم أن السجود لا يصح منها إلا إذا كانت عارفة بربها. وذلك يقتضي إثبات الحياة والقدرة والعلم، فوجب بمقتضى هذا الخبر: كون الشمس حيوانا مطيعا لله عز وجل»[1].

ثم أورد في الاستدلال على ذلك حججا فلسفية، أولها الحجة القديمة: الأفلاك والكواكب متحركة بالاستدارة، وكل متحرك فحركته إما أن تكون طبيعية أو قسرية أو إرادية. والأولان باطلان، فتعين الثالث..[2].

وبعد استيفاء الأدلة، عرج الرازي على حجج المانعين من كون الأفلاك أحياء عاقلة، وأهمها أن الكواكب تتحرك على نهج واحد ومستقيم لا تعدوه، وذلك علامة الجماد لا الحي[3].

وأخيرا استدل الرازي بأن الكتاب الإلهي ناطق بكون الأجرام الفلكية موصوفة بالحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[4].

---

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي، ٥/ ٣٣٥. يشير إلى حديث أبي ذر الغفاري حين غربت الشمس يوما، فقال له النبي الكريم، يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه. ثم قال: فإنها تذهب تستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: اطلعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها. قال الترمذي: وفي الباب عن آخرين، وهو حديث حسن صحيح، كما في باب ما جاء في طلوع الشمس من مغربها، من كتاب الفتن. وفي هذا المعنى أحاديث أخرى، منها ما جاء في صحيح مسلم، في كتاب الإيمان، باب ٧٣، حديث ٢٥٠.

(٢) المطالب العالية، ٥/ ٣٣٦.

(٣) المطالب العالية، ٥/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٤) المطالب العالية، ٥/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧. تخريج الآيات على ترتيبها أعلاه: يس ٤٠ ـ يوسف ٤ ـ فصلت ١٢.

وحياة الكواكب قائمة بنفوسها، فلكل كوكب نفس، قال الرازي: «المختار عندي: أن النفس الفلكية جوهر مجرد عن الجسمية وعلائقها. ومع هذا، فإنها موصوفة بالإدراكات الجزئية، والإرادات الجزئية. وكذلك أيضا موصوفة بالإدراكات الكلية، والإرادات الكلية. فهي عارفة بربها، وقاصدة بهذه الحركات عبادة ربها وخالقها ومدبرها»[١].

ولما ثبت أن الفلك يتحرك بالإرادة، فذلك لأجل استفادة الكمالات من الأسباب العالية، ولذلك فإن حركات الأفلاك حركات شوقية[٢].

فإن قلت هذا نظر الفلاسفة الإسلاميين. قلت نعم، لكن الرازي يخالفهم من جهات عدة، منها: أن الفلاسفة أثبتوا للأفلاك عقولا أو جواهر عقلية، ثم رتبوها من حيث المبدأ و التأثير، فقالوا بالعقل الفعال، وهو المدبر لأحوال العالم، وبعدها العقول التسعة أو العشرة، على خلاف.[٣]. والرازي يقول حصر عدد العقول والنفوس في العشرة أو في الخمسين قول لا يليق بأهل التحقيق، ولا بالقوة العقلية البشرية، فالحق في هذا الباب ما جاء في الكتاب الإلهي حيث قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٤].

على أن الفرق الأهم بين الرازي والفلاسفة، هو أن الكواكب ـ عنده ـ لا تستقل بالتأثير أو التدبير، فالله تعالى هو الذي يخلق هذه التأثيرات الفلكية؛ بينما أكثر الفلاسفة ينسب إليها التدبير على وجه الحقيقة. يقول الرازي في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، النحل ١٢: «لو حكمنا بإسناد حوادث العالم السفلي إلى الحركات الفلكية والكوكبية، فهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن إسنادها إلى أفلاك أخرى، وإلا لزم التسلسل وهو محال؛ فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو الله تعالى، وإذا كانت الحوادث السفلية مستندة إلى الحركات الفلكية، وثبت أن الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه، فكان هذا

---

(١) المطالب العالية، ٥/ ٣٥٥.
(٢) المطالب العالية، ٥/ ٣٧٥.
(٣) المطالب العالية، ٥/ ٣٧٧ فما بعدها، ٣٨٣ فما بعدها.
(٤) المطالب العالية، ٥/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

اعترافا بأن الكل من الله تعالى وبإحداثه وتخليقه، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يعني إن كانت تلك الحوادث السفلية لأجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر، فهذه الأشياء لا بد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعا للتسلسل. ولما تم هذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يعني أن كل من كان عاقلا علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في آخر الأمر إلى الفاعل المختار القدير»[١].

وقال أيضا: «فإن قيل: لاشك أن للطلسمات آثارا مخصوصة، فلم لا يجوز أن يحصل الخوف منها من هذه الجهة؟

قلنا: الطلسم يرجع حاصله إلى تأثيرات الكواكب، وقد دللنا على أن قوى الكواكب على التأثيرات إنما يحصل من خلق الله تعالى فيكون الرجاء والخوف في الحقيقة ليس إلا من الله تعالى»[٢].

تفكيك كلام الرازي وتحليله:

فالمقصود إذن من وراء هذا البحث في موقف الرازي من التنجيم، أنه يمكن لنا أن نميز في كلام الرازي بين ثلاثة مسائل:

ـ الأولى: مجاراة الرازي للفلاسفة في نسبتهم العقل والنفس إلى الكوكب، وفي بعض كلامهم في طبيعة حياته، وفي شكل حركته وغرضه منها، وتمييزهم بين العقل الفعال والعقول العشرة، وترتيبهم لها... ونحو ذلك.

وقد تبع الرازي في هذا جماعة من متأخري أهل الكلام كالإيجي والجرجاني..[٣].

فهذا ـ ومثله ـ أقول فيه: ينبغي الإعراض عنه بالكلية. فلا دليل لنا على شكل حياة الفلك، وهل له نفس أم لا ، وهل لحركته غرض أم لا ، ونحو ذلك من

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢١.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٦٢، الأنعام ٧٩. وما قاله الرازي في قصة إبراهيم مع نمرود ـ البقرة ٢٨٥ ـ هو من هذا الباب. وراجع فيما يتعلق بالطلسمات كتابي عن: الغيب والمستقبل، أثناء الحديث عن السحر.

(٣) انظر: المواقف في علم الكلام، للإيجي، وشرحها، للجرجاني، ٢/ ٦٦٢ فما بعدها (المقصد الأول من المرصد الثالث: في النفوس الفلكية). أي هم تبعوا الرازي.

التفاصيل التي تعرض لها بعض الفلاسفة، كابن سينا وإخوان الصفا، وهؤلاء من مصادر الرازي. . . ولا سبيل إلى التعويل على القسمة المنطقية والعقل الخالص في أمثال هذه القضايا. أما العقل فحسبه أن يحكم بالإمكان، بينما الحدوث يحتاج إلى دليل آخر. وإنما التعويل هنا يكون على النصوص الشرعية، وبعدها لا بأس بأخذ أدلة الرازي الفلسفية على وجه الاستئناس لا غير.

وإنما لا نعول على الفكر المجرد في هذه الأشياء، لأنه لا يوصل إلى الحقيقة ولا شبهها. فالرازي مثلا اختار بمنطق صحيح - في الظاهر - أن أجرام الأفلاك في غاية اللطافة والشفافية، وليست ثقيلة[١]. وأنت تعلم خطأ هذا في علم الفلك، وكان ابن الهيثم أول من صرح بجسمية الأفلاك، بعد أن اقتصر القدماء من هيئتها على دوائر مجردة[٢].

والرازي نفسه صرح بهذا المعنى، عند الانتهاء من بعض هذه المباحث التي لا تدرك، فقال: «فهذا ما وصل إليه عقلي في هذه المباحث الضيقة، مع الاعتراف بأنا إنما ذكرناها على سبيل الظن والحسبان، لا على سبيل الجزم والبرهان. وكيف يستبعد ذلك، والعقول البشرية قاصرة عن معرفة أنفسها عرفانا كما ينبغي، فبأن تكون قاصرة عن معرفة هذه الأجرام البعيدة، كان أولى»[٣].

- الثانية: قول الرازي بأن الكواكب حية عاقلة.

- الثالثة: تجويزه أن يكون للكواكب تأثيرات في الأرض، بإذن الله تعالى وخلقه لها.

فلننظر في هاتين المسألتين، هل على القائل بهما من أهل الإسلام عيب أو شين، أم هي قضايا اجتهادية محتملة؟

---

(١) المطالب العالية، ٥/ ٣٤٠، ٣٥٧.

(٢) إرشاد القاصد، لابن الأكفاني، ص ٨٠. وابن الهيثم هو أبو علي الحسن بن الحسن، عالم في علوم الطبيعة والرياضيات.. ونحوها. نشأ بالبصرة وسافر كثيرا. وصنف: كتاب المناظر، في البصريات. الجامع في أصول الحساب. مقالة في الضوء. كتاب في تحليل المسائل الهندسية... توفي بالقاهرة سنة ٤٣٠، كما في معجم المؤلفين، ٣/ ٢١٥.

(٣) المطالب العالية من العلم الإلهي، ٥/ ٣٧٦.

في حياة الكواكب:

والنظر فيها من جهتين:

١ ـ الجواز العقلي: ولا أظن أحدا يحكم باستحالة ذلك، قال الشيخ خواجه زاده الطوسي: «المبحث الرابع عشر، أنه هل للفلك نفس ناطقة، محركة له بالإرادة، أم لا؟ أثبتها الفلاسفة، وأنكرها المليون، لا بمعنى أنهم يحكمون باستحالة أن يكون له نفس متعلقة بجرمه ـ كتعلق نفوسنا بأبداننا، وتحركه بإرادتها كما تحرك نفوسنا بإرادتها أبداننا، فإنه لا دليل على استحالة ذلك ـ ولكن بمعنى أنه لا دليل على ثبوتها. والعلم به مفوض إلى الله تعالى، والطريق إلى معرفته ليس إلا الوحي. ولم يثبت الوحي عندنا لا بنفيها ولا بإثباتها، ولا يتم ما أورده الفلاسفة في معرض الاستدلال العقلي على ذلك»[١].

٢ ـ الوقوع الفعلي: فالنظر إذن هو في حدوث هذه الحياة، أعني هل ثمة أدلة على أن الكواكب حية حقيقة، وهل فعلا ليس في الوحي ما يرفع هذا الخلاف؟

وهنا يمكن أن نختلف مع الطوسي وكثير من المتكلمين الذين أنكروا هذه الحياة وأولوا ما في القرآن من أدلتها.

فالمسألة خلافية في الواقع، لا يتحقق فيها إجماع، قال الرازي ـ في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ ـ : «السؤال الثالث: ما معنى قوله ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، والمؤثر في التسخير هو القدرة لا الأمر. والجواب: أن هذه الآية مبنية على أن الأفلاك والكواكب جمادات أم لا، وأكثر المسلمين متفقون على أنها جمادات، فلا جرم حملوا الأمر في هذه الآية على الخلق والتقدير، ولفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل كثير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾، ومن الناس من يقول إنها ليست جمادات فهاهنا يحمل الأمر على الإذن والتكليف. والله أعلم»[٢].

ولم يعول المتكلمون على النصوص في هذه المسألة، وإنما على أدلة عقلية،

---

(١) تهافت الفلاسفة، للعلاء الطوسي، ص ٢٧٥. وانظر في ردود الطوسي على الفلاسفة ومناقشته لهم، ص ٢٧٥ إلى ٢٩٥. والمؤلف هو مصطفى بن يوسف، علاء الدين، ويعرف أيضا بخواجه زاده. من علماء الدولة العثمانية، وغلب عليه علم الكلام. الأعلام، ٨/١٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/٦ ، النحل ٤٠.

مثل قولهم: «إن حركة النجوم أبدا على رتبة واحدة لا تتبدل عنها، وهذه هي صفة الجماد الذي لا اختيار له، فالنجوم لا تعقل»[١].

أما ظاهر الوحي فيوجب أن كل المخلوقات حية تعبد ربها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾، الحج ١٨. وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الإسراء ٤٤.

يقول ابن تيمية: «النجوم من آيات الله الدالة عليه، المسبحة له، الساجدة له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾... ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾. وهذا التفريق يبين أنه لم يرد السجود لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبيته، كما يقول ذلك طوائف من الناس، إذ هذه الدلالة يشترك فيها جميع المخلوقات، فجميع الناس فيهم هذه الدلالة، وهو قد فرق؛ فعلم أن ذلك قول زائد من جنس ما يختص به المؤمن ويتميز به عن الكافر الذي حق عليه العذاب»[٢].

وقد كان اللخمي - رحمه الله تعالى - يقول بهذا، ويحكي المازري أنه ذكر عنده قول القاضي ابن الطيب: تسبيح الجمادات مستحيل، فأنكره غاية الإنكار، وقال يرده قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، وكان - أي اللخمي - يستثقل كلام الأصوليين، فقال لي: خلوا ما أنتم عليه من كلام الأصوليين. فقال عبد الجليل: فهذا الحصير يسبح؟ فقال نعم. فأسكت أنا عبد الجليل لما رأيت من غيظه، أي غيظ اللخمي[٣].

ولذلك يقول ابن السبكي: «ذهب قوم إلى أن كل شيء من جماد وغيره يسبح

---

(١) الفصل، لابن حزم، ٥/١٤٧.

(٢) الفتاوى، ٣٥/١٦٦ - ١٦٧.

(٣) المعيار المعرب، لأبي العباس الونشريسي، ١٢/٣٤٥. إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، ص ٨٨، لابن غازي المكناسي.وفي طريق آخر: فهذا الحصى يسبح؟ واللخمي هو أبو الحسن، علي بن محمد، الربعي. نزل صفاقس بتونس. فقيه مالكي كبير. من آثاره: التبصرة، وهو تعليق على مدونة مالك. توفي سنة ٤٩٨هـ. معجم المؤلفين، ٧/١٩٧. والقاضي ابن الطيب هو الباقلاني.

بلسان المقال، وهذا هو الأرجح عندنا، لأنه لا استحالة فيه، ويدل له كثير من النقول»[(١)]. ثم ذكر بعضها. ولو كان

الجماد لا يفقه العبودية لله جل وعلا، فلم صار الجبل دكا وانهار حتى صار ترابا لما تجلى له رب العزة[(٢)].

ولا يمكن أن أفصل الكلام في هذه المسألة بأكثر من هذا القدر، وفي الفصل الثالث من كتابي عن الأصل الشرعي والنظري لاستشراف المستقبل كلام آخر عن هذا الموضوع، في الجماد: هل له فعل أم لا؟ وعلاقة ذلك بمشكلة السببية. وأنوي مستقبلا بإذن الله تعالى بحث هذه القضية في كتاب خاص.

وإذا قلنا بحياة الكواكب فلا نعني بها مثل هاته التي نعرف في أنفسنا، أو في الحيوان المشاهد. يجوز أن تكون حياة أخرى لا علاقة لها بحياتنا نحن ولا بطبيعتها ونوعها. بل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء: ٤٤ يشير إلى معنى آخر، وهو أنكم أيضا لن تفهموا شكل حياتهم. ولا ينبغي للإنسان أن يعتقد أنه تستحيل كل حياة لا يعرفها، فللملك ـ مثلا ـ حياة مخالفة لحياتنا، ولا نعلم عنها شيئا. والعلم يكتشف الجديد كل يوم. وقد قرأت ـ منذ زمن قصير ـ أن العلماء وجدوا مؤخرا شكلا آخر من الحياة، غير الحيوانية والنباتية والبكتيرية... شكلا رابعا، مستقلا عن غيره، وعرف لأول مرة منذ سنوات قليلة[(٣)].

لكن هذا لا يستلزم أن نقول بالنفوس الناطقة والجواهر العقلية والعقول الفعال منها وغير الفعال... وما إلى ذلك من تقريرات لا دليل عليها، فإن للفلاسفة أحيانا خيالا واسعا، كالمنجمين.

نكتفي بأن نقول بحياة الأفلاك وعقلها لأشياء، كالسجود لخالقها، ونقف هنا، فلا نتقدم ولا نتأخر. والله تعالى أحكم وأعلم.

---

(١) طبقات الشافعية، ٨/ ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) وهي قصة سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه.

(٣) انظر مقالة هيرالد تريبيون، الصحيفة الدولية الناطقة بالإنجليزية: Article: Conflicting Claims to astrange, deep world. In: Herald Tribune, Wednesday 31 December, 1997, p2.

هل للكواكب إرادة؟

أما قول بعض أهل الكلام إننا رأينا حركات النجوم، فوجدناها تسير على رتابة واحدة لا تتغير، ولا تتبدل... فهذا صحيح، لكنه لا يدل على أنها جمادات لا تعقل شيئا، بل على أنها مخلوقات مسخرات لله تعالى، «فلو أرادت حركة غير حركتها، أو مكانا غير مكانها، أو هيئة أو حالا غير ما هي عليه، لم تجد إلى ذلك سبيلا»[(١)].

يقول ابن القيم في النجوم وحركاتها: «إن دلائل التسخير والاضطرار عليها من لزومها حركة لا سبيل لها إلى الخروج عنها ولزومها موضعا من الفلك لا تتمكن من الانتقال عنه واطراد سيرها على وجه مخصوص لا تفارقه ألبتة: أبين دليل على أنها مسخرة مقهورة على حركاتها محركة بتحريك قاهر، لا متحركة بإرادتها واختيارها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[(٢)].

وقد حكى الباقلاني قول من قال من المنجمين إن هذه الكواكب محدثة، لكنها مع ذلك حية قادرة قاصدة، وذكر استدلالهم على ذلك بظهور سير هذه النجوم وقطعها البروج وكونها فيها على ترتيب ونظام وفي الأوقات المعلومة..[(٣)]. ثم قال: «على أنه لو قال قائل: إن ما يظهر من حركات النجوم وسيرها ودوران الفلك على نمط واحد وسجية واحدة غير مختلفة يدل على أنها مجبولة على ذلك، ومضطرة إليه، ومطبوعة عليه، على قول أصحاب الطباع، لكان ذلك أقرب؛ لأن المطبوع المجبول على الفعل من شأنه أن يكون ما يضطر إليه على سجية واحدة؛ وليس كذلك المتصرف باختياره؛ لأنه يفعل الشيء وضده وخلافه؛ فتأثيرات هذه النجوم لما تؤثره على سنن واحد يجري مجرى تأثير النار والثلج للتسخين والتبريد على سجية واحدة، وتأثير الطعام والشراب وما جرى مجرى ذلك؛ فما ظهر من حركاتها أقرب إلى أن يدل على قول أصحاب الطباع»[(٤)].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٥.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٦.

(٣) التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، للباقلاني، ص ٦٣.

(٤) التمهيد، ص ٦٤.

فلا إرادة للكواكب ولا اختيار، وهذا أيضا فحوى النصوص، فهذه أثبتت لها الحياة، لكن لم تنسب إليها اختيارا أو تحكما، فيبقى ذلك على النفي حتى يقوم الدليل بخلافه.

في تأثير الكواكب:

لو أحب القارئ الكريم أن ألخص له هذه القضية في كلمة واحدة، لقلت له: إنها مسألة العلية المجعولة بعينها.

فمن أنكر العلاقة السببية، وقال إنها تدل على العادة فقط، قال إن تأثيرات النجوم، من الشمس والقمر. . .وسائر الكواكب. . .أفعال لله تعالى، يخلقها عند بروز هذه الأسباب الظاهرية. . .

فليس للشمس قدرة على أن تهبنا النور، ولا أن تسخن الأرض، ولا أن تنمي النبات. . .وإنما الباري يخلق هذه الآثار عند طلوع الشمس ومواجهتها للأرض، أي أنه سبحانه يفعل عندها لا بها. قال الباقلاني: «وأما تعلقهم في إثبات تأثيرات هذه الكواكب بحمي الزمان عند قرب الشمس، وبرده عند بعدها عن عالمنا، وكون الاعتدال في زمن الخريف والربيع عند توسطها، فإن ذلك أجمع لا يدل على أن ما يحدث في عالمنا من هذه الأمور من فعلها، كما لا يدل حدوث التبريد والتسخين في الأجسام عند مجاورة الثلج والنار على أن ذلك من فعلها. وكل شيء نقضنا به على القائلين بفعل الطباع بهذا الاستدلال، فهو بعينه ناقض لتعلق المنجمين به»[1].

ومن قال بالسببية الحقيقية، نسب إلى النجوم هذه الآثار وغيرها، لكن لا على طريق الاستقلال التام، بل ذلك بجعل الله تعالى، فهو يفعل بها لا عندها.

وهي كغيرها من الأسباب الأرضية، ولا ميزة لها عليها من هذا الوجه، إذ كلها أدوات للفعل الإلهي. ولذلك يجوز أن يربط الله سبحانه بين أوضاع معينة للنجوم، وبين أقدار إلهية تكون في الأرض وتمس حياة الناس، ويكون لهذه النجوم دور في هذه الأقدار، كما يكون للنار دور في الإحراق. وهذا كلام ابن تيمية، أنقله بطوله لأنه يعين على كشف هذا المعنى الدقيق، قال عن النجوم: «وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده، وسخرها لهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ

---

(١) التمهيد، ص ٦٤.

وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣﴾، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[١]. ومن منافعها الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد، والليل والنهار ونضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن، وكذلك ما يجعله بها لهم من الترطيب والتيبيس؛ وغير ذلك من الأمور المشهودة، كما جعل في النار الإشراق والإحراق، وفي الماء التطهير والسقي، وأمثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[٢]. وقد أخبر الله في غير موضع أنه يجعل حياة بعض مخلوقاته ببعض، كما قال تعالى: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾... فمن قال من أهل الكلام: إن الله يفعل هذه الأمور عندها، لا بها. فعبارته مخالفة لكتاب الله والأمور المشهودة؛ كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو مشرك مخالف للعقل والدين.

وقد أخبر سبحانه في كتابه عن منافع النجوم، فإنه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا، وأخبر أن الشياطين ترجم بالنجوم، وإن كانت النجوم التي ترجم بها الشياطين من نوع آخر غير النجوم الثابتة في السماء التي يهتدى بها، فإن هذه لا تزول عن مكانها، بخلاف تلك، ولهذه حقيقة مخالفة لتلك، وإن كان اسم النجوم يجمعها، كما يجمع اسم الدابة والحيوان للملك، والآدمي، والبهائم، والذباب والبعوض.

وقد ثبت بالأخبار الصحيحة التي اتفق عليها العلماء عن النبي ﷺ أنه أمر بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر؛ وأمر بالدعاء والاستغفار والصدقة والعتق...

فذكر أن من حكمة ذلك تخويف العباد؛ كما يكون تخويفهم في سائر الآيات: كالرياح الشديدة، والزلازل، والجدب، والأمطار المتواترة، ونحو ذلك من الأسباب التي قد تكون عذابا؛ كما عذب الله أمما بالريح والصيحة، والطوفان، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾. وقد قال: ﴿وَآتَيْنَا

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٣. ثم الأعراف ٥٤. الجاثية ١٣.

(٢) الفرقان ٤٨ - ٤٩.

ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1]. وإخباره بأنه يخوف عباده بذلك يبين أنه قد يكون سببا لعذاب ينزل، كالرياح العاصفة الشديدة. وإنما يكون ذلك إذا كان الله قد جعل ذلك سببا لما ينزل في الأرض.

فمن أراد بقوله: إن لها تأثيرا، ما قد علم بالحس وغيره من هذه الأمور، فهذا حق؛ ولكن الله قد أمر بالعبادات التي تدفع عنا ما ترسل به من الشر، كما أمر النبي ﷺ عند الخسوف بالصلاة والصدقة والدعاء والاستغفار والعتق، وكما كان ﷺ إذا هبت الريح أقبل وأدبر وتغير، وأمر أن يقال عند هبوبها: «اللهم إنا نسألك خير هذه الريح، وخير ما أرسلت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما أرسلت به». وقال: «إن الريح من روح الله، وإنها تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب، فلا تسبوها؛ ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها»[2]. فأخبر أنها تأتى بالرحمة، وتأتى بالعذاب، وأمر أن نسأل الله من خيرها، ونعوذ بالله من شرها.

فهذه السنة في أسباب الخير والشر: أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظاهرة والأعمال الصالحة ما يجلب الله به الخير. وعند أسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر. فأما ما يخفى من الأسباب فليس العبد مأمورا بأن يتكلف معرفته: بل إذا فعل ما أمر به وترك ما حظر: كفاه الله مؤونة الشر، ويسر له أسباب الخير...

وأما إنكار بعض الناس أن يكون شيء من حركات الكواكب وغيرها من الأسباب فهو أيضا قول بلا علم، وليس له في ذلك دليل من الأدلة الشرعية ولا غيرها، فإن النصوص تدل على خلاف ذلك، كما في الحديث الذي في السنن عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: يا عائشة! تعوذي

---

(١) العنكبوت ٤٠. الإسراء ٥٩.

(٢) حديث إقبال النبي ﷺ وإدباره إذا هبت الريح، وهو تعبير عن قلقه عليه السلام، تقدم تخريجه. أما حديث الريح من روح الله... فقد رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد ـ وهو غير الجامع الصحيح ـ، وأبو داود في السنن، والنسائي في كتابه «عمل اليوم والليلة»، غير سننه، وابن ماجه في الأدب من سننه. وصححه الحاكم في المستدرك وأقره عليه الذهبي، وصححه السيوطي أيضا، بينما اكتفى النووي بتحسينه. كذا في الجامع الصغير، ٢/ ٢٨، وشرحه فيض القدير ٤/ ٦٠، معا. قال المناوي: «أي الريح من روائح الله، أي من الأشياء التي تجيء من حضرة الله بأمره... (من شرها) أي شر ما أرسلت به فإنها مأمورة، وتوبوا عند التضرر بها، وهذا تأديب من الله...» فيض القدير ٤/ ٦٠.

بالله من شر هذا، فهذا الغاسق إذا وقب». وكما تقدم في حديث الكسوف حيث أخبر «أن الله يخوف بهما عباده».

وقد تبين أن معنى قول النبي ﷺ: «لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته»، أي لا يكون الكسوف معللا بالموت، فهو نفي العلة الفاعلة، كما في الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار، أنهم كانوا عند النبي ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟ فقالوا: كنا نقول: ولد الليلة عظيم، أو مات عظيم، فقال: «إنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله إذا قضى بالأمر سبح حملة العرش»، وذكر الحديث في مسترق السمع، فنفى النبي ﷺ أن يكون الرمي بها لأجل أنه قد ولد عظيم أو مات عظيم، بل لأجل الشياطين المسترقين السمع. ففي كلا الحديثين من أن موت الناس وحياتهم لا يكون سببا لكسوف الشمس والقمر ولا الرمي بالنجم؛ وإن كان موت بعض الناس قد يقتضي حدوث أمر في السماوات، كما ثبت في الصحاح «أن العرش - عرش الرحمن - اهتز لموت سعد بن معاذ». وأما كون الكسوف أو غيره قد يكون سببا لحادث في الأرض من عذاب يقتضي موتا أو غيره فهذا قد أثبته الحديث نفسه»[1].

لا يقال بأن الاعتقاد في وجود أثر ما للجماد أو للكواكب. .ظن شرك يخالف عقيدة الفاعلية الإلهية المهيمنة على الكون. . لأن هذا يلزم أيضا على فعل العاقل؛ لقد وصف الباري ملائكته بالتدبير، فقال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾، فهل هذا يعني أن لله شركاء في تدبير أمر الكون. إنها مرة أخرى مشكلة العلية.

كيفية اعتبار النجوم على ذين المذهبين:

فأما على القول بالسببية العادية، فإن النجوم تكون دلالات أو علامات على أقدار الله تعالى. يقول الباقلاني: وفي القائلين بالتنجيم «من أقر منهم بالإسلام، وأذعن لحدوثها أي (النجوم)، وأنها متعلقة بمحدث أحدثها، وزعم أن الله تعالى جعلها دلالة على ما يحدث في العالم في أوقاته»[2]. وقال المازري: قال

---

(١) اختصرته ما أمكن من الفتاوى ٣٥/ ص ١٦٧ إلى ١٧٥. وحديث اهتزاز العرش لموت سعد رضي الله عنه، رواه مسلم وأحمد عن أنس، والبخاري والترمذي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله. كما في الجامع الصغير، ١/ ٤٢٢.

(٢) التمهيد، ص ٦٧.

الإسلاميون منهم: لا خالق إلا الله عز وجل، وإنما هي علامة على الغيوب بدلالة أجراها الباري جلت قدرته، كما أجرى الغيوم والسحب الثقيلة دلالة على الأمطار، وإن كانت ربما خابت[١].

وأما على القول بالسببية الحقيقية، فإنه تكون للنجوم قوى وطبيعة بها تفعل. قال ابن تيمية: «المخلوقات العلوية والسفلية يمسكها الله بقدرته سبحانه، وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو كائن بقدرته ومشيئته سبحانه»[٢].

أي فعل الباري سبحانه في هذه الجواهر قوى طبيعية تفعل بها فينا، كما خلق في النار قوة وطبيعة تحرق بها، ويحتجون على ذلك بمشاهدتهم الشمس تسخن وتصلح أكثر النبات، وقالوا غير مستنكر أن يكون لقرانات الكواكب آثار غير هذه[٣].

اتفاقهما على إنكار دعاوي المنجمين حول وجود تأثيرات معينة للنجوم:

فإذا تمهد بيان علاقة السببية بالموضوع، قلت: لم أجد - فيما وصل إليه علمي واطلاعي - أحدا من علماء المسلمين المعتبرين صحح الآثار التفصيلية التي ينسبها المنجمون إلى الكواكب، بل قالوا لم يدل دليل على هذه الدعاوي.

فأما على القول بالسببية العادية، فإن الرد يكون كما قال الباقلاني: «الدليل المتعلق بمدلوله لا بد أن تكون جهة تعلقه به معروفة معلومة، كجهة الكاتب بالكتابة وبكون صانعها عالما، ودلالة الحوادث على حدوث ما لا يسبقها ولا ينفك منها، ودلالة المعجزات على صدق صاحبها، وأمثال ذلك مما قد عرف جهة تعلق الدليل فيه بمدلوله. ولا وجه من قبله يعلم لدلالة كون هذه الأفلاك في البروج وسيرها وحركاتها على حدوث ما يحدث من الأمطار والنماء والنقصان وغلاء الأسعار وسفك الدماء وسكون الهيج والفساد وعلى ما يستسر الناس بعلمه وما ينطوون عليه»[٤].

---

(١) المعلم بفوائد مسلم، ٣/١٠٨ ، كتاب الطاعون.

(٢) الفتاوى، لابن تيمية، ص ٦/٥٩٦.

(٣) المعلم ، للمازري، ٣/١٠٦. وانظر فيه رد المازري على القول بالطبيعة.

(٤) التمهيد ، ص ٦٧.

وأما على مذهب السببية الحقيقية، فكما قال ابن القيم: «نحن لا ننكر ارتباط المسببات بأسبابها كما ارتكبه كثير من المتكلمين وكابروا العيان وجحدوا الحقائق، كما أنا لا نرضى بهذيانات الأحكاميين ومحالاتهم، بل نثبت الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ونبين مع ذلك بطلان ما يدعونه من علم أحكام النجوم، وأنها هي المدبرة لهذا العالم. .فغاية الحركات النجومية والاتصالات الكوكبية أن تكون كالعلل والأسباب المشاهدة التي تأثيراتها موقوفة على انضمام أمور أخرى إليها وارتفاع موانع تمنع تأثيرها. فهي أجزاء أسباب غير مستقلة ولا موجبة، هذا لو أقمتم على تأثيرها دليلا، فكيف وليس معكم إلا الدعاوى وتقليد بعضكم بعضا»[1].

فسواء أكانت النجوم دلالات على الأقدار، أم قوى فاعلة. . .لا دليل لنا من العقل الصريح، ولا من النقل الصحيح، ولا من التجارب الواضحة. .على وجود هذه الآثار التي يقول بها المنجمون بهذا التفصيل الكثير.

كيفية تأثير الكواكب:

ويرد بعضهم مسألة جواز تأثير النجوم بأنها لا تعقل، فالكوكب كتلة هائلة من الصخر والتراب والغاز، وكيف يمكن أن يتعلق بهذا أثر ما على الإنسان.

وهذا الاعتراض غير مستقيم. صحيح أن تأثير النجم ـ لو قلنا به ـ غريب، بل يصعب أن نتصور كيف لكوكب بعيد عنا أن يكون له فعل ما في حياتنا. . .ومع ذلك، فهذا يعقل، أعني ليس بمحال، ويجوز أن يخلق الباري جلت قدرته في الكوكب خاصية معينة بها يكون مؤثرا، أو قابلا للتأثر.

وقد حاول الباقلاني أن يرد هذا الاحتمال بوجهين:

١ ـ قال إن هذه الحوادث الأرضية لا تخلو أن تكون واجبة عن ذوات الأفلاك، أو عن أكوانها في البروج المعلومة. أي إما أن يكون سبب التأثير هو الكوكب بذاته، أو هو وجوده في البرج المعين. وكلاهما مردود. فأما الأول فلأن الدليل قام على تجانس الأجسام وتماثلها، وهذا يوجب أن يكون لكل الأجسام ـ بما فيها الأجرام السماوية ـ نفس الآثار.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤. وانظر، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

وأما الثاني، فلأنه يجب عليه أن يكون لأي كوكب كوكب نفس الأثر، بمجرد وجوده في البرج، فيكون كون القمر والمشترى في برج الحمل موجبا لما يوجبه كون الشمس فيه. والمفروض أيضا «أن يكون كوننا نحن في ذلك البرج، لو وجدنا فيه، أو بعض الحجارة، موجبا من التأثير مثل الموجب عن كون الشمس فيه.»[١]

٢ ـ إن التأثير يستلزم المماسة، وهي هنا غائبة[٢]، «ومن شرط أفعال المحدثات بعضها في بعض أن تكون باتصال ومماسة أو بوسائط»[٣]. وأين ذلك بيننا وبين النجوم.

فأما الرد الأول فهو ينبني على القول بتجانس الأجسام، وهو غير مسلم لدى جميع المتكلمين، بل هو قول بعضهم. ثم لعل في اختلاف تركب الأجسام بعضها مع بعض ما يفسر اختلاف آثارها، أعني أنه لا يلزم من تساويها في بساطتها تساويها في تركيبها.

أما الرد الثاني فهو نفسه حجة الديكارتيين الذين أنكروا الجاذبية وبالغوا في الرد على نيوتن وتسفيهه، وقالوا كيف للكوكب البعيد أن يمارس جاذبيته على الأرض، رغم هذا الفراغ الهائل بينهما... وقد نشأ عن هذا الجدل معركة فلسفية معروفة، في القرن السابع عشر.

فجهلنا بكيفية تأثير الكوكب ليس عذرا لرد أي فعل محتمل للكوكب. والأولى عندي لمن يقول بعدم وجود أي آثار للكواكب ـ غير الآثار الفيزيائية المحسوسة ـ أن يطالب بالدليل ويقول: لم يقم أي دليل على وجود هذه الآثار على الإنسان، مع إمكانها في العقل والشرع. وليس على النافي دليل، كما يقول علماء الأصول.

حدود علية النجوم:

وحتى لو نسبنا إلى النجوم آثارا، وأثبتنا لها ـ بجعل الله تعالى ـ أفعالا، فغاية ذلك أن يكون سببا من أسباب كثيرة سخرها الباري في الوجود، وهي ـ بالنسبة إلى كل أثر أثر ـ جزء سبب فقط، وإذا لم يرفع الله تعالى الموانع والعوائق من طريق هذا الجزء، ما أمكن أن يكون له أثر.

---

(١) التمهيد، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) التمهيد، ص ٦٧.

(٣) المعلم، ٣/١٠٧.

ولذلك يرى ابن خلدون أن المعرفة التامة تقتضي العلم بجميع الأسباب والإحاطة بها. والقوى النجومية ليست هي الفاعلة بجملتها، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي، مثل قوة التوليد للأب، والنوع التي في النطفة. «فالقوى النجومية إذا حصل كمالها، وحصل العلم فيها، إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن»[1]. والمنجمون «أكثر ما يعلمون - إن علموا - جزء يسيرا من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب، ولا الشروط ولا الموانع»[2].

فغاية فعل النجوم - إن أثبتناه - أن يكون جزء يسيرا من جملة الأسباب[3]، ولذلك يقول ابن قيم الجوزية في التنجيم: «غاية هذا لو صح وسلم من الخلل جميعه - ولا سبيل إليه - لكان جزء السبب والعلة، والحكم لا يضاف إلى جزء سببه. ثم لو كان سببا تاما فصوارفه وموانعه لا تدخل تحت الضبط ألبتة، والحكم إنما يضاف إلى وجود سببه التام وانتفاء مانعه. وهذه الأسباب والموانع مما لا تدخل تحت حصر ولا ضبط، إلا لمن أحصى كل شيء عددا وأحاط بكل شيء علما، لا إله إلا هو علام الغيوب. فلو ساعدناهم على صحة أصول هذا العلم وقواعده لكانت أحكامهم باطلة، وهي أحكام بلا علم لما ذكرناه من تعذر الإحاطة بمجموع الأسباب وانتفاء الموانع، ولهذا كثيرا ما يجمعون على حكم من أحكامهم الكاذبة فيقع الأمر بخلافه كما تقدم»[4].

فـ «الشمس جزء السبب، والهواء جزء السبب، والأرض جزء، وانعكاس الشعاع جزء، وقبول المنفعلات جزء؛ مجموع ذلك سبب واحد، قدره العليم القدير وأجرى عليه نظام العالم. وقدر سبحانه أشياء أخر لا يعرفها هؤلاء الجهال ولا عندهم منها خبر من تدبير الملائكة وحركاتهم وطاعة إسطقسات العالم ومواده لهم وتصريفهم تلك المواد بحسب ما رسم لهم من التقدير الإلهي والأمر الرباني. ثم قدر تعالى أشياء أخر تمانع هذه الأسباب عند التصادم وتدافعها وتقهر موجبها

(١) المقدمة، ص ٤٠٦.
(٢) الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/١٧٣.
(٣) الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/١٧٨.
(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٩.

ومقتضاها ليظهر عليها أثر القهر والتسخير والعبودية، وأنها مصرفة مدبرة بتصريف قاهر قادر»[١].

وقد اعترف بهذا إمام أهل التنجيم، فهو يرى أن المنجم إذا لم يكن على علم بطبائع الشعوب، واختلاف المناخ بين مناطق العالم، وما لكل قوم من معتقدات وعادات وأمزجة. . .ونحوها، فإنه يغلط باعتماده فقط على مقتضى أوضاع الأفلاك[٢].

وعلق أبو القاسم عيسى على هذا التنبيه الذي ذكره بطليموس، فقال: «هذا ونحوه يدل على أن الأمور وغيرها إنما هي بحسب اختلاف العوائد والسنن والبلاد وخواص الأنفس واختلاف الأسنان والأغذية وقواها أيضا مما فيها تأثير قوي، وكذا الهواء والتربة واللباس وغيرها، كل هذه لها تأثير في الأخلاق والأعمال، وأكبرها العوائد والمربا والمنشأ. فإحالة هذه الأمور على الكواكب والطالع والمقارنة والمفارقة والمناظر من أبين الجهل. ولهذا اضطر إمام المنجمين ومعلمهم إلى مراعاة هذه الأمور، وأخبر أن الحاكم بدون معرفتها والتشبث بها يكون مخطئا. وحينئذ فالطالع المعتبر المؤثر إنما هو طالع العوائد والسنن والبلاد وخواص هيآت النفوس الإنسانية وقوى أغذية أبدانها وهوائها وتربتها، وغير ذلك مما هو مشاهد بالعيان وتأثيره في ذلك. أفليس من أبين الجهل الإعراض عن هذه الأسباب والحوالة على حركات النجوم واجتماعها وافتراقها ومقابلتها في تربيع أو تثليث أو تسديس، مما لو صح لكان غايته أن يكون جزء سبب من الأسباب التي تقتضي هذه الآثار»[٣].

تخمين لي في الموضوع:

وعندي تخمين في قضية التنجيم، لا ينبني - في الحقيقة - على أدلة صلبة، فهو أقرب إلى الحدس الذي يخطئ ويصيب منه إلى الرأي العلمي المؤسس على الحجج والأدلة. وهذا التخمين هو ثمرة لقراءاتي في التنجيم، فلقد قرأت فيه كتبا

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٨٣.

(٢) راجع : Ptolémé: Tétrabible, p 11 et après

(٣) رسالته في التنجيم التي نقلها ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٢.

مختلفة، وباللغتين العربية والفرنسية، وصرفت فيه زمانا وجهدا، وشغل ذهني أياما، وتأملت وقارنت طويلا . . . فأقول لذلك:

يحتمل أن في التنجيم طرفا غير معين من الحقيقة. ويجوز أن يكون ذلك بأحد هذه الطرق:

١ ـ أن يكون علما أنزله الله تعالى للناس، في بداية أمرهم، كما علم آدم الأسماء كلها.

٢ ـ أن يكون علما اختص به نبي ما في غابر الأزمان، فكان يعرف من حركات الكواكب أشياء يحدثها الله تعالى في أرضه، فتكون هذه الحركات علامات لمراد الله سبحانه. ثم إن الناس نسبوا تلك الأشياء إلى الكواكب نفسها، ولم تعد مجرد دلالات على الأقدار.

وعلى هذا يكون علم النجوم الأول الذي أوتيه نبي أو بعض الأنبياء، مثل الخط، فقد كان الخط في الرمل علما نبويا، ثم انتهى، ويزعم بعض الناس أن ما في أيديهم مما يسمى بعلم الرمل هو بقية من هذا العلم القديم[1].

٣ ـ أو يكون علما جعله الله عز وجل معجزة لنبي يتحدى بها قومه.

وفي كل الأحوال ينبغي أن يكون هذا العلم الأولي قد رفع من على الأرض أو اندثر. لكن استمرت منه بقايا بين أيدي الناس، فحرفوها وزادوا ونقصوا وتصرفوا. وتطاولت على ذلك أجيال، ومرت دهور . . حتى غلب الباطل الكثير الحق القليل، وضاع هذا الحق وذهبت ملامحه، فلا سبيل إلى تمييزه ولا دركه، ولا إلى معرفته أو تحديده. وإنما أضفت هذا العلم إلى الباري سبحانه، أنزل للناس منه طرفا، أو علمه نبيا من أنبيائه . . لأن مثله مما يتلقى بالوحي والتوقيف، ولا سبيل للإنسان في معرفة هل للنجوم آثار أم لا، وإن كانت فما هي . . . إلا بإخبار الله تعالى له بذلك، لأنه شيء لا يتوقف على العقل المحض، ولا على منطق أو تجربة . . فإن كان قد كان، فبطريق النبوة ـ ونحوها ـ، ولا بد.

---

(١) انظر كتابي: الغيب والمستقبل، ففيه مبحث خاص بهذا الفن. وانظر فيه أيضا حديث أهل التفسير عن أصل السحر، من خلال آية السحر بسورة البقرة..

بعض ما يمكن إيراده للاستئناس بهذا التخمين:

١ ـ فمن ذلك حديث الاستعاذة بالله تعالى من شر القمر إذا وقب. فيجوز أن يحدث الله سبحانه من أقداره ما يشاء، وأن يختار لذلك وقت إظلام القمر، ويكون القمر نفسه أحد أسباب هذه الأقدار.

وإنما أمر النبي ﷺ بالاستعاذة بالله وحده، لا بالقمر وظلمته، لأن الفاعل - على وجه التحقيق - هو الباري جل جلاله، وغاية ما يصل إليه خلقه أن يكون من أدوات قضائه وقدره.

٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا[1].

وقد ذكر ابن القيم هذا الحديث في الاحتجاج على المنجمين، قال: «لو كان علم الأحكام النجومية حقا لا باطلا لم ينه عنه النبي ﷺ ولا أمر بالإمساك عنه، فإنه لا ينهى عن الكلام في الحق، بل هذا يدل على أن الخائض فيه خائض فيما لا علم له به، وأنه لا ينبغي له أن يخوض فيه ويقول على الله ما لا يعلم. فأين في هذا الحديث ما يدل على صحة علم أحكام النجوم»[2].

لكنني أختلف مع ابن القيم في طريقة نظره في الحديث، ويمكن للواحد أن يزعم أن النبي ﷺ إنما نهى عن الكلام في النجوم، لأن أمرها غامض وشأنها محتمل، فلعل المتكلم يخطئ حقا منها، أو يصحح باطلا فيها، من حيث لا يدري. وكيف يدري ويتكلم في النجوم، وليس في الوحي المنزل إلينا بيان شاف في أمورها، ولا في العقل طريق إلى معرفة جميع حقائقها ومتعلقاتها، ولا يمكن التعويل على التجربة التي لا تفيد ههنا شيئا، على الأقل إلى عصرنا هذا ...؟

ولو كان الأمر كما قال ابن القيم «أن النبي ﷺ لا ينهى عن الكلام في الحق»،

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وقال الهيثمي: فيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكر رواية أخرى عن ثوبان رضي الله عنه رواها الطبراني أيضا، وقال فيه يزيد بن ربيعة، وهو ضعيف. كذا في باب النهي عن الكلام في القدر. من: مجمع الزوائد، ٧/٢٠٢. والحديث حسنه كل من الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»، ١/٤١، والسيوطي في الجامع الصغير، ١/٩٥.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٥.

لما نهانا عن الخوض في القدر، فهو حق... بل يدل قران النجوم بالقدر على أن الأولى بالإنسان أن ييأس من أن يدرك بعقله المحدود ما استأثر الباري تعالى بعلمه ومنعه عن خلقه.

٣ - وفي الحديث الصحيح أن من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد[١]. فلو أخذنا بمذهب الجمهور في أن للسحر حقيقة، جاز أيضا أن يكون للتنجيم حقيقة، وأن يكون له أصل، باعتباره جزء من السحر. لكن الحقيقة في التنجيم - كما قدمت - جزء بسيط من بحر الأباطيل الذي يحفل به هذا الفن. هذا إذا صح هذا التخمين.

٤ - حديث مسخ المرأة إلى كوكب:

في خبر لابن عمر - رفعه إلى النبي ﷺ - قصة طويلة، ملخصها أن الله تعالى أنزل إلى الأرض ملكين، وركب فيهما بعض الطبائع البشرية، لاختبارهما. ثم إنهما فتنا بامرأة اسمها الزهرة، فاحتالت عليهما حتى عرفت منهما الكلمة التي يصعدان بها إلى السماء. ثم إنها حين طلعت إلى السماء بهذه الكلمة مسخها الله تعالى كوكبا[٢]، فهو نجم الزهرة، الذي نراه، أو هو شهاب آخر، على خلاف[٣].

وللمحدثين رأيان في هذا الحديث:

أ - أورد السيوطي هذا الخبر في «اللآلئ المصنوعة»، بطريق سنيد بن داود عن الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر، وقال لا يصح. ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر في رسالته «القول المسدد» ذكر أن الإمام أحمد أخرج هذا الحديث في المسند، وكذلك ابن حبان في صحيحه من طريق زهير بن محمد بن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر... وقال ابن حجر: وله طرق جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه يقطع بوقوع هذه القصة، لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها[٤].

---

(١) رواه أبو داود في السنن، كتاب الطب، بابا ٢١ و ٥١. وابن ماجه في الأدب، باب ٢٨. والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير، ٥٧٨/٢، وصححه النووي في رياض الصالحين.

(٢) راجع القصة بطولها في كتب التفسير، وأكثر التفاسير بالمأثور توردها عند قصة نزول الملكين ببابل، في سورة البقرة، آية ١٠٢.

(٣) معالم التنزيل، للبغوي، ١٣٠/١. وانظر في مسألة المسخ هذه: تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص ١٧٢. وقارن بـ: الجامع لأحكام القرآن، ٣٦/٢، البقرة، ١٠٢.

(٤) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ١٥٨/١ - ١٥٩. وينبغي أن يعرف القارئ أن مجرد ورود =

ثم قال السيوطي: « وقد وقفت على الجزء الذي جمعه، فوجدته أورد بضعة عشر طريقا، أكثرها موقوفا، وأكثرها من تفسير ابن جرير. وقد جمعت أنا طرقها في التفسير المسند وفي التفسير المأثور فجاءت نيفا وعشرين طريقا، مابين مرفوع وموقوف... ولحديث ابن عمر بخصوصه طرق متعددة من رواية نافع وسالم ومجاهد وسعيد بن جبير، وورد من رواية علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وعائشة وغيرهم، والله أعلم»[(١)].

ب ـ أما الحافظ السخاوي فقد ذكر مخرجي الحديث، ومال إلى رأي البيهقي الذي اعتبره من كلام كعب الأحبار، وقصصه الإسرائيلية[(٢)].

وليس لي رأي في هذا الخلاف، فالله تعالى أعلم، وإليه مرد كل شيء.

الحكمة من بقاء التنجيم ومن النهي عنه:

وعلى هذا التخمين يمكن أن يسأل سائل: لم استمرت هذه البقية من علم النجوم الأول، ولم تندثر ؟

= حديث في كتاب اللآلئ ـ أومثله ـ لا يعني أنه حتما موضوع، ولا أنه ضعيف جدا... وإن كان ذلك حال أكثرها. ففي اللآلئ أحاديث غير موضوعة، وفيه مناقشات وبحوث، ولذلك كثيرا ما يرد السيوطي ـ عن بعض الأحاديث التي يذكرها في كتابه ـ تهمة الوضع. وهذه الملاحظة تصدق على كثير من كتب الموضوعات.

أما ابن حجر، فإنه لما قيل إن في مسند أحمد أحاديث موضوعة، أنكر ذلك، ونفى الموضوع عن المسند، وقال غاية ما فيه الضعيف، وصنف لذلك «القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد».

راجع ما أورده عبد الرحمن البنا في مقدمة ترتيبه لمسند أحمد المسمى بـ: الفتح الرباني، ١/٨ فما بعدها.

(١) اللآلئ المصنوعة، ١/١٥٩. السيوطي هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، عالم كثير التصنيف جدا، وغلب عليه علما الحديث والعربية. توفي بالقاهرة عام ٩١١ هـ. الأعلام، ٤/ ٧١.

(٢) المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص ٤٥٥. والكتاب لأبي عبد الله، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحدث والمؤرخ، المصري، توفي بالمدينة سنة ٩٠٢هـ. من تآليفه: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. الأصل الأصيل في تحريم النظر في التوراة والإنجيل. عن معجم المؤلفين، ١٠/ ١٥٠. قلت: وله أيضا الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. والبيهقي هو الحافظ أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ) صاحب السنن الكبرى. وكعب الأحبار تابعي أدرك كبار الصحابة، وهو من مسلمة يهود اليمن. توفي بحمص سنة ٣٢هـ. الأعلام، للزركلي، ٦/ ٨٥.

والجواب: يجوز أن يكون هذا البقاء للابتلاء، فهذا مثل السحر الذي أنزل على الملكين، فالشارع يعترف بحقيقته، وهو مع ذلك ينهى عنه، ولذلك كان الملكان يقولان لمن يسألهما شيئا من أمور السحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ﴾، البقرة ١٠٢ .

أما لماذا نهانا الشرع عن التنجيم المعروف ومنعنا منه، أعني على القول بأن فيه طرفا يسيرا من الصواب، فلهذا احتمالات:

١ ـ لأن الصواب فيه اختلط بالباطل الغالب، ويتعذر استخلاصه منه، والحكم يدور مع الأغلب.

٢ ـ لأن ضرره أكثر من نفعه، كما يشهد عليه الواقع.

٣ ـ لأن الاشتغال به يؤدي ـ في الغالب ـ إلى الوقوع في الإشراك بالله تعالى، أو على الأقل في المعصية. والتنجيم إن لم ينكر فاعلية الباري في خلقه، فهو يضعفها جدا، بنسبته أكثر التصرفات في العالم إلى النجوم. والأقرب أن تكون كل هذه الاحتمالات قائمة وصحيحة.

كلام أخير:

فإن قلت على أي شيء ينبغي التعويل في هذا الموضوع، على فرض صحة تخمينك هذا؟

قلت التعويل يكون على الوحي الصحيح، والذي بين أيدينا اليوم هو النهي الصريح عن التنجيم، فلا يجوز اعتقاده، ولا العمل به، ولا الرجوع إليه، ولا تصديق أهله. فهذا هو المحكم، لا ندعه فنتمسك بالمتشابه. ولذلك يقول الخطيب:

«لو كان النظر في أحكام النجوم يفيد علما صحيحا، لم يجز لنا استعماله؛ لأن شريعتنا قد حظرته ونهت عنه، فلا يجوز لمسلم الدخول فيه، وكيف يجوز استعمال ذلك وقد حظر علينا النبي ﷺ ما دونه من تعليق الخرز والحلق للمنفعة بها»[1].

---

(١) القول في علم النجوم، ص ١٧٢.

فالذي أقول به هو تحريم التنجيم رأسا، والإعراض عن الاشتغال به كلية. وهذا قول الفقهاء جميعا. وبيان هذا وغيره من الأحكام التفصيلية للمنجمين والتنجيم في الفصل الآتي.

الفصل الثامن
الأحكام الفقهية للتنجيم والمنجمين

تحريم التنجيم:

التنجيم صناعة محرمة بإجماع المسلمين، ومن ابتلي بشيء منها وجب عليه المبادرة بالتوبة منه[١].

وذكر بعض العلماء أن هذا التحريم كان في جميع الشرائع والملل السماوية[٢].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ نهى عن النظر في النجوم[٣]. أيضا عن ابن مسعود أن الرسول الكريم قال: «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا»[٤]. قال النووي: «معناه: أمسكوا عن الخوض في علم النجوم، والعمل به، وتصديق قائله»[٥]. والمقصود هنا هو التنجيم، أي علم التأثير[٦]، وهو يقابل الهيئة، وهي علم التسيير.

---

(١) فتاوى النووي، ص ٢٣٠، ٢٣٣، وهي المسماة بـ «المسائل المنثورة». الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/١٩٢، ١٩٧. المعيار، للونشريسي، ١٢/٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) المفهم، لأحمد القرطبي، ٥/ ٦٣٨. الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/١٩٢. شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٧٦٢.

(٣) أخرجه الخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٧٧. وذكر المحقق بالهامش قوما آخرين رووا الحديث، منهم: العقيلي في الضعفاء، وابن حبان في المجروحين، والطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.. وكلام المحقق معتمد لأنه من أهل الاختصاص.

(٤) في الجامع الصغير أن الحديث رواه الطبراني عن ابن مسعود وثوبان مولى النبي، ورواه أيضا ابن عدي في الكامل عن عمر. وهو حديث حسن، ١/ ٩٥. وحسنه أيضا الحافظ العراقي في: المغني عن حمل الأسفار، ١/ ٤١.

(٥) المسائل المنثورة، ص ٢٥٧.

(٦) السراج المنير، ١/ ١٢٩.

ونصوص العلماء في تحريم التنجيم كثيرة[١]، بخلاف علم الهيئة أو الفلك، فإنه علم صحيح.

جواز علم الهيئة:

قال الشيخ الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان... فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، كالذي يعرف به الزوال ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه. وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي. وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم: الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم»[٢].

وهذه التفرقة بين التنجيم وعلم الفلك أساسية في الفقه الإسلامي، ويكاد يذكرها كل من تعرض لهذا الموضوع[٣]. وبها بدأ الخطيب البغدادي كتابه في

---

(١) انظر: القول في علم النجوم، ص ١٦٨. فتح المجيد، ٣٠٦. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لابن باز، ٢/١٢٣. فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي، ص ١٢ ـ ١٣. رسالة: تحذير المسلمين من تصديق الكهان والعرافين والمنجمين، لمحمد ابن عبد الباري الأهدل، ص ٧ ـ ٨.

(٢) معالم السنن، ٤/٢١٢ ـ ٢١٣، كتاب الطب.

(٣) ممن نقل نص الخطابي وأقره: الشيخ العزيزي، في: السراج المنير، ٣/٣٣٨. والشوكاني في: نيل الأوطار، ٧/٣٦٩ فما بعدها. والشيخ الطيب آبادي في كتابه: عون المعبود، ١٠/٤٠٠. وعبد الرحمان آل الشيخ في: فتح المجيد، ص ٣٠٦. ويوسف القرضاوي في: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٤٠ ـ ١٤١. وانظر في هذه التفرقة نصوصا أخرى في: فضل علم السلف، ص ١٢ ـ ١٣. إحياء علوم الدين، ١/٤١. فتوى في علم النجوم، للشيخ محمد البناني، ص ٤١٨. (والفتوى مخطوطة). مخطوط: حدائق الأزهار المهداة لسيد الأبرار في التحذير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار، للمدني جلون، ص ٣٨٩ إلى ٣٩٣.

النجوم، فقد نبه أولا على أن العلم بالكواكب ومنازلها وحركاتها، وبالأمطار والمواقيت.. ونحو ذلك، علم مباح، بل تعلمه فضيلة[١]. واحتج لذلك ببعض الآيات، وقد ذكرتها فيما سلف من هذا البحث، وكذا ببعض الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، ومنها ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب عباد الله إلى الله رعاء الشمس والقمر، الذين يحببون عباد الله إلى الله، ويحببون الله إلى عباده»[٢].

ولذلك جوز كثير من التابعين النظر في النجوم على طريقة علم الفلك، ويروى هذا عنهم[٣]. كما يروى عن بعض الأئمة مثل أحمد وإسحاق بن راهويه[٤].

فهذا العلم علم صحيح لا ريب فيه، كما قال ابن تيمية[٥]. وقد تقدم أن اسمه في تراثنا العلمي هو علم الهيئة، وصفه ابن خلدون بأنه صناعة شريفة وعلم جليل[٦]. وقال ابن حزم: هو علم حسن صحيح رفيع يشرف به الناظر فيه على عظيم قدرة الله عز وجل...[٧].

بل يوجد في الفقه الإسلامي موضوع خلافي بين العلماء، وهو: هل يجوز العمل بالحساب الفلكي في بعض أنواع العبادة، كالصوم. ومن لم يجز هذا العمل لم يقل إن هذا الحساب باطل، بل قال إن في رؤية الهلال بالعين المجردة وانبناء مسألة بداية رمضان وانتهائه على هذه الرؤية.. معنى تعبديا ينبغي الحفاظ عليه وعلى صورته[٨]. لكن الجمهور قال: إذا ادعى أحد رؤية الهلال، وحكم علم

---

(١) القول في علم النجوم، ص ١٢٦.

(٢) راجع: القول في علم النجوم، ص ١٢٧ فما بعدها. والآيات مثل: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ و﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ونحوها. أما الحديث فقد ذكر المحقق أنه من إخراج الحافظ عبد بن حميد في «المنتخب من المسند»، ٣/ ٢٠٤، وكذا البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب مراعاة أدلة المواقيت. ومعنى رعاء الشمس والقمر أنهم يلاحظونهما ليستنتجوا مواقيت العبادة.

(٣) راجع: القول في علم النجوم، ص ١٣١ إلى ١٣٣. فتح المجيد، ص ٣٠٧.

(٤) فتح المجيد، ص ٣٠٧.

(٥) الفتاوى، ٣٥/ ١٨١.

(٦) المقدمة، ص ٣٦٣.

(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ١٤٨.

(٨) راجع: المقدمات الممهدات، لابن رشد الجد، ٣/ ٤١٥. مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١٢، النحل ١٦. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ٤/ ٢٠٦.

الفلك باستحالة الرؤية في الزمان والمكان المعينين.. رفضت دعواه، وحملت - إن كان المدعي ثقة - على التوهم(١).

أحكام النظر في النجوم، بحسب أنواعه:

وقد فصل الفقهاء هذا النظر في النجوم وأحكامه، وقالوا: ينظر في النجوم لمعرفة سمت القبلة وجهتها، ولمعرفة الزمان من الليل والنهار، ما مضى وما بقي، وللاهتداء بها في السير.

قال ابن رشد الجد: «النظر في أمر النجوم فيما يستدل به على معرفة سمت القبلة فيما بعد عنها من البلاد، ومعرفة أجزاء البلاد ومعرفة أجزاء الليل، وما مضى منها مما بقي، لافتراق أحكامها في العبادات المشروعة، والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر بأن يميزها ويعرف مواضعها من الجنوب أو الشمال، ووقت طلوعها وغروبها، جائز، بل هو مستحب، لأن الله تعالى قد أعلم أنه خلقها لهذا. قال عز وجل ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ ...»(٢).

فالنظر الأول والثاني فرض عين، أو فرض كفاية، بحسب الأحوال. أما النظر في كيفية الاهتداء بالنجوم فجائز أو مستحب، على خلاف(٣). ولبعض الفقهاء تقسيم آخر، لكنه يشبه تقسيم ابن رشد الجد(٤).

أما الأقسام الأخرى من علم الهيئة فقد كره بعض الفقهاء الاشتغال بها، لأنه لم يتبين لهم فائدة فيها، أو لأنها قد توهم التطلع على غيب الله تعالى، لا سيما بالنسبة للعوام(٥). قال ابن رشد الجد: «وأما النظر من أمرها (أي النجوم) فيما زاد

---

(١) راجع التفاصيل في كتاب: قضايا فقهية معاصرة، لمحمد السنبهلي، ص ٨٨ إلى ٩٠.

(٢) المقدمات الممهدات، ٣/٤١٤. وقد تبع المالكية ابن رشد على هذا التقسيم، راجع شروح رسالة ابن أبي زيد القيرواني: شرح قاسم ابن ناجي، ٢/٤١٣. شرح أحمد النفراوي المسمى بالفواكه الدواني، ٢/٤٤٦.

(٣) كفاية الطالب الرباني، لعلي بن خلف المنوفي، شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، ٤/٤٤٠. الفواكه الدواني، شرح الرسالة، ٢/٤٤٦.

(٤) انظر: تقسيم الشيخ أحمد زروق في شرحه على الرسالة، ٢/٤١٣. وكذا رأي شهاب الدين القرافي في: الفروق، ٤/٢٥٨ - ٢٥٩، ٢٩٥.

(٥) مخطوط: فتوى في علم النجوم، لمحمد بن الحسن البناني، ص ٤١٧ - ٤١٨.

على ذلك مما يتوصل به إلى معرفة نقصان الشهور من كمالها دون رؤية أهلتها، فذلك مكروه لأنه من الاشتغال بما لا يعني»[(١)]. وقال ابن تيمية في هذا العلم: «هذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه.. لكن جمهور التدقيق منه كثير التعب، قليل الفائدة، كالعالم مثلا بمقادير الدقائق والثواني والثوالث في حركات السبعة المتحيرة»[(٢)].

وقال ابن رجب: «أما علم التسيير فإذا تعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق كان جائزا عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه»[(٣)].

لكننا اليوم نعرف الكثير عن علم الفلك وأهميته وفائدته للإنسانية، ولذلك ينبغي أن يكون حكمه مثل حكم ما تعلق منه بمعرفة القبلة والمواقيت والاهتداء.. فهو فرض كفاية على الأمة. فهذا ما يقال فيه: «تتغير الفتوى بتغير الزمان، أو هذا اختلاف ظرف وزمان لا اختلاف حجة وبرهان.

متى يكفر المنجم؟

ميز الفقهاء بين نوعين من أهل التنجيم:

١ ـ قال المازري: «من اعتقد اعتقاد كثير من الفلاسفة في كون الأفلاك فاعلة لما تحتها، وكل فلك يفعل فيما تحته حتى ينتهي الأمر إلينا، وسائر الحيوان والمعادن والنبات، ولا صنع للباري سبحانه وتعالى في ذلك، فإن ذلك مروق من الإسلام»[(٤)].

فمدار التكفير على اعتقاد أن النجوم مستقلة بالفعل والتأثير والاختراع، فهذا نوع من التأليه لها. وكذلك إذا انضم إلى هذا الاعتقاد دعاء الكواكب والاستعانة بها، فهذا شرك محض[(٥)].

---

(١) المقدمات الممهدات، ٣/ ٤١٤.

(٢) الفتاوى، ٣٥/ ١٨١.

(٣) فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب، ص ١٣ ـ ١٤.

(٤) المعلم، ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٥) فتوى في علم النجوم، لمحمد البناني، ص ٤١٦ ـ ٤١٧، مخطوط. الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٧. مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦. عمدة القاري، ١٥/ ١١٥، كتاب بدء الخلق.

وهذا مأخذ الفقيه الإصطخري في تكفير الصابئة[١].

قال ابن رشد الجد: «إذا كان المنجم يزعم أن النجوم واختلافها في الطلوع والغروب هي الفاعلة لذلك كله، وكان مستترا بذلك فحضرته البينة قتل بلا استتابة، لأنه كافر زنديق. وإن كان معلنا بذلك غير مستتر به يظهره ويحاج عليه استتيب، فإن تاب وإلا قتل كالمرتد سواء»[٢].

٢ ـ قال البناني ـ في النوع الثاني من الاستدلال بالنجوم ـ : «إن كان النظر فيها مع اعتقاد أن الفاعل للأشياء والمؤثر فيها هو الله سبحانه.. كسائر القرانات العادية.. فهذا صحيح لا كفر فيه»[٣]. فالمذموم من أمر «النجوم نسبة الأمر إلى الكواكب وأنها هي المؤثرة، وأما من نسب التأثير إلى خالقها وزعم أنه نصبها أعلاما وصيرها آثارا لما يحدثه فلا جناح عليه»[٤]. وقال الرازي: «لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل»[٥].

لكن ابن رشد الجد كره هذا أيضا، وقال يؤدب معتقد ذلك. وأحمل رأيه هذا على كون المنجم هنا يحاول استكشاف الغيب بطريق فاسد، أو قال ابن رشد ذلك سدا لذرائع الشرك[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٩٥. وقارن بـ : الفرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦. التحرير والتنوير، ١/ ٥٣٧، البقرة ٦٢.

(٢) المقدمات الممهدات، ٣/ ٤١٩.

(٣) مخطوط: فتوى في علم النجوم، ص ٤١٧. وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود البناني المغربي، عالم مشارك في بعض العلوم. عرف بحاشيته على شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل. وله شرح على السلم، وحاشية على شرح السنوسي، كلاهما في المنطق. توفي سنة ١١٩٤هـ. عن معجم المؤلفين، ٩/ ٢٢١

(٤) نقله العيني عن كتاب الأنواء المنسوب لأبي حنيفة في: عمدة القاري، ١٥/ ١١٥، كتاب بدء الخلق.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٤٨ ـ ١٤٩. وقارن بـ : عارضة الأحوذي، ٣/ ٤١. كتاب الجمعة، باب ٤٤.

(٦) راجع: المقدمات الممهدات، ٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠. وقارن بـ : الفروق، لشهاب الدين القرافي، ٤/ ٢٥٩. كفاية الطالب الرباني، شرح رسالة القيرواني، ٤/ ٤٤١. وانظر كذلك: إرشاد القاصد، ص ٨٠. كشف الظنون، ٢/ ١٩٣٠ ـ ١٩٣١.

أما من جوز أن تكون النجوم دلالات على حوادث الأرض بخلق الله تعالى.. فهذا لا جناح عليه كما تقدم عن البناني والعيني، لكن إن تجاوز هذا إلى استنباط الغيوب - على طريقة أهل التنجيم - فسق وارتكب ذنبا عظيما، وربما كفر.

ومما يتعلق بهذا الموضوع حديث النوء، وفيه أصبح من عبادي مؤمن وكافر. فأما من قال مطرنا بفضل الله فمؤمن، وأما من قال مطرنا بنوء كذا فكافر[1].

ونظرا لأهمية هذا الحديث وصحته وشهرته بين أهل العلم.. فإنني خصصته بكلام.

بيان موضع الخلاف:

لا خلاف بين العلماء في أن من اعتقد أن الكوكب هو المخترع للمطر والمدبر له والفاعل له... أنه يكفر بذلك ويخرج عن الملة، فهذا شرك بين[2].

أما الاختلاف في الحديث فواقع من جهتين:

١ - قال الجمهور: إن لفظة «الكافر» في الحديث تشمل الكافر الحقيقي الذي تقدم وصفه وإجماع العلماء على حاله، وتشمل كافر النعمة، أي المسلم العاصي.

وقال غيرهم: المقصود في الحديث كافر النعمة خاصة.

٢ - يبقى إذن حكم الذي يعتقد أن الله سبحانه هو المنفرد بإيجاد المطر وتدبيره، فهذا موحد غير أنه يعتقد:

١- أن أوضاع الكواكب وما بينها من قرانات واتصالات هي أمارات على المطر.

٢- أو يعتقد أن لها مع ذلك أثرا، لا على سبيل الخلق والاستقلال، لكن على سبيل التسبيب الذي يكون في الأشياء الطبيعية.

وأبدأ ببحث الاختلاف الواقع في الحديث من الجهة الأولى:

١ - معنى الكفر في الحديث:

قال النووي: الذي ذهب إليه جماهير العلماء - ومنهم الشافعي -، وهو ظاهر

---

(١) تقدم هذا الحديث كاملا ومخرجا في الفصل الخامس.

(٢) انظر: المنهاج، شرح صحيح مسلم، للنووي، ٢/ ٥٣. المنتقى شرح الموطأ، للباجي، ١/ ٣٣٤.

الحديث، أن المقصود بالكفر هنا الكفر بالله السالب لأصل الإيمان المخرج من ملة الإسلام[١].

وقال القرطبي: ظاهر الحديث أنه الكفر الحقيقي، لأنه قابل به المؤمن الحقيقي، فيحمل على من اعتقد أن المطر من فعل الكواكب وخلقها، لا من فعل الله تعالى[٢].

ويعضد ذلك أن في رواية للإمام أحمد: يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقا من السماء من رزقه فيصبحون مشركين، يقولون: مطرنا بنوء كذا[٣].

وقال غير الجمهور في أصل تأويل الحديث: المراد كفر نعمة الله تعالى، لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، دون أن يعتقد أنه هو الذي يدبره[٤]. ويؤيد ذلك رواية مسلم عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال القرطبي: «قابل في هذا الحديث بين الشكر والكفر، فدل ظاهره على أن المراد بالكفر ها هنا كفران النعم، لا الكفر بالله تعالى»[٥]. ولذلك جاء في رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم كافرين بها.

ولأجل هذا التردد قال بعض العلماء إن الكفر في الحديث يحتمل كلا المعنيين: الكفر الحقيقي، أو كفر النعمة[٦].

٢ ـ أ: حكم اعتقاد أن الكواكب علامات على المطر ومواقيت له:

لم ير جماهير العلماء في هذا الاعتقاد بأسا، ونصوصهم في ذلك كثيرة، منها:

قال المازري: «من اعتقد أن لا خالق إلا الله سبحانه، ولكن جعل في بعض الاتصالات من الكواكب دلالة على وقوع المطر من خلقه تعالى عادة جرت في

---

(١) المنهاج، ٢/٥٣. وانظر: فتح الباري، ١/٢١٩. الكواكب الدراري، ٥/١٩٥.

(٢) المفهم، ١/٢٥٩، باب نسبة الاختراع لغير الله حقيقة كفر، كتاب الإيمان.

(٣) عن: فتح الباري، ١/٢١٩. عمدة القاري، ٦/١٣٧.

(٤) المنهاج، ٢/٥٣. وانظر: فتح الباري، ١/٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٥) المفهم، ١/٢٦١.

(٦) منهم ابن حجر في: فتح الباري، ١/٢١٩، والعيني في: عمدة القاري، ٦/١٣٧.

ذلك، فلا يكفر بهذا، إذا عبر عنه بعبارة لا يمنع الشرع منها. والظن بمن قال من العوام: هذا نوء الثريا ونوء الراعي، أنه إنما يريد هذا المعنى»(١).

وقال ابن العربي - في حديث النوء -: «إنما خرج هذا على قول العرب التي كانت تعتقد أن ذلك من تأثير الكواكب لجاهليتها. وأما من اعتقدها وقتا ومحلا وعلامة ينشئه الله فيها ويدبره عليها فليس من الذي نهى عنه رسول الله ﷺ في معنى»(٢).

وقال أبو عبيد: إنما غلظ النبي ﷺ في أمر الأنواء لأن العرب كانت تنسب المطر إليها. فأما من جعل المطر من فعل الله تعالى، وأراد بقوله مطرنا بنوء كذا، أي في وقت كذا، وهو هذا النوء الفلاني، فإن ذلك جائز، أي أن الله قد أجرى العادة أن يأتي المطر في هذه الأوقات(٣).

ونصوص العلماء كثيرة في هذا المعنى، ومتظافرة عليه(٤).

ومنعت قلة من العلماء هذا الاعتقاد، ولو على الوجه المذكور. قالوا: إذا اعتقد أن النوء هو الذي ينزل المطر كفر كفرا حقيقيا. أما إذا اعتقد أن المنزل هو الله تعالى، والنوء علامة أو وقت له، فهذا يحرم، وهو من كفر النعم ومن الشرك الأصغر، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ونسب ما هو من فعل الخالق الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا قدرة له على شيء(٥).

لفظة النوء واستعمالها في الإخبار عن المطر:

وينبني على الاختلاف السابق اختلاف آخر في حكم قولنا: مطرنا بالنوء، مع اعتقاد أن ذلك مجرد علامة أو وقت للمطر.

---

(١) المعلم، ١/ ٢٠٠.

(٢) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠. النحل ١٦.

(٣) نقله الطيب آبادي في: عون المعبود شرح سنن أبي داود، ١٠/ ٤٠٢، باب في النجوم، كتاب الكهانة والتطير. وكذلك ابن الأثير في: النهاية في غريب الحديث، ٤/ ١٩٠، مادة نوء.

(٤) انظر: القول في علم النجوم، ص ١٦٦ - ١٦٧، ١٧٤. مدارك التنزيل، للنسفي، ١/ ٢٧٠. المنهاج، للنووي، ٢/ ٥٣. الكواكب الدراري، ٥/ ١٩٥، كتاب الآذان. السراج الوهاج، شرح صحيح مسلم، ٨/ ٣٨٤. عمدة القاري، ٦/ ١٣٧، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم.

(٥) راجع: فتح المجيد، ص ٣١١، ٣١٣ إلى ٣١٥.

ومذاهب الفقهاء في هذا اللفظ اثنان:

الأول: الكراهة. قال النووي: «اختلفوا في كراهته. والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها. وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم»[١].

وقال الدهلوي: «من قال مطرنا بنوء كذا، وأراد أن الله سقى المطر بفضله في هذا الوقت بحكم جري العادة فذلك جائز، ولكن يكره لاشتباه المعاني»[٢].

الثاني: التحريم، قال القرطبي: هذا القائل مخطئ من وجهين:

«أحدهما: أنه خالف الشرع؛ فإنه قد حذر من ذلك الإطلاق.

وثانيهما: أنه قد تشبه بأهل الكفر في قولهم، وذلك لا يجوز؛ لأنا قد أمرنا بمخالفتهم، فقال: «خالفوا المشركين»، و«خالفوا اليهود»، ونهينا عن التشبه بهم، وذلك يقتضي الأمر بمخالفتهم في الأفعال والأقوال.. ولأن الله تعالى قد منعنا من التشبه بهم في النطق، بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ لما كان اليهود يقولون تلك الكلمة للنبي ﷺ يقصدون ترعينه، منعنا الله من إطلاقها وقولها للنبي ﷺ وإن قصدنا بها الخير، سدا للذريعة، ومنعا من التشبه بهم»[٣].

ولذلك قال الباجي: «هذا اللفظ لا يجوز إطلاقه بوجه، وإن لم يعتقد قائله ما ذكرناه لورود الشرع بالمنع منه، ولما فيه من إيهام السامع ما تقدم ذكره»[٤]. أي من الشرك.

---

(١) المنهاج، ٢/٥٣. ونقل هذا الكلام وأقره كل من: الكرماني في: الكواكب الدراري، ٥/١٩٥. والشيخ آبادي في: عون المعبود، ١٠/٤٠٢. وصديق خان القنوجي في: السراج الوهاج، ٨/٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢) المسوى شرح الموطأ، ٢/٤٢٣. والدهلوي هو ولي الله أحمد بن عبد الرحيم العمري. ولد بدهلي بالهند، وبها توفي سنة ١١٧٦هـ. عالم مجدد، من آثاره: حجة الله البالغة. الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد. عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد. معجم المؤلفين، ١٣/١٦٩.

(٣) المفهم، ١/٢٥٩. وحديث «خالفوا المشركين» رواه الشيخان عن ابن عمر. وحديث «خالفوا اليهود» رواه أبو داود عن شداد بن أوس الصحابي. والآية ١٠٤ من سورة البقرة.

(٤) المنتقى شرح الموطأ، ١/٣٣٥. أبو الوليد بن خلف الأندلسي، رحل إلى المشرق، وعاد بعلم كثير، له كتب كثيرة في التفسير والحديث والفقه. توفي سنة ٤٧٤هـ. عن معجم المؤلفين، ٤/٢٦١.

وهذا رأي بعض فقهاء الحنابلة أيضا[١].

وبعض العلماء جوز أن يقال: مطرنا في نوء كذا، ولا يقال بنوء كذا[٢]. وقال أحمد القرطبي: «لو قال غير هذا اللفظ الممنوع يريد به الإخبار عما أجرى الله به سنته جاز، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة»[٣].

وهذا أوان التعرف على فقه مالك في هذه القضية، وهو الذي روى هذا الحديث في الموطأ. ويبدو لي أن هذا الفقه - في هذه المسألة - أقرب إلى الصواب.

فقه الإمام مالك في الموضوع:

عقد الإمام مالك في موطئه بابا للاستمطار بالنجوم، بدأه بحديث النوء برواية زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، ثم ثنى بحديث النبي ﷺ، كان يقول: إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة. وختم الباب بخبر عن أبي هريرة الذي كان يقول إذا أصبح وقد مطر الناس: مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾[٤].

قال الباجي: معنى الحديث: «إذا نشأت سحابة ثم تشاءمت، يقول إذا نشأت السحابة من ناحية البحر، ثم استدارت فصارت ناحية الشام فذلك سحاب يكون منه المطر الغزير والغدق الغزير... وأما قوله فتلك عين غديقة، العين مطر أيام لا يقلع»[٥].

---

(١) راجع: فتح المجيد، ص ٣١١، ٣١٤.

(٢) عمدة القاري، ٦/١٣٧.

(٣) المفهم، ١/٢٥٩ - ٢٦٠.

(٤) الموطأ، أبواب الصلاة، باب الاستمطار بالنجوم، ١/ ١٥٣. وهذا الحديث هو أحد بلاغات مالك الأربعة بالموطأ. رواه الطبراني في المعجم الأوسط متصلا، قال الهيثمي: وهو من طريق الواقدي، وفيه كلام، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله لا بأس بهم، وقد وثقوا. مجمع الزوائد، ٢/ ٢١٧. وأخرجه أيضا الخطيب في: القول في علم النجوم، ص ١٥٧، عن عائشة. وذكر المحقق أن الحديث أخرجه كذلك ابن أبي الدنيا في: «المطر والرعد...»، وأبو الشيخ في: العظمة، رقم ٧٢٢. (ص ١٥٧، بالهامش).

(٥) المنتقى، ١/٣٣٥.

وقد اعتبر بعض فقهاء المالكية أن هذا ونظائره من مالك دليل على أن موطأه كتاب فقه وأصول معا، قالوا: «ذلك أنه يذكر فيه الأحاديث المتعارضة التي تحتاج إلى التأويل، فيصرف كل حديث منها لما يليق به، كما صرف هذا الحديث لمنع الاستمطار بالنجوم في حق من ينسب التأثير للأنواء، وصرف حديث: إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة، بجواز الاستدلال بالعادة التي أجراها الله سبحانه»[١].

وقال الباجي: «إنما أدخل مالك رحمه الله هذا الحديث بإثر حديث زيد بن خالد الجهني ليبين ما يجوز للقائل أن يقول لما جرت به العادة. مثلما جرت به العادة في كثير من البلاد بأن يمطروا بالريح الغربية، وفي بلاد بالريح الشرقية، فيستبشر منتظر المطر إذا رأى الريح التي جرت عادة ذلك البلد أن يمطروا بها، مع اعتقاده أن الريح لا تأثير لها في ذلك... فبان بذلك فضل مالك وعلمه بالأصول والفروع»[٢].

كلام الشافعي في «الأم»:

وللشافعي مقالة توافق ما تقدم عن شيخه مالك، قال: «من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ، لأن النوء وقت والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا ولا يمطر ولا يصنع شيئا. فأما من قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا بوقت كذا فإن ذلك كقوله مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفرا، وغيره من الكلام أحب إلي منه»[٣]. يعني حسما للمادة، وعلى ذلك يحمل الإطلاق في حديث النوء.

أدلة أخرى من الحديث والأثر:

فعن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع الثمار حتى تذهب العاهة. قال

---

(١) إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، وهي حاشية لابن غازي على صحيح البخاري، ص ٢٦٦. وانظر: المعلم، ١/ ٢٠٠.

(٢) المنتقى، ١/ ٣٣٥.

(٣) الأم، ١/ ٢٥٢. كراهية الاستمطار بالأنواء في كتاب الاستسقاء.

الراوي: فقلت: يا أبا عبد الرحمن، ما ذهاب العاهة؟ قال: طلوع الثريا[١].

وقد قال عمر - في صلاة الاستسقاء عام الرمادة - للعباس بن عبد المطلب: يا عم رسول الله، كم بقي علينا من نوء الثريا؟ فقال له العباس: يا أمير المؤمنين إن أهل العلم بها يزعمون أنها تعترض بالأفق بعد وقوعها سبعا. فكان كما قال حين مضت الأيام السبعة. وعلق على ذلك الشافعي قائلا: إنما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: كم بقي من وقت الثريا، ليعرفهم بأن الله عز وجل قدر الأمطار في أوقات فيما جربوا، كما علموا أنه قدر الحر والبرد بما جربوا في أوقات[٢].

وهذا التفصيل عن الإمامين مالك والشافعي، وما اعتمداه من الأخبار والآثار يعيننا على أن نستنبط حكم اعتقاد آخر في هذا الموضوع:

٢ - ب: حكم من اعتقد أن للكواكب - أو الرياح - أثرا بجعل الله تعالى:

والفرق بين هذا الاعتقاد وبين الاعتقاد السابق أن الأول يجوز أن يكون لبعض خلق الله تعالى أثر في إنزال المطر، بينما الثاني يقتصر على القول إن النوء - ونحوه من ريح أو سحاب - مجرد علامة ودلالة على المطر، لا أثر له فيه ألبتة.

فهذا الاعتقاد الثالث يرشدك إلى أن تقسيم الباجي الآتي غير منحصر، قال: «ما يدعى للكوكب من التأثير في ذلك على قسمين: أحدهما أن يكون الكوكب فاعلا للمطر، والثاني أن يكون دليلا عليه. وإذا حملنا لفظ الحديث على الوجهين لاحتماله لهما اقتضى ظاهره تكفير من قال بأحدهما، فإن الله تعالى هو المنفرد

---

(١) أخرج هذا الحديث جماعة، منهم: الخطيب البغدادي، في القول في علم النجوم، ص ١٤٢. وأحمد في المسند عن عائشة، كما في الجامع الصغير، ٢/ ٦٨٥. والطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في السنن الكبرى. كما في المقاصد الحسنة، للسخاوي، ص ٤٠.
وذكر محقق كتاب الخطيب - ص ١٤٢ - آخرين رووا الحديث، ومنهم الشافعي في الأم، وعبد بن حميد، والطحاوي في شرح معاني الآثار، وأبو الشيخ في العظمة.
وفي رواية إذا طلع النجم صباحا رفعت العاهة عن كل بلدة. وهي عند أبي داود والطبراني في الصغير. انظر: المقاصد الحسنة، ص ٤٠. وزاد الهيثمي طريقا للبزار في مسنده، انظر مجمع الزوائد، ٤/ ١٠٣.
ولأبي هريرة أيضا: إذا طلعت الثريا أمن الزرع من العاهة. رواه الطبراني في المعجم الصغير، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير، ١/ ١١٤.
وأبو عبد الرحمان هو ابن عمر، والراوي عنه: عثمان بن عبد الله بن سراقة.

(٢) الأم، ١/ ٢٥٢. وانظر: عمدة القاري، ٦/ ١٣٧.

بالخلق والإنشاء»[١]. فههنا قسم ثالث وهو أن يكون للكواكب ـ أو الظواهر الجوية ـ أثر في إنشاء المطر وإنزاله، لا على سبيل الاختراع أو الاستقلال، بل على سبيل الأداة للقدر الإلهي المحيط بكل شيء. قال العيني في فوائد حديث النوء: «فيه أن الله تعالى خلق لكل شيء سببا يضاف إليه الحكم، وفي الحقيقة الفاعل هو الله تعالى القادر على كل شيء»[٢].

وقد حكى ابن العربي قول بعض الناس: إن الاختلاف في الرياح التي تأتي بالمطر يجيء من قبل البحر، فإذا جرت الريح ذيلها على البحر ألقحت السحاب منه، وإذا جرت ذيلها على البيداء جاء سحابا عقيما... ورد ذلك ابن العربي، لكن لا من جهة الاعتقاد، بل لافتقار القائل إلى دليل. ومما قال: «لا نمنع ذلك في قدرة الله، فإن ربنا قادر على أن ينشئ الماء في السحاب إنشاء، وهو قادر على أن يسيب له ماء البحر الملح...»[٣].

ولهذا قال ابن حزم: من قال إن النجوم مخلوقة غير عاقلة، لكن الله عز وجل خلقها وجعلها دلائل على الكوائن، فهذا ليس كافرا ولا مبتدعا، لأن قائل هذا إنما يحيل على التجارب، فما كان من تلك التجارب ظاهرا إلى الحس كالمد والجزر الحادثين عند طلوع القمر واستوائه وأفوله وامتلائه ونقصانه، وكتأثير القمر في نمو بعض النبات، وفي أحوال بعض الحيوانات، وكتأثير الشمس في عطش الحر وتصعيد الرطوبات... وسائر ما يوجد حسا فهو حق لا يدفعه ذو حس سليم، فكل ذلك خلق الله عز وجل. فهو خلق القوى وما يتولد منها وما يوجد بها، كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾[٤].

ولعله قد وضح لك الآن أن هذه المسألة هي قضية السببية بعينها.

---

(١) المنتقى، ١/٣٣٤.

(٢) عمدة القاري، ٦/١٣٨. بين العلم الحديث كيف ينشأ المطر، وأنه ليس لذلك علاقة بالكواكب، لكن هذا لا يهمنا في هذا المبحث، لأن المقصود هو استخراج حكم من يعتقد أن للنجوم أثرا بجعل الله تعالى.. هكذا بصفة عامة.

(٣) أحكام القرآن، ٣/١٢٩. النحل ١٦.

(٤) الفصل، ٥/١٤٨ ـ ١٤٩.

وعلى هذا الاعتقاد الثالث تكون الحكمة من النهي عن نسبة المطر إلى الكواكب تنبيه الناس إلى عدم التعلق الشديد بالأسباب الدنيوية الظاهرة، ونسيان خالقها ومدبرها، فإن حجاب الحس قوي جدا بالنسبة لأكثر الخلق. لكن ينبغي عدم استعمال لفظ المطر بالنوء، التزاما بظاهر الحديث. وإذا صح الاعتقاد في التوحيد، واستعملت ألفاظ أخرى، وذكر الله سبحانه عند نزول المطر الذي هو فضل منه وحمد على ذلك. . . لم يكن ـ بعد ذلك ـ على المؤمن حرج في دراسة الظواهر الجوية والبحث عن أسبابها وعللها، بل حتى توقع بعض آثارها[١].

توقعات الأرصاد الجوية:

ولذلك فإن هذا التوقع جائز لا حرج فيه، فمادام يقوم على منهاج من العلم واضح فلا بأس به، وإنما منع الإسلام الكهانة لأنها دخول في عالم الغيب بغير دليل ولا سبيل صحيح. فليس يوجد أي إشكال في الجهود العلمية التي تبغي تحسين مقدرة الإنسان على توقع مستقبل الظواهر الجوية. ولا ينبغي للعالم المسلم أن يشعر بأنه يتطفل على علم الغيب، أو يحاول التعرف على علم استأثر الله تعالى به. وليتذكر القاعدة الذهبية: الغيب ما لا دليل عليه. وليتذكر أيضا أن الغيب الذي لا سبيل إليه هو علمه على وجه اليقين، أما على وجه الظن والتغليب فأمر ممكن[٢].

وكل توقع ينبني على دليل ويسير على هدى من العلم. . لا حرج فيه، ولذلك يقول التفتازاني: «العلم بالغيب أمر تفرد به الله تعالى، لا سبيل إليه للعباد، إلا بإعلام منه تعالى، وإلهام بطريق المعجزة أو الكرامة، أو إرشاد إلى استدلال بالأمارات فيما يمكن ذلك فيه. ولهذا ذكر في الفتاوى أن قول القائل عند رؤية هالة القمر: يكون المطر، مدعيا علم الغيب لا بعلامة كفر»[٣].

بل أقول إن هذا العلم من فروض الكفاية على الأمة. وهو يعتبر اليوم أحد

---

(١) ولذلك صحح علماؤنا من قديم توقع الكسوف. راجع كلام ابن رشد في: المقدمات الممهدات، ٤١٧/٣.

(٢) وهذا أيضا قول كثير من العلماء المعاصرين، ومنهم الشيخ القرضاوي في: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٤١. وقد بحثت هذه الناحية بتفصيل وإفاضة في كتابي الآخر: الغيب والمستقبل.

(٣) شرح العقائد النسفية، ص ١٠٨.

المجالات العلمية الاستراتيجية، ولذلك تعتبر بعض قضايا هذا العلم من أسرار الدول الكبرى، والمنافسة فيه قائمة على أشدها بين الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة. وهذا ما يفسر رفض الدول الغربية بيع الحواسيب الكبيرة ـ المستعملة في مجال التوقع الجوي ـ لغيرها من دول الجنوب. واليوم إذا أراد بلد مثل المغرب معلومة ما في هذا المجال، فعليه أن يقدم طلبا رسميا يرسل إلى باريس، ويعالج هناك في المختبرات المختصة، ثم يتلقى جوابا محددا.

ويؤكد صحة هذا الحكم، أعني أن علم الأرصاد والتوقع من فروض الكفاية على الأمة، كثرة فوائده وأهميتها. فالتوقع اليوم مطلوب في مجالات كثيرة، حيث يعين على تجنب مشاكل وكوارث، ويساهم في رفع المردود وتخطيط الأعمال... ومن هذه المجالات:

ـ الفلاحة.

ـ الصناعة الكهربائية: إذ من المهم معرفة قدر الاستهلاك المتوقع للكهرباء في فصل الشتاء، فذلك يتغير بحسب شدة الفصل أو اعتداله.

ـ النقل الطرقي والنهري.

ـ التلوث.

ـ حالة الطقس بالمرتفعات الجبلية التي تكسوها الثلوج، فانهيارات الثلوج تكون أحيانا خطرة، ويمكن أن تدفن قرية بأكملها.

ـ يحتاج إلى هذا التوقع أيضا: العاملون بالبحار، وربابنة السفن، فهو يعينهم على اختيار الطريق الأمثل، وتجنب المناطق التي طقسها رديء. وهذا التوقع ينفع كذلك سفن الصيد، خصوصا بالسواحل؛ وكذا المحطات البحرية التي تستخرج النفط من أعماق البحر.

ـ ويعتمد الطيران الجوي بدوره على توقعات الأرصاد المختصة. ويكفي أن نعرف أن في بعض أنواع الغيوم يمكن لتيارات جوية عمودية أن تحطم أكثر الطائرات صلابة. ولهذا يتتبع الطيار في رحلته خريطة جوية تتغير باستمرار، بحسب المعلومات التي ترسلها إليه المحطات الأرضية، فيغير تبعا لذلك مسار الرحلة.

ـ وتسمح بعض التوقعات أحيانا بإنقاذ آلاف السكان ـ أو عشرات الآلاف ـ من الرياح والأعاصير المدمرة.

وعلى العموم يوجد إقبال متزايد على معرفة توقعات الأرصاد الجوية، ومن مختلف الطبقات[١].

أحكام معاصرة جديدة للتنجيم:

سبق أن رأينا كيف استفاد المنجمون من العصر، وما حققه من تقدم علمي وتقني، لكي يطوروا مهنتهم، حتى جعلوا منها صناعة قائمة بنفسها. ولعله يسهل الآن أن نستنبط حكم كثير من المسائل الجديدة في الموضوع في ضوء البحث الفقهي السابق، فمن ذلك:

١ ـ في الفقه الإسلامي، وفي الدولة الإسلامية التي تراعي أحكام الشرع، لا يعترف بمهنة المنجم، ولا يجوز قيام جمعيات أو اتحادات أو معاهد للمنجمين.

٢ ـ لايجوز أيضا بيع أو كراء مكتب لمن يجعله مكانا لعمل المنجم، وشركات التنجيم بأنواعها جميعا باطلة.

٣ ـ كما يحرم أيضا على وسائل الإعلام الإشهار بالمنجمين ونشر إعلاناتهم، والمال الذي تحصله هذه الوسائل بهذا الطريق ـ كالصحافة مثلا ـ مال حرام.

٤ ـ أيضا يحرم على أصحاب المكتبات بيع كتب الأبراج والتنبؤات التنجيمية، وذلك لتضمنها ما يخالف عقيدة الغيب الإسلامية، وعددا من الأكاذيب والأخطاء.

٥ ـ ولا يجوز لأحد ـ تحت أي عذر من الأعذار ـ اللجوء إلى المنجم واستشارته حول شأن من شؤون المستقبل، وإلا دخل تحت الوعيد النبوي للذي يأتي الكاهن أو العراف.

٦ ـ أما حكم قراءة الطالع الفلكي بالصحف، فالذي يبدو لي أن من يقرأه مصدقا ما فيه من الإخبار عن المستقبل يرتكب إثما عظيما، ومثل هذا يخاف على عقيدته أو إيمانه. وأما من يقرأه وهو غير مصدق له، بل لمجرد الفضول وحب الاطلاع، فهذا لا حرج فيه، لكن إن كثر صار مكروها، لأن من التقوى

---

(١) اعتمدت في بيان فوائد التوقع الجوي تلك على: La Météorologie, p 111 à 118: وانظر: (مقال التوقع الرقمي بمجلة مستقبلات Article : Prévision numérique, p 45 à 49, in : Futuribles.)

اجتناب الشبهات، ولأن من «حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وهذه الأبراج لا خير فيها ولا صدق.

خـــاتمـــة:

قد تبين من خلال هذه الدراسة أن التنجيم استطاع أن يحافظ على وجوده واستمراره منذ أن ظهر في ماض غابر إلى يومنا هذا. وهذا الفن ـ كما قال فيبر ـ هو في طريقه الآن لكي يصبح « علما » مستقلا ضمن العلوم الإنسانية القائمة (انظر : Antoine Faivre: l'ésotérisme, p99)

وقد رأينا كيف أن العلم والتقنية وتطور المعارف في القرون الأخيرة... كل ذلك لم يستطع القضاء على هذا الفن الفاسد، الذي هو التنجيم. والدرس الذي نستفيده من هذا الفشل هو أن العلم اليوم في حاجة إلى التحالف مع الدين، إذا أراد أن ينجح في معركته ضد الخرافة والوهم ... بجميع أشكالهما. إن الإنسان ـ عكس ما يعتقد غلاة الوضعيين وأنصار النزعة العلموية ـ لا يعيش بالتقنية فقط، ولا يكفي لملء فراغه الروحي والنفسي أن تشحن عقله بالرياضيات والفيزياء وسائر العلوم البحتة... الإنسان روح أيضا، وله حاجات نفسية ثابتة، أهمها الإيمان بعالم آخر غير عالمه الخاص المباشر... ولذلك تجد أن الإنسان المعاصر يشعر بأنه وحيد وضعيف، وأنه مجرد ذرة تائهة في هذا الكون الهائل الفسيح، كماقال باسكال في «أفكاره». ومن هنا دخل التنجيم، فهو يقول للفرد: أنت الأساس في هذا العالم... والكواكب والنجوم تراقبك وترسم لك طريق حياتك... وهنا كذلك تكمن أهمية الدين، فهو أيضا يخاطب البشرية من هذه الجهة... الإسلام ـ مثلا ـ يعتبر أن الإنسان هو مركز الكون: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وهو المستخلف على الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ويعتبر أيضا أن الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ مخلوق مكرم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾...، وأن الله سبحانه رحمة به لم يتركه سدى، فأرسل إليه من ينير له الطريق: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾... إلى آخر عناصر البناء العقدي المحكم الذي نجده في الدين الخاتم.

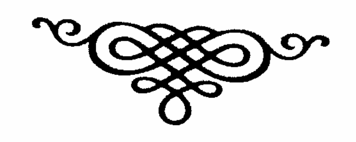
وهناك نتيجة هامة أخرى توصل إليها هذا البحث، وهي تخص مجال نظرية

المعرفة وفلسفة العلوم... وخلاصتها أن الإسلام حين أبطل التنجيم وحرمه، فليس لأن توقع المستقبل أمر لا يجوز، وهذا الفن يسعى إلى استكشاف المستقبل... بل لأن التنجيم فاسد الأسس، ويدعي إدراك المستقبلات بطريق لا يصح. فالإسلام لا يقف ضد الاستشراف السليم الذي يقوم على أسس واضحة يشهد لها العقل أو العلم... وإنما يقف ضد التخرص وادعاء معرفة الغيوب دون الاستناد إلى أدلة وبراهين كافية.

وقيمة هذا التوجيه الإسلامي كبيرة جدا، فالإسلام - وهو يقطع الطريق على فنون التنبؤ الباطلة، والتنجيم أبرزها - يفتح في الوقت نفسه المجال واسعا أمام العلوم الحقيقية للتوقع واستشراف المستقبل. ولذلك تجد أن العلماء حرموا التنجيم من جهة، وأباحوا علم الأرصاد الجوية والتوقع الجوي من جهة أخرى.

وهذا موقف ابستيمولوجي عظيم لا يمكن أن نحيط بكل أبعاده ومراميه في هذه الخاتمة. وقد فصلت البحث فيه في كتابي عن: «الغيب والمستقبل»، فليراجع هناك.

أحمد الله تعالى أن وفقني لإنهاء هذا العمل، وأصلي وأسلم على النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



الفهارس العامة

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية[1]:

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
ـ سورة البقرة ـ		
﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾	٢٩	٢٢٨
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	٢٢٨
﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾	٣٢	١٥٣
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾	٦٢	٣٧
﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ﴾	١٠٢	٢٠٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾	١٠٤	٢٢٠
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾	١٢٧	٣٧ ـ ٩٧
ـ آل عمران ـ		
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾	٨٥	٣٩
ـ المائدة ـ		
﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾	٤١	١٤١

(١) السورة، ثم رقم الآية، ثم رقم الصفحة. فالآية الأولى مثلا رقمها ٦٢ في سورة البقرة، وجاءت في صفحة من هذا الكتاب.

فهرس الأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين:

الحديث | الصفحة

فهرس الأعلام

* **عربيّة وإسلاميّة**

ف ـ ق ـ ك ـ ل

* الأعلام الأجنبية

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ت ـ ج ـ د ـ ر ـ س ـ ش

لائحة المصادر والمراجع

أولا ـ بالعربية:

١ ـ التفسير:

١ ـ البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل. حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش. دار طيبة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٣ . الرياض.

٢ ـ البقاعي برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. طبع بعناية محمد عبد الحميد. دائرة المعارف العثمانية، تصوير عام ١٩٨٤ .

٣ ـ الرازي، محمد فخر الدين: مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير). دار الفكر. ط ١٩٩٣ . بيروت. نسخة ثانية: المطبعة البهية المصرية. ط. ١، سنة ١٩٣٨ . اعتمدت هذه النسخة في مواضع محددة هي بين سورة آل عمران آية رقم ١٧٩ والأنعام ٥٠ .

٤ ـ رشيد رضا، محمد: تفسير القرآن الحكيم، دار المعرفة. ط: ٢ . بيروت.

٥ ـ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. طبع بطهران. د.ط.ت.

٦ ـ أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. المطبعة المصرية، الناشر المكتبة الحسينية المصرية. ط١، ١٩٢٨ . صححها حسن محمد المسعودي.

٧ ـ سيد قطب: في ظلال القرآن. دار إحياء التراث العربي. ط٥ . ١٩٦٧ . بيروت.

٨ ـ السيوطي، عبد الرحمن: الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور. المطبعة الإسلامية بطهران، سنة ١٣٧٧ هـ.

٩ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. المطبعة الميمنية بمصر، وهي طبعة قديمة، واعتمدت أحيانا على طبعة دار المعرفة. ط٣ . ١٩٧٨ . بيروت.

١٠ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر: تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد. اختصره المؤلف بـ: التحرير والتنوير من التفسير. نشر مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة. د.ط.ت.

١١ ـ ابن العربي، أبو بكر: أحكام القرآن. اعتنى به محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. ١٩٨٨ . بيروت. د.ط. واعتمدت أحيانا على النسخة التي حققها علي البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٤ .

١٢ ـ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق: المحرر الوجيز. طبعت أجزاؤه بين ١٩٧٥ و١٩٨٩ . طبعة وزارة الأوقاف. ط١ . المغرب.

١٣ ـ القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية. ط١ ـ ١٩٥٧ . القاهرة.

١٤ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد: الجامع لأحكام القرآن. ١٩٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت. النسخة الثانية: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠ . القاهرة. وهي نسخة معتمدة فيما بين آل عمران آية ٧ إلى الأنعام آية ٥٠ .

١٥ ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم. دار ابن كثير. ط١ ١٩٩٤ . دمشق.

١٦ ـ النسفي، عبد الله بن أحمد أبو البركات: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. د.ط.ت.

٢ ـ الحديث وعلومه:

أ ـ شروح الحديث:

١٧ ـ آبادي، عبد العظيم الطيب: عون المعبود شرح سنن أبي داود. ضبطه عبد الرحمن عثمان. دار الفكر، ط٣، ١٩٧٩ .

١٨ ـ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك: النهاية في غريب الحديث. المطبعة الخيرية، القاهرة، ط١، ١٣٢٢ هـ.

١٩ ـ أحمد بن حنبل: المسند. صححه محمد الزهراوي الغماري. المطبعة الميمنية بمصر، ١٣١٣ هـ.

٢٠ ـ الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف: المنتقى شرح الموطأ. دار الكتاب العربي ـ بيروت. د.ط.ت. (طبعة مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣١هـ).

٢١ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد: الجامع الصحيح. مطبوع مع شرحيه: فتح الباري، وعمدة القاري.

٢٢ ـ البلقيني، سراج الدين: محاسن الاصطلاح، شرح مقدمة ابن الصلاح. تحقيق عائشة بنت الشاطئ. دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٤ .

٢٣ ـ الترمذي، أبو عيسى بن سورة: الجامع (مطبوع مع شرحه عارضة الأحوذي). دار الكتب العلمية.

٢٤ ـ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. طبعة مصححة على عدة نسخ، ومنها النسخة التي حققها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن باز. دار الفكر ـ ط ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ . بيروت. واعتمدت أحيانا على نسخة ابن باز.

٢٥ ـ ٢٦ ـ الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي:

* معالم السنن شرح سنن أبي داود. اعتنى به عبد السلام عبد الشافعي محمد. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦. بيروت.

* أعلام السنن في شرح صحيح البخاري. دراسة وتحقيق د.يوسف الكتاني ـ مطابع منشورات عكاظ ـ ١٩٩١ ـ الرباط.

٢٧ ـ ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨ ـ الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم: المسوى شرح الموطا. دار الكتب العلمية. ط.١ .١٩٨٣ بيروت.

٢٩ ـ الشوكاني، محمد بن علي: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار. دار الفكر. د.ط.ت.

٣٠ ـ صديق خان، أبو الطيب القنوجي البخاري: السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج. وهو شرح على ملخص صحيح مسلم للحافظ المنذري. تحقيق الشيخ عبد التواب هيكل. إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بقطر. ١٩٩٤ . طبع بالمطبعة الأهلية بالدوحة.

٣١ ـ العزيزي، علي بن أحمد: السراج المنير شرح الجامع الصغير. دار الفكر. د.ط.ت.

٣٢ ـ ابن علان، محمد الصديقي: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. دار الفكر، بيروت.

٣٣ ـ عياض، أبو الفضل اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ومعه «مزيل الخفاعن ألفاظ الشفا»، لأحمد بن محمد الشمني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤ ـ ابن غازي، محمد بن أحمد: إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب. دراسة وتحقيق عبد الله محمد التمسماني، أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان. نشر وزارة الأوقاف سنة ١٩٨٩ بالمغرب.

٣٥ ـ ابن العربي، أبو بكر: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. دار الكتب العلمية. د.ط.ت.

٣٦ ـ العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عمدة القاري بشرح صحيح البخاري. دار الفكر. د.ط.ت.

٣٧ ـ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مختلف الحديث. دار الكتب العلمية. ط١ . ١٩٨٥ . بيروت.

٣٨ ـ القرطبي، أحمد أبو العباس: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. تحقيق محيي الدين مستو، يوسف بديوي، وأحمد السيد، ومحمود بزال. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، كلاهما بدمشق. ط١، ١٩٩٦ .

٣٩ ـ الكرماني: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. المطبعة البهية المصرية. ط.٢ ١٩٣٩ . القاهرة.

٤٠ ـ المازري، أبو عبد الله محمد بن علي: المعلم بفوائد مسلم. تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر ـ دار الغرب الإسلامي. ط.٢ ١٩٩٢ . بيروت.

٤١ ـ مسلم، بن الحجاج: الجامع الصحيح. تحقيق وتعليق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ط١، ١٩٥٥ .

٤٢ ـ المناوي، محمد عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير. دار المعرفة، بيروت. ط٢، ١٩٧٢ .

٤٣ ـ مالك، بن أنس: الموطأ. طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر. ١٣٤٨ هـ.

٤٤ ـ النووي، يحيى بن شرف: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. دار الكتب العلمية، بيروت. طبعة أولى، ١٩٩٥ .

ب ـ كتب الرجال والجرح والتعديل:

٤٥ ـ ابن حجر، العسقلاني: تهذيب التهذيب. تصوير دار صادر بلبنان عن نسخة مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدر آباد الدكن، الهند. ط١، ١٣٢٥ هـ.

٤٦ ـ الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة بدمشق. ط٢، ١٩٨٢ .

٤٧ ـ ابن عدي، أبو أحمد عبد الله: الكامل في الرجال. دار الفكر، بيروت. ط٢، ١٩٨٥ .

ج ـ كتب تخريج الأحاديث:

٤٨ ـ السخاوي، محمد شمس الدين: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. تصحيح عبد الله بن الصديق. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٩٧٩ .

٤٩ ـ ٥٠ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر:

* اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. دار المعرفة، بيروت. ط٢، ١٩٧٥ .
* الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. دار الفكر، بيروت. ط١، ١٩٨١ .

٥١ ـ العراقي، زين الدين عبد الرحيم: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار. مطبوع بهامش إحياء علوم الدين. ط٢، ١٩٩٢ . دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٢ ـ لفيف من المستشرقين: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. نشره الدكتور أي، ونسنك. طبع مكتبة بريل بمدينة ليدن بهولندا. ١٩٣٦ .

٥٣ ـ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر. دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٨ .

٣ ـ كتب الكلام والعقائد والفرق:

٥٤ ـ الإيجي، عضد الدين: المواقف، في علم الكلام. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، بيروت. ط١، ١٩٩٧ .

٥٥ ـ بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمه عن الإنجليزية: إمام عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٧٣، ١٩٩٣ . الكويت.

٥٦ ـ الباقلاني، أبو بكر بن الطيب: التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة. تحقيق: محمود محمد الخضيري، ومحمد عبد الهادي أبو ريدة. الناشر دار الفكر العربي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٤٧ .

٥٧ ـ التفتازاني، سعد الدين: شرح العقائد النسفية. تحقيق أحمد حجازي السقا. ط١، ١٩٨٧ . مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٥٨ ـ الجرجاني، علي بن محمد: شرح المواقف في علم الكلام. تحقيق عبد الرحمان عميرة. دار الجيل، بيروت. ط١، ١٩٩٧ .

٥٩ ـ ابن حزم، علي بن أحمد: الفصل في الملل والأهواء والنحل. تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة. دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥ .

٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ الرازي، فخر الدين:

* اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. اعتنى به مصطفى عبد الرزاق وعلي النشار. مطبعة لجنة التأليف والترجمة، الناشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة. ١٩٣٨ .
* لباب الإشارات والتنبيهات. تحقيق أحمد حجازي السقا. الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. ط١، ١٩٨٦ .
* المطالب العالية من العلم الإلهي. اعتنى به أحمد حجازي السقا. مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت. ط١، ١٩٨٧ .

٦٣ ـ عبد الرحمن، آل الشيخ: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. راجع حواشيه وصححها وعلق عليها عبد العزيز بن باز. دار الحديث بالقاهرة. ط٢، ١٩٩٢ .

٦٤ ـ ابن أبي العز، علي بن محمد: شرح العقيدة الطحاوية. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط١، ١٩٨٧ .

٦٥ ـ الطحاوي، أبو جعفر أحمد: العقيدة. (المعروفة بالطحاوية). دار بن حزم، بيروت. ط٢، ١٩٩٣ .

٦٦ ـ عبد القاهر، البغدادي: الفرق بين الفرق. دار الكتب العلمية، بيروت.

٤ ـ الفقه والفتاوى:

٦٧ ـ ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد: المقدمات الممهدات. تحقيق: محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط١، ١٩٨٨ .

٦٨ ـ زروق، أحمد البرنسي: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني. دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢ .

٦٩ ـ السنبهلي، محمد برهان الدين: قضايا فقهية معاصرة. دار القلم، دمشق، ودار العلوم، بيروت. ط١، ١٩٨٨ .

٧٠ ـ ابن الشاط، أبو القاسم: إدرار الشروق على أنواء الفروق. طبع مع فروق القرافي. عالم الكتب، بيروت.

٧١ ـ الشافعي، محمد بن إدريس: الأم. صححه محمد زهري النجار. دار المعرفة، بيروت. ط٢، ١٩٧٣ .

٧٢ ـ القرافي، إدريس شهاب الدين: الفروق. عالم الكتب، بيروت.

٧٣ ـ القيرواني، ابن أبي زيد: الرسالة. ١٩٩٣ ، دار الفكر.

٧٤ ـ المنوفي، علي بن خلف: كفاية الطالب الرباني، على رسالة ابن أبي زيد القيرواني. تحقيق أحمد حمدي إمام. مراجعة المستشار علي الهاشمي. ط١، ١٩٨٩ . مطبعة المدني، القاهرة.

٧٥ ـ ابن ناجي، قاسم التنوخي: شرح رسالة القيرواني. دار الفكر، ١٩٨٢ . مطبوع مع شرح زروق.

٧٦ ـ النفراوي، أحمد بن غنيم: الفواكه الدواني، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني. المكتبة الثقافية، بيروت.

ـ الفتاوى:

٧٧ ـ ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة. أشرف على تجميعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر. ط١، ١٩٨٨ . طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة، الرياض.

٧٨ ـ ابن تيمية، أحمد تقي الدين: مجموع الفتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

٧٩ ـ النووي، يحيى شرف الدين: المسائل المنثورة. ترتيب تلميذه علاء الدين بن العطار. تحقيق وتعليق محمد الحجار. ط٥، ١٩٩٠ . دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٨٠ ـ الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. اعتنى به مجموعة من أهل العلم، بإشراف محمد حجي. طبع دار الغرب الإسلامي. نشر وزارة الأوقاف المغربية. ١٩٨١ .

٥ ـ فكر وفلسفة:

٨١ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مطبعة محمد عاطف، القاهرة.

٨٢ ـ ٨٣ ـ ابن رشد الحفيد، أبو الوليد:

* تلخيص السماء والعالم. (الأصل لأرسطو). تحقيق جمال الدين العلوي. منشورات كلية الآداب، بفاس. ط١، ١٩٨٤ .

* تهافت التهافت. تقديم وضبط: محمد العريبي. دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٣ .

٨٤ ـ الطوسي، علاء الدين خواجه زاده: تهافت الفلاسفة. الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ط٢، ١٩٨٣ .

٨٥ ـ القرضاوي، يوسف: العقل والعلم في القرآن الكريم. مطبعة المدني، الناشر مكتبة وهبة، كلاهما بالقاهرة. ط١، ١٩٩٦ .

٦ ـ التنجيم:

٨٦ ـ الأهدل، محمد بن أحمد: تحذير الإخوان المسلمين من تصديق الكهان والعرافين والمنجمين. مطابع الوحيد، السعودية. ط١، ١٩٩٨ .

٨٧ ـ الحسيني، السيد: السر الرباني في علوم الفلك والروحاني. مطبعة النصر، بمصر، ١٩٩٢ .

٨٨ ـ الخطيب، أبو بكر علي بن أحمد: القول في علم النجوم. حققه يوسف بن محمد السعيد. دار أطلس، الرياض. ط١، ١٩٩٩ .

٨٩ ـ شيشرون: علم الغيب في العالم القديم. ترجمه وعلق عليه: توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد، الناشر مكتبة الآداب بالجمامين، كلاهما بمصر. ١٩٤٦ .

٩٠ ـ عيسى، بن علي أبو القاسم: رسالة في إبطال التنجيم. نقلها ابن القيم في: «مفتاح دار السعادة »، ص ٤٦٨ فما بعدها.

٧ ـ العلوم: تصنيفها وتاريخها.

٩١ ـ ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم السنجاري: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد. تحقيق محمود فاخوري، ومحمد كمال، وحسين الصديق. ط١، ١٩٩٨ . مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

٩٢ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر، وعبد الحليم النجار، ورمضان عبد التواب. دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران. ط٢ . وأحيانا اعتمدت على: طبعة دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٤ .

٩٣ ـ حاجي خليفة، كاتب جلبي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تصوير سنة ١٩٩٠ عن طبعة دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٢ .

٩٤ ـ سزكين، فؤاد: محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ١٩٨٤ . منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية التابع لجامعة فرانكفورت بألمانيا.

٩٥ ـ صاعد، بن أحمد أبو القاسم: طبقات الأمم. مطبعة التقدم. توزيع المكتبة المحمودية التجارية، كلاهما بالقاهرة.

٩٦ ـ الفارابي، أبو نصر: إحصاء العلوم. تحقيق وتقديم: عثمان أمين. ط٣، ١٩٦٨ . مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.

٩٧ ـ طاش كبرى، زاده: مفتاح السعادة، ومصباح السيادة. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٩٨٥ .

٩٨ ـ ابن النديم، أبو الفرج الوراق: الفهرست. تحقيق رضا تجدد الحائري. ط١، ١٩٧١، إيران. دار النشر غير مذكورة.

٨ ـ التاريخ:

٩٩ ـ جواد، علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت. مكتبة النهضة، بغداد. ط٢، ١٩٧٦ .

١٠٠ ـ المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط٣، ١٩٥٨ . مطبعة السعادة بمصر. توزيع المكتبة التجارية الكبرى.

٩ ـ التراجم:

١٠١ ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام. القاهرة. ط٣، ١٩٦٩ .

١٠٢ ـ ابن السبكي، عبد الوهاب تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناجي. مطبعة عيسى البابي الحلبي. ط١، ١٩٦٤ .

١٠٣ ـ عمر، رضا كحالة: معجم المؤلفين. مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، كلاهما ببيروت.

١٠ ـ الموسوعات:

١٠٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية. نقلها إلى العربية جماعة من الباحثين. دار: انتشارات جهان. طهران.

١١ ـ كتب متنوعة:

١٠٥ ـ أبو تمام: الديوان. شرح الخطيب التبريزي. تحقيق محمد عبده عزام. دار

المعارف بمصر١٠٦ ـ ابن رجب، الحنبلي: فضل علم السلف على الخلف. عنى به محمد أغا النقلي. إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة. ط٢، ١٣٤٧ هـ.

١٠٧ ـ ابن القيم، شمس الدين: مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة. ١٩٩٨ . دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٨ ـ الندوي، علي أبو الحسن: الإمام السرهندي، حياته وأعماله. ط١، ١٩٨٣ . دار القلم، الكويت.

١٢ ـ المخطوطات:

١٠٩ ـ البناني، محمد بن الحسن: فتوى في علم النجوم. ضمن مجموع أوله متن الأجرومية، ورسالة البناني هي الخامسة في الترتيب، (ص ٤١٦ إلى ٤١٨) وهي مكتوبة بخط مغربي زمامي، وغير مذكور فيها تاريخ النسخ، ولعلها بخط المؤلف. رقم المخطوط بالخزانة العامة بالرباط، قسم المخطوطات: د ٢٨٨١ .

١١٠ ـ البيروني، محمد بن أحمد أبو الريحان: التفهيم في صناعة علم التنجيم. ضمن مجموع، والمخطوط يشغل ما بين ص٧ إلى ٢١١ . وهو بخط مغربي لا بأس به، وفيه صور وأشكال وجداول فلكية. أول المخطوط: إن الإحاطة بهيئة العالم وكيفية السماء والأرض. . .وآخره: وعند البلوغ إلى هذا الموضع من صناعة التنجيم كفاية، ومن تعداها فقد عرض نفسه. والله المستعان وعليه التكلان. (ثم التصلية على النبي). رقمه في الخزانة العامة بالرباط: ٢٠٦٠ د.

١١١ ـ ابن أبي الرجال، علي أبو الحسن: منظومة في التنجيم. ضمن مجموع، ص ٢٣١ إلى ٢٧٤ .

أوله: قال علي بن أبي الرجال　　الحمد لله العظيم العالي

وآخره: ثم صلاة ربنا العلي　　على النبي أحمد الزكي

رقمه بالخزانة العامة: ٢٠٦٠ د.

١١٢ ـ المدني، محمد بن جلون الكومي: حديقة الأزهار المهداة لسيد الأبرار في التحدير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار.

الكتاب ١٥ ضمن مجموع: ص ٣٣٠ إلى ٤٢٦ . تاريخ نسخة ١٢٨٧ هـ،

وعليه خط المؤلف. أوله: الحمد لله رفع عماد السنة وأعلى منارها وخفض البدعة وكسف أنوارها... آخره: ولا تتوقفوا عن الاستضاءة بنور فجرها. قاله وجمعه عبيد ربه أفقر الورى وأحقر من يرى محمد المدني بن علي بن جلون، كان الله له. رقمه بالخزانة الحسنية ١١٩٧٣.

١٣ ـ الصحف:

ـ الحياة: رئيس التحرير جهاد الخازن. تصدر من لندن.

ـ الشرق الأوسط: يومية عربية دولية.

ـ العلم: رئيس التحرير: عبد الكريم غلاب. المغرب.

ـ القدس العربي: رئيس التحرير: عبد الباري انطوان. لندن.

ثانيا ـ بالفرنسية:

١ ـ التنجيم والفنون الخفية:

113 - 114 - Boll, Marcel : *L'occultisme devant la science.

Collection : Que sais - je ? 2ème édition, 1947.

Presses Universitaires de France - Paris.

*Quelques sciences captivantes. (Ondes humaines?

Délires collectifs. Hypnotisme. Psychanalyse.

Suggestion. Métapsychie. Astrologie. Spiritisme. Radiesthésie).

Editions du Sagittaire, Marseille, France, 1941.

115 - Couderc, Paul : L'astrologie.

Presses de France. QSJ, 1er ed, 1951.

116 - Delma, Michaël : Verseau.

Editions Harlequin, 1995.

117 - Dodds, E.R : Les Grecs et l'irrationnel.

Traduit d'anglais par : Michael Gibson.

Aubier, Editions Montaigne, Paris, 1965.

118 - Faivre , Antoine : l'ésotérisme.

Q.S.J. Presses de France, 1993.

119 - Flacelière, Robert : Devins et oracles grecs.

P.U.F. coll : QSJ. 1er éd, 1961.

120 - 121 - 122 - Maisonblanche, Frédéric :

*Poissons. Collection Marabout Service, 1988.

*Vierge . Coll, Marabout Service, 1988.

*Le Sagittaire et l'amour. Editions Marabout, 1988, Belgique.

123 - Mehren , A.F : Vues d'Avicenne sur l'astrologie.

Louvain, Librairie Peters, 1885. Belgique.

Stiénon, Marguerite : L'occultisme du Zodiaque. - 124 - Mértens

Editions Adyar, Paris VII, 1939.

125 - Neroman, Dom : La fausse science devant l'occultisme. (Réponse à

l'occultisme devant la science, de Marcel Boll).

Editions: Jean - Renard, Paris, 1945.

126 - Papus, Gérard : Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie.

Initiation à l'étude de l'Esotérisme hermétique.

Editions Dangles, Paris, 1936.

127 - Ptolémée, Claude : La Tétrabible : Manuel d'astrologie.

Traduit par Nicolas Bourdin. Editions les Belles Lettres. Paris, 1993.

128 - Rao, T.Subba : Les douze signes du zodiaque.

Un article que Mme Mértens a reproduit dans son livre.

129 - Tucker, William : Principes d'astrologie scientifique.
Traduit d'anglais par : Adrien Vochelle, 1938.

٢ ـ الفلسفة :

130 - Augustin, Saint : Confessions.
Traduit du latin par Louis de Mondadon.
Collection Point, Sagesses. Editions du Seuil, 1982, Paris.

131 - Barreau, Hervé : L'épistémologie.
Coll : QSJ - PUF. 3ème Ed, 1995.

132 - Descartes, René : Discours de la méthode.
Maxi - Poches, Paris, 1995.

133 - Platon : Timée.
Traduit par : Albert Rivaud. Editions les Belles Lettres, Paris 1949.

٣ ـ كتب مختلفة :

134 - Bervoir, André : La météorologie.
QSJ. 3ème éd, 1995.

135 - La Fayette, Madame de : La princesse de Clèves.
Collection : Grands textes classiques, 1993.

136 - La Fontaine, Jean : Les Fables.
Illustrés par Grandville. Editions Marabout. 1987.

137 - Lagache, Daniel : La psychanalyse.
P.U.F. Collection : QSJ. 18ème Edition, 1996.

138 - Petit, Paul : Précis d'histoire ancienne.
Presses Universitaires de France. 1er éd, 1962.

٤ ـ المجلات والصحف:

- Futuribles (Analyse - prévision - prospective). Revue mensuelle, le directeur :

Hugues de Jouvenel, Paris. شهرية متخصصة في المستقبليات، بالفرنسية.

صحيفة دولية يومية، الطبعة الأوربية، بالإنجليزية ـ International Herald Tribune.

جريدة ناطقة بالإنجليزية تصدر من جدة بالسعودية ـ . Saudi Gazette

فهرس الموضوعات